



جامعة 8 ماي 1945 قالمة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم: التاريخ

المماليك وعلاقتهم بالسلطنة الحفصية خلال القرنين
7-9هـ/13-15م

مذكرة لنيل شهادة الماستر تخصص تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي

إشراف الأستاذ الدكتور:

كمال بن مارس

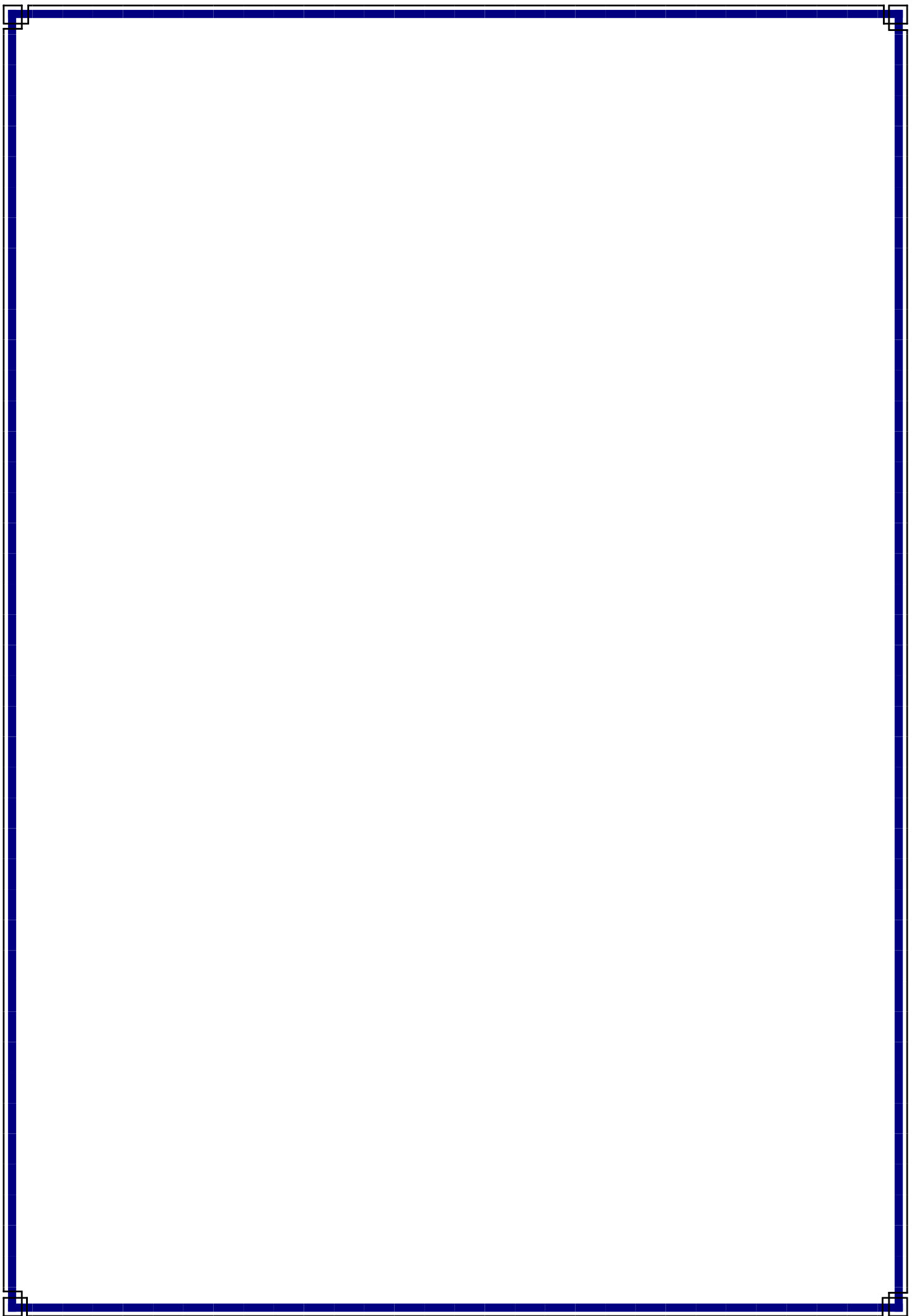
إعداد الطالبتين:

❖ لكحل نبيلة

❖ خلايفية وفاء

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
د/رابح أولاد ضياف	أستاذ محاضر أ	رئيسا	جامعة 8ماي 1945
أد/كمال بن مارس	أستاذ	مشرفا ومقررا	جامعة 8ماي 1945
أ/عبد القادر مباركية	أستاذ مساعد ب	عضوا مناقشا	جامعة 8ماي 1945

السنة الجامعية: 1439-1440هـ/2018-2019م



شكر وعرافان

في أول المقام نشكر الله العلي القدير المولى عز وجل الذي وفقنا طيلة مشوارنا الدراسي وفي هذا الصدد نتقدم بأسمى عبارات الشكر والإحترام والتقدير الى الأستاذ الدكتور "كمال بن مارس" لقبوله الإشراف على هذه المذكرة الذي لم ييخل علينا بنصائحه وتوجيهاته القيمة الذي كان خير مرشد لنا في هذا العمل رغم ضيق الوقت وكثرة انشغالاته ونشكره على رحابة صدره وعلى كرمه ونسأل الله العظيم له دوام العافية والصحة فله جزيل الشكر والتقدير.

كما نشكر كل من ساعدنا وقدم لنا النصح والتوجيه ونخص بالذكر الأستاذ بن ميلاد لطفي وبن جدلة إبراهيم، بدر الدين نصيري من جامعة تونس

كما نتقدم بالشكر الجزيل الى لجنة أعضاء المناقشة الذين شرفونا بمناقشة هذه المذكرة.

والشكر موصول الى كل أساتذة التاريخ

الإهداء

اللهم لك الحمد ولك الشكر الحمد لله على توفيقنا في إنجاز هذا العمل، وما التوفيق إلا من عنده سبحانه وتعالى.

أهدي ثمرة جهدي الى أغلي ما أملك الى والدي الكريمين حفظهما الله.

الى أفراد عائلتي كل بإسمه.

إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد.

الى زملائي طلبة السنة الثانية ماستر تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي.

وفاء

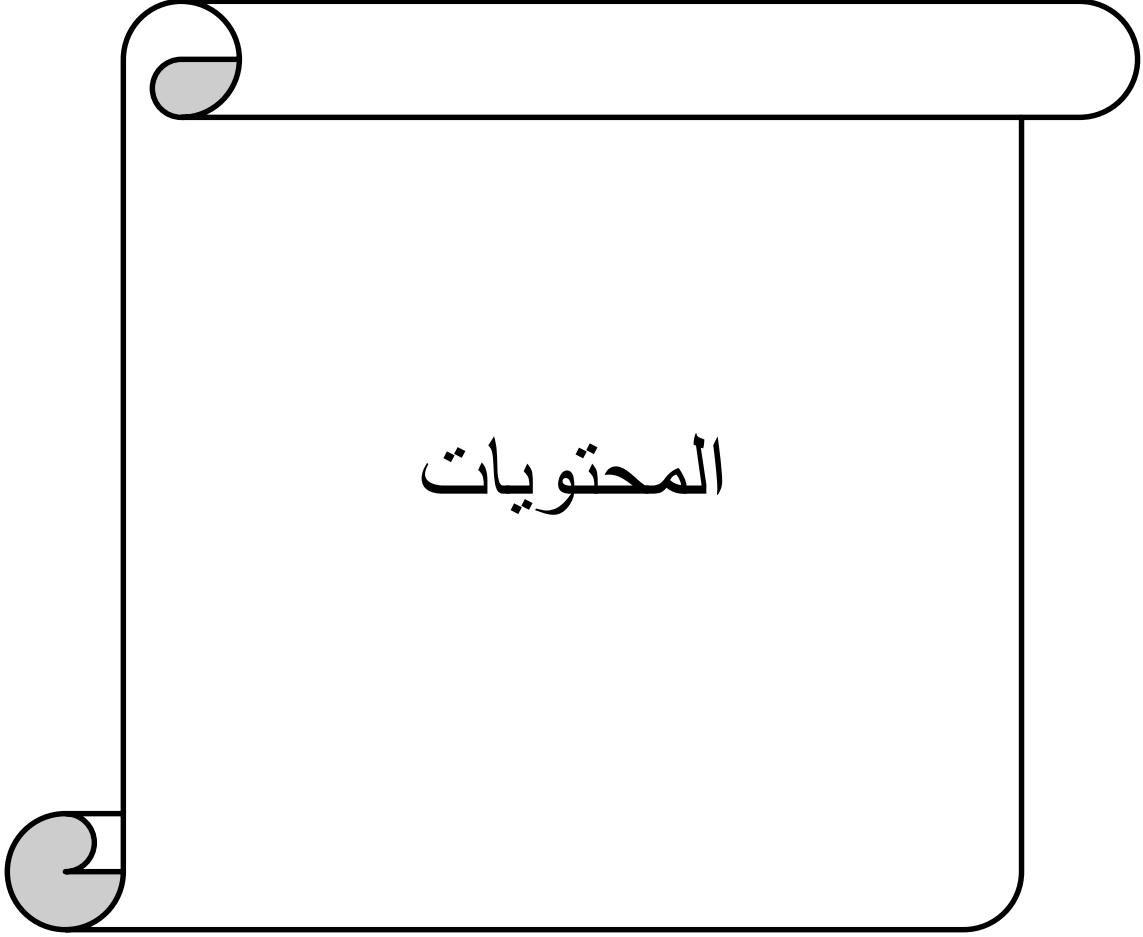
الإهداء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"تعلموا العلم فإن نعمته لله خشية، وطلبه عبادة ومذكراته تسبيح "

أهدي ثمرة جهدي الى والدي أطال الله عمرهما، والى كل العائلة والأصدقاء

وكل من كان لي عوناً وسنداً في هذا العمل



المحتويات

الصفحة	الموضوع	
	شكر وعرقان	
	إهداء	
	المحتويات	
أ	مقدمة	
	الفصل الأول: بدايات العلاقات السياسية بين المماليك والحفصيين	
31-19	جذور التواصل المملوكي الحفصي	المبحث 1
43-32	مسألة الخلافة الإسلامية وأثرها على مجرى العلاقات	المبحث 2
51-44	موقف المماليك من حركة أبي زكريا اللحياني	المبحث 3
65-52	أثر المراسلات والسفارات في دعم العلاقات المملوكية - الحفصية	المبحث 4
	الفصل الثاني: النشاط الإقتصادي ومظاهره	
87-67	طرق التجارة ومحطاتها	المبحث 1
102-88	المنشآت والنظم التجارية	المبحث 2
119-103	وسائل التعامل التجاري	المبحث 3
136-120	المواد المتبادلة	المبحث 4
	الفصل الثالث: التأثير الثقافي المملوكي - الحفصي	
157-138	الرحلة بين المغرب والمشرق	المبحث 1
175-158	إنتشار المذاهب والفرق الدينية	المبحث 2
190-176	المجال العلمي	المبحث 3
203-191	التأثيرات العمرانية الفنية	المبحث 4

ل	الخاتمة	
210	ملاحق	
232	قائمة المصادر والمراجع	
255	فهرس المحتويات	

المحتويات

شكر وعرافان

إهداء

.....مقدمة

الفصل الأول: تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والحفصيين

.....المبحث الأول: جذور التواصل المملوكي الحفصي

.....المبحث الثاني: مسألة الخلافة الإسلامية وأثرها على مجرى العلاقات

.....المبحث الثالث: موقف المماليك من حركة أبي زكريا اللحياني

.....المبحث الرابع: أثر المراسلات والسفارات في دعم العلاقات المملوكية - الحفصية

الفصل الثاني: النشاط الاقتصادي ومظاهره

.....المبحث الأول: طرق التجارة ومحطاتها

.....المبحث الثاني: المنشآت والنظم التجارية

.....المبحث الثالث: وسائل التعامل التجاري

.....المبحث الرابع: المبادلات التجارية

الفصل الثالث: التأثير الثقافي المملوكي - الحفصي

.....المبحث الأول: الرحلة بين المغرب والمشرق

.....المبحث الثاني: انتشار المذاهب والفرق الدينية

.....المبحث الثالث: المجال العلمي

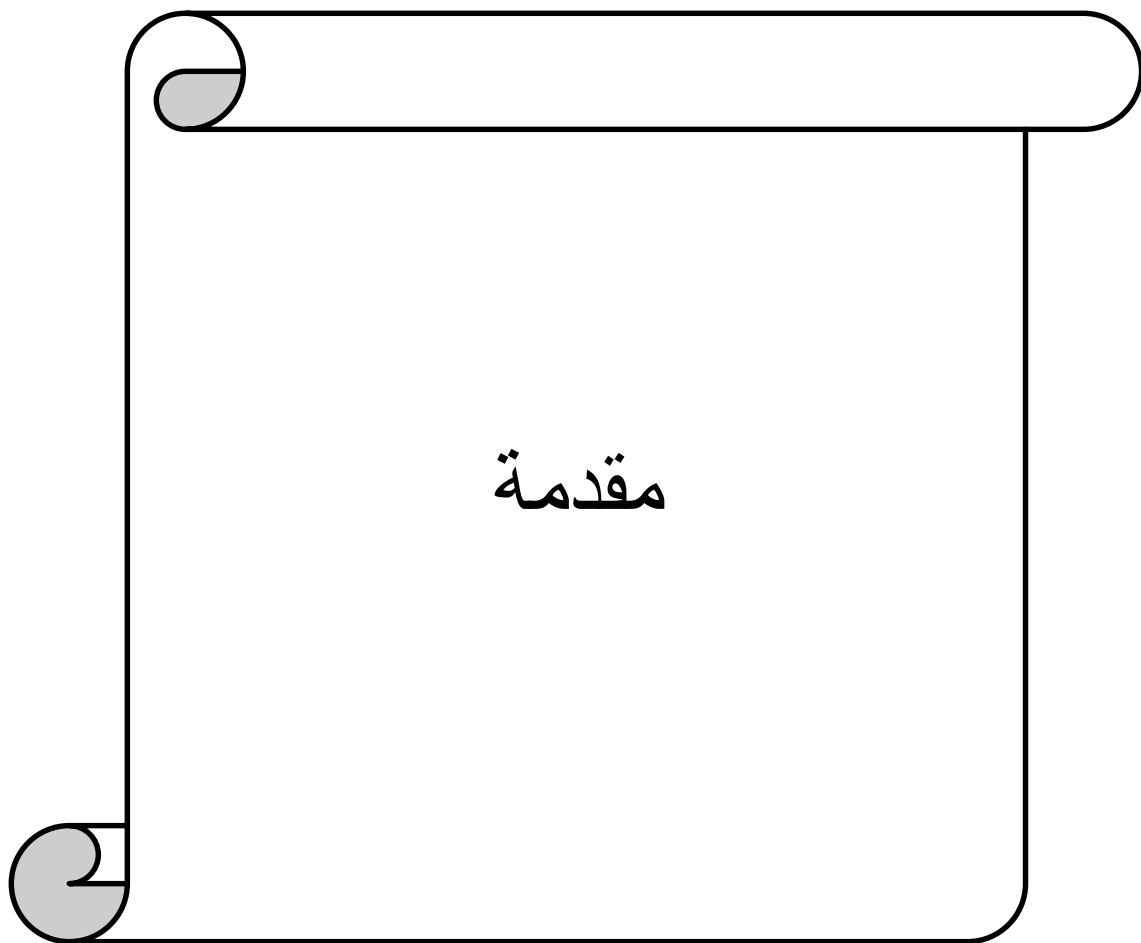
.....المبحث الرابع: التأثيرات العمرانية الفنية.....

.....خاتمة.....

.....الملاحق.....

.....قائمة المصادر والمراجع.....

.....فهرس المحتويات.....



مقدمة

مما لا شك فيه أن العلاقات تعد من أقدم أشكال التواصل التي ربطت الأفراد والشعوب ومن ثم الدول على مر العصور لاسيما، وأن دراسة العلاقات من شأنها أن تحيط بجميع الوجوه وتعتبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً عن المرحلة أو الفترة المراد تناولها بالدرس.

وعليه فإن دراسة العلاقات بين المشرق والمغرب تحظى بعناية كبيرة وخاصة وأن بلاد المغرب إرتبطت ببلاد المشرق منذ العصور الأولى لتشكل بذلك إرتباطاً عضوياً وإمتداداً جغرافياً بين إقليمين إسلاميين مما ساعد في عملية التواصل الدائم بينهما وعلى مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية.

وما ساهم في توطيد هذه الروابط والعلاقات هي حركة الفتوحات الإسلامية التي كان لها الدور البارز في توحيد البنية الاجتماعية من خلال رابطة اللغة والدين، فأضحت بلاد المغرب تمثل الجناح الغربي للعالم الإسلامي وجزء لا يتجزأ منه، هذا الأخير الذي كان يشهد الكثير من التحولات السياسية خاصة في الخارطة السياسية وحتى المذهبية، ولم يكن المغرب بمنأى عن هذه التأثيرات التي صبغت هذه الروابط بين المشرق والمغرب.

وفي هذا الإطار يندرج موضوع هذه الدراسة المعنونة ب: **المماليك وعلاقاتهم بالسلطنة الحفصية خلال القرنين 7-9هـ / 13-15م.**

أهمية الموضوع:

ولهذا فإن دراسة تاريخ العلاقات المشرقية-المغربية تكتسي أهمية خاصة ، ليس بسبب الموقع الجغرافي للبلدين وطبيعة العلاقات بينهما وأشكالها، بل بسبب تهيئة الظروف المناسبة لديمومة تلك العلاقات وتطورها، وما رافقها من تأثيرات متبادلة بين البلدين في ظل الأحداث والتطورات الحاسمة التي كان يعرفها العام الإسلامي بين مشرقه ومغربه اللذان كانا يجتازان فترة إنتقالية خطيرة، فالخلافة العباسية لم يعد لها السيطرة الكاملة على المشرق الإسلامي كما كانت في عز سيطرتها، في الوقت أصبح فيه منصب الخلافة شكلياً تحت حكم وسلطة المماليك ، وذلك في ظل تصاعد وتزايد الأخطار الخارجية التي كانت تهدد كل من سلطتي المماليك في بلاد المشرق والحفصيين في بلاد المغرب .

الإشكالية:

إن دراسة موضوع العلاقات بين المماليك والحفصيين لاسيما عقب تفكك وزوال الخلافة العباسية وما أعقبها من أحداث وتحولات سياسية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي التي

كان لها الأثر البالغ على طبيعة العلاقات بين الطرفين، وهذا ما يفتح لنا المجال لطرح إشكالية رئيسية تتمحور حول مدى تأثير الأحداث والتطورات الحاصلة آنذاك على مجرى ورسم منحى العلاقات وبلورتها بين دولتي المماليك والحفصيين خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م.

وتندرج تحت هذه الإشكالية التساؤلات الفرعية التالية:

- بما تميز الواقع السياسي لبلاد المشرق والمغرب الإسلاميين خلال القرنين 7-9هـ/13-15م؟
- كيف كانت مواقف المماليك من الأحداث السائدة والدائرة في السلطنة الحفصية؟ وكيف كان تعاملها إزاء ذلك؟

- ماهي أهم العوامل المساعدة على تنشيط الحركة الاقتصادية التي ربطت بين البلدين؟
- ماهي الأطراف الفاعلة والمساهمة في توطيد هذه العلاقات وفعاليتها في إستمرارية النشاط التجاري؟

- إلى أي مدى ساهم الجانب الثقافي في إثراء وإستمرارية العلاقات بين المماليك والحفصيين؟
- وماهي السبل المساهمة في ديمومة وتوثيق هذا التواصل والتفاعل بين الإقليمين؟
- وفيما تمثلت أبرز مظاهر التواصل الثقافي؟ وكيف كان له الأثر في توطيد وترسيخ معالم الوحدة الثقافية بين البلدين؟

دوافع وأسباب إختيار الموضوع:

لقد كان إختيارنا لهذا الموضوع مبنيا على دوافع موضوعية وأخرى ذاتية، حيث أن قلة الدراسات التي تخصصت في دراسة العلاقات بين المماليك الحفصيين بشكل خاص ومستقل جعلتنا نهتم بتتبع هذه العلاقات في شقيها السياسي والإقتصادي والثقافي خلال الفترة الوسيطية المتأخرة وبالضبط خلال القرنين 7-9هـ/13-15م.

كما أن طبيعة هذه الدراسة تركز على البعد السياسي، خاصة وأنه المنطلق الرئيسي لفهم خلفيات العلاقات في الوقت نفسه لم نغفل أو نهمل عن ذكر الروابط الإقتصادية والثقافية التي كانت إنعكاسات للعلاقات السياسية ومدعمة لها في كثير من الأحيان وتتأثر بالأوضاع السائدة.

أما العوامل الذاتية تتمثل في حب البحث والتعمق في هذا المجال، إضافة الى محاولة إبراز المكانة والدور الذي لعبته السلطنة الحفصية، في هذه الفترة أمام نظرائهم المماليك في صنع الأحداث الفاعلة والمفصلية في ظل تغييب دور المغرب الإسلامي في صنع الحضارة العربية.

الإطار الزمني والمكاني:

فمن خلال تحديدنا للإطار الزمني والمكاني يسهل علينا فهم الموضوع والإحاطة بجزئياته، إذ يتمثل الإطار المكاني للدراسة القطر المملوكي وما شمله من أقاليم ببلاد المشرق والمجال الحفصي والذي يضم تونس (المغرب الأدنى) وجزء من الجزائر الشرقية وإقليم من ليبيا وهي طرابلس الغرب.

أما الزمني في تناول بالضبط الفترة ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م.

الدراسات السابقة:

على الرغم من ظهور دراسات تتعلق بالموضوع إلا أن جلها لا يفرد دراسة العلاقات بين المماليك والحفصيين بجميع جوانبها بدراسة مستقلة، وإنما تكون في إطار مواضيع عامة دون التخصص، وتكون ضمن مجال العلاقات بين المشرق والمغرب.

ولهذا فقد تطلب منا هذا العمل الرجوع الى العديد من الدراسات السابقة والقريبة من موضوع الدراسة، وذلك من أجل الاستفادة من أكبر عدد ممكن من المصادر والمراجع التي تساعدنا في بلورة وتكوين أفكار عن الموضوع.

ومن أهم الدراسات في هذا الجانب والتي سلطت الضوء على تاريخ العلاقات بين المماليك والحفصيين خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م نجد: كتاب إفريقية والمشرق المتوسطي من أواسط القرن 5هـ/11م الى مطلع القرن 10-16م للباحث بن ميلاد لطفي، وفي هذه الدراسة تم التطرق فيها إلى مختلف الجوانب، إلا أنه تغافل عن ذكر وحصر أهم علماء العهد الحفصي، وإعطاء دراسة إحصائية ولو تقريبية، كما أنه إكتفى بذكرهم بشكل عام.

كذلك نجد دراسة الباحث عبد الرحمن الأعرج والموسومة ب: علاقات دول المغرب الإسلامي بدول المماليك سياسيا وثقافيا بين القرنين 7-9هـ/13-15م وهي عبارة عن رسالة دكتوراه في هذه الدراسة خصص فصلا كاملا عن العلاقات السياسية بين دولة المماليك والحفصيين إلا أنه تطرق وبشكل عام ولم يخصص لاسيما في الجانب الثقافي، وإنما تناولها بشكل عام في إطار علاقات دول المغرب الإسلامي بدولة المماليك، وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسة

ومعالجتها لهذا الموضوع وفي نفس الفترة المدروسة، إلا إنها لم تعالج جميع الجوانب بشكل مستقل وهو ما لا يمكننا من إبراز وفهم طبيعة العلاقة بينهما.

كما نجد دراسة مهمة للباحثة مريم محمد جوده التي كانت تحت عنوان التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحيدي والحفصي (555-980هـ/1160-1517م) والتي هي في الأصل عبارة عن دراسة دكتوراه قد تناولت بالتفصيل الواقع الإقتصادي والتجاري في إفريقية خلال العهدين الموحيدي والحفصي، بالإضافة الى التعرّيج على المسارات والطرق التجارية وبإشارة مقتضبة الى أهم المبادلات بين المشرق وإفريقية، إلا أنها كانت متناولة بشكل عام.

كما نجد كذلك دراسة Mounira chapoutout-Remadi في مقالها المعنون ب: بين إفريقية الحفصية ومصر المملوكية علاقات قديمة مستمرة وموحدة
- Des relations anciennes ،Entre Ifriqiya hafside et Egypte mamelouke continues et consolidées.

لاسيما وتركيزها على البعد السياسي وتاريخ العلاقة بين إفريقية الحفصية ودولة المماليك في هذا الجانب دون التطرق الى الجوانب الأخرى في تاريخ العلاقات بين المماليك والحفصيين. وبمنظرة عامة حول هذه الدراسات نلاحظ أن غالبيتها تناولت الموضوع بشكل عام بعيدا عن دراسة مستقلة تعنى بجميع المجالات بين الطرفين، كما نجد أن البعض منها من عالجهما وإكتفى بالتطرق الى جانب واحد وإغفال الجوانب الأخرى، ولم تحاول إبراز مظاهر العلاقات التي تعنى بهذه الجوانب.

عرض خطة الموضوع:

أما بالنسبة لخطة الدراسة فهي مكونة من ثلاثة فصول وذيلانا بخاتمة ضمت مجموعة من الإستنتاجات التي تم التوصل اليها.

حيث جاء الفصل الأول بعنوان تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والحفصيين مركزين على بداية التوصل المملوكي -الحفصي، إضافة الى مسألة الخلافة الإسلامية وأثرها على مجرى العلاقات وتدايعات هذا الإعلان وما أعقبه من تنافس بين كل من المماليك والحفصيين مع التطرق الى موقف المماليك من حركة أبي زكريا اللحياني والمراسلات والهدايا التي كانت متبادلة بين حكام الدولتين.

وخصص الفصل الثاني للحديث عن مظاهر النشاط الاقتصادي بين الدولتين المملوكية والحفصية، والذي حاولنا فيه الحديث حول أهم الطرق التجارية ومراكزها وكذلك المنشآت والتنظيمات التجارية السائدة في كلا من البلدين محاولين إبراز أهم المبادلات التجارية من خلال حركة الإسيتراد والتصدير بين الجانبين المملوكي - الحفصي.

بينما تطرقنا في الفصل الثالث حول التواصل الثقافي وتأثيراته بين الطرفين، والذي حاولنا فيه الحديث عن ظاهرة الرحلة من المغرب الى المشرق وفي كونها العامل المساعد على تقوية وتوثيق روابط التواصل مع ذكر وإستقراء وإحصاء لعدد العلماء المغاربة المرتحلين من المغرب الى مشرق من خلال كتاب ابن تغري بردي "المنهل الصافي".

كما تطرقنا في هذا الفصل الى إبراز مظاهر هذا التواصل الثقافي من خلال تبادل العلوم والمعارف وما رافقها من تأثيرات عمرانية وفنية وعلمية وحتى مذهبية ودينية. وختمت هذه الدراسة بخاتمة وهي عبارة عن مجموعة من الإستنتاجات العامة حول الموضوع.

منهج الدراسة:

ولقد إتبعنا في هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي بالدرجة الأولى والملائم لطبيعة الدراسة لدينا في تحصيل المادة التاريخية من مصادرها ومراجعتها وعرضها وفقا لما يتلاءم وطبيعة الدراسة، وكذلك المنهج التحليلي من أجل تحليل العديد من الظواهر ومن نصوص ورسائل وكذلك تحليل بعض المواقف السياسية بين الطرفين وهذا كله لفهم وتفسير مختلف الظروف المحيطة بالأحداث التاريخية، وللوقوف كذلك على حيثيات الموضوع وتطورات المشهد السياسي السائد آنذاك بين الطرفين.

كما إستعملنا الإحصاء في الفصل الثالث وذلك كأداة لمحاولة للتعرف وإعطاء دراسة إحصائية حول أعداد ونسب العلماء المغاربة بصفة عامة، وعلماء تونس بشكل خاص المرتحلين بين حواضر ومدن بلاد المشرق طيلة فترة الدراسة مرفقة بنظرة تحليلية ونقدية لنسب أعداد هؤلاء العلماء المرتحلين لبلاد المشرق وذلك لفهم سياق وخلفيات هذا التفاوت في أعداد العلماء بين مختلف أقطار بلاد المغرب الإسلامي.

الصعوبات:

وكأي موضوع لا يخلو من الصعوبات التي تواجه أي باحث أو طالب في مجال بحثه أو دراسته والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

-إتساع الموضوع المعالج في كونه يرتبط ويعنى بدراسة جميع الجوانب السياسية، الإقتصادية والثقافية، وما يتضمنه كل جانب من قراءة جيدة لإستقراء وفهم الواقع في تلك الفترة.

-صعوبة كيفية بناء خطة تحيط بالموضوع من جميع جوانبه يراعى فيها التسلسل المنطقي للأفكار، لذا إضطررنا الى إعادة النظر فيها مرات عديدة ويعود ذلك الى إتساع الموضوع وتداخل عناصره.

-إتساع الموضوع زمنيا ومكانيا إضافة الى ضيق الوقت من أجل الإلمام بكل المصادر والمراجع التي تتناول موضوع الدراسة.

-شح بعض المعلومات وندرتها خاصة المتعلقة بالجانب العمراني.

عرض المصادر والمراجع:

1-المصادر:

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: لتقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ (ت845هـ/1442م)، يعد هذا الكتاب من أهم المصادر المملوكية والذي ركز على العديد من الأحداث السياسية التي تعنى بالتاريخ السياسي للدولة المملوكية، كما ساعدنا كذلك في إستقراء الوضع الثقافي في دولة المماليك، كما يعد كتابه "المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار" المعروف بالخطط المقرئية لاسيما وأنه المصدر الذي إعتدنا عليه في رصد الواقع الثقافي من مؤسسات ومنشآت ثقافية، وذلك بإعتباره سجلا شاملا لخطط مصر العمرانية.

-صبح الأعشى في صناعة الإنشا: «لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م)، حيث يعد هذا الكتاب موسوعة حول تاريخ مصر خلال عصر المماليك خاصة وأن كاتبه إشتغل بديوان الإنشا لفترة طويلة مما أتاح له الإطلاع على مختلف الوثائق والرسائل السلطانية الدبلوماسية مع العديد من الملوك والسلطين ومن بينهم الحفصيين خاصة في جزئه السابع حيث يحتوي على العديد من المراسلات هذه الأخيرة التي تترجم لنا مسار وطبيعة العلاقات السائدة بين دولتي المماليك والحفصيين.

-بدائع الزهور في وقائع الدهور: لمحمد بن إياس الجركسي الحنفي (ت930هـ/1523م) والذي أفادنا في ذكر بعض الوقائع السياسية بين دولة المماليك والحفصيين بالإضافة الى تراجم بعض السلطين ومختلف إنجازاتهم.

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: لبدراالدين العيني (ت855هـ/1451م)، وهو عبارة عن موسوعة ابتدأها من تاريخ الأيوبيين وصولاً إلى حكم المماليك، خاصة وأنه أفادنا في مسألة الخلافة الإسلامية ومواقف المماليك تجاه هذا الإعلان.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت874هـ/1469م) ، والذي كان من جملة المقربين في البلاط المملوكي ، مما ساعده في التعرف على الوقائع بشكل دقيق ، ويقع هذا الكتاب على عدة أجزاء خصص منها العديد من الأجزاء لتاريخ المماليك في مصر، حيث تناول الكثير من الوقائع التاريخية وسير السلاطين ومنجزاتهم الثقافية ، كما يعد كتابه "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي" من أهم الكتب كذلك لاسيما وأنه خصصه لتراجم العديد من المشارقة والمغاربة، والذي أفادنا في إحصاء عدد العلماء المغاربة المرتحلين إلى بلاد المشرق.

- كتاب الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية: لأبي العباس أحمد بن علي الشهير بابن قنفذ القسنطيني (ت809 هـ/1406م)، والذي تضم أهم الأحداث السياسية الخاصة بالدولة الحفصية منذ تأسيسها إلى غاية عهد أبي فارس عبد العزيز، والذي يستعرض فيه لسير وسلطين الدولة الحفصية، كما يركز على أهم الأحداث والوقائع أثناء فترة كل حاكم وأهم إنجازاتهم.

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية: "لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي التونسي المعروف بالزركشي، والذي تعرض في كتابه لتاريخ الدولة الموحدية وخليفتها الدولة الحفصية وما عرفته هذه الأخيرة من أحداث سياسية، علماً أن هذا الكتاب عني بالجانب السياسي للدولتين.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لعبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م) حيث يعتبر من أهم المصادر في تاريخ المغرب بشكل عام والدولة الحفصية بشكل خاص، حيث أن مادته تعتبر إستنباطاً لتجارب المؤلف الخاصة، حيث إعتدنا عليه خاصة في إبراز التاريخ السياسي للدولة الحفصية وإهتمام بذكر علاقاتها الخارجية خاصة مع دولة المماليك وإيراده لجملة الهدايا والمراسلات بين الملوك الحفصيين والمماليك.

2- كتب الطبقات والتراجم:

- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: لأبي عبد الله محمد المليتي التلمساني المعروف بابن مريم (كان حياً سنة 1025هـ/1611م)، والذي هو عبارة عن تراجم لعلماء تلمسان وبعض

علماء المشرق والمغرب، حيث ساعدنا في التعريف بالكثير من الأعلام المشرقية والمغربية مع ذكر مؤلفاتهم.

-كتاب "نيل الابتهاج بتطريز الديباج": لأبي العباس أحمد بن أحمد المعروف بابا التتبكتي (ت 1032هـ/1624م) وهو كذلك عبارة عن تراجم لعلماء المغرب والأندلس والمشرق، مما أتاح لنا الإستفادة منه للتعريف بهؤلاء الأعلام.

-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: " لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت 704هـ/1307م)، يضم هذا المؤلف العديد من التراجم لعلماء بلاد المغرب بشكل عام، وكذلك علماء من بلاد المشرق، وفي ثنايا هذه التراجم كان يتم ذكر رحلات هؤلاء العلماء.

-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: "لشمس الدين السخاوي (ت 902هـ/1498م) والذي جمع فيه تراجم لمشاهير القرن 9هـ/15م من العلماء سواء من المشرق أو المغرب ورتبه على حروف المعجم.

-معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: «لأبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ (ت 685هـ)، كذلك ضم العديد من تراجم لأهم علماء إفريقية سواء من المتصوفين والعلماء وتم ذكر رحلاتهم وممن التقوه بهم وذكر شيوخهم وذكر أبرز مصنفاتهم.

3- كتب الرحالة والجغرافيين: نجد هذه المصادر تكتسي أهمية وقيمة كبيرة في توثيق الأحداث وتجسيد مدى التواصل الذي كان موجودا بين أقاليم الدول الإسلامية، ونجد من هذه المصادر: -الرحلة المغربية: لمحمد العبدري، والذي وصف لنا فيها البلدان التي زارها في المغرب والمشرق والدروب والمسالك المؤدية من المغرب الى المشرق.

-رحلة ابن خلدون: لعبد الرحمن بن خلدون وهي عبارة عن سير ذاتية أختص فيها كاتبها بالحديث عن نفسه وتعرض لأحوال الدول التي مر واستقر بها كما نجده يذكر الهدايا والمراسلات بين حكام الدولة الحفصية ودولة المماليك.

-رحلة ابن بطوطة: المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لمحمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 776هـ/1373م)، وهي رحلة ضمت العديد من المشاهدات والأحداث التاريخية التي صادفها أثناء رحلته معرجا على أهم الطرق والمحطات والمدن التي مر بها هذا فضلا عن وصفه لمظاهر الحياة الثقافية السائدة في تلك الأقاليم.

-وصف إفريقيا: للحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت 957هـ/152م)، تعتبر رحلته سجلا حافلا بالملاحظات ووصف ما صادفه للمدن والأقاليم، وحتى ذكره لبعض المظاهر الاقتصادية السائدة في تلك الأقاليم لاسيما إفريقية في العهد الحفصي خاصة وأنه الشاهد والمعاصر لتلك الحقبة.

-رحلة ابن جبير: لابي الحسن ابن جبير (ت 614هـ/1217م)، فهذه الرحلة غنية بالمعلومات والمشاهدات التي رصدها لنا ابن جبير من خلال رحلته خاصة فيما يتعلق برحلات القوافل لتجار بلاد المغرب خاصة أثناء فترة الحروب الصليبية، إضافة الى رصد الواقع الثقافي من خلال ذكره لمجالس العلم والوعظ والمؤسسات العلمية وغيرها من المشاهدات عني بذكرها عن حواضر بلاد المشرق.

-كتاب " المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب " لأبي عبيد الله البكري (ت 487هـ/1094م) هذا الكتاب الذي أفادنا في رسم خطوط الطرق ومسالكها بين إفريقية والمشرق الإسلامي إضافة الى ذكر الواقع الإقتصادي، وما يتميز به كل إقليم من منتجات زراعية هذا فضلا عن وصف تفصيلي للمدن والأقاليم.

4-كتب النوازل:

تعد من المصادر الأساسية في مثل هذا النوع من الدراسة وذلك لما تحمله بين طياتها من إشارات بالغة الأهمية لاسيما للنشاط التجاري، وعلى الرغم من الصبغة والنظرة الفقهية الشرعية إلا أن مواضيعها تعتبر مادة خامة يمكن إستغلالها في إستنباط معلومات نادرة لا يمكن العثور عليها في المصادر الأخرى ويأتي في مقدمتها:

-كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب: لأبي العباس أحمد بن يحي التلمساني الونشريسي (ت 914هـ/1508م)، حيث تكمن أهمية هذا المصدر أن صاحبه عاصر فترة الدراسة، إضافة الى أنه جمع فيه فتاوى العديد من الفقهاء في فترات سابقة له من مختلف ربوع بلاد المغرب الإسلامي، وقد أفادنا المعيار في العديد من الجوانب التي تخص هذه الدراسة خاصة فيما يتعلق بالجانب الإقتصادي والتجاري.

-جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتيين والحكام (فتاوى البرزلي): لأبي القاسم البرزلي التونسي (ت 841هـ/1438م)، والذي يعتبر من بين المصادر الفقهية التي أفادتنا في

بعض جوانب الموضوع، وتكمن أهمية هذا المصدر في كون البرزلي فقيه ومفتي تونس ومن هنا تكمن قيمة المعلومات المستقاة منه.

ثانيا-المراجع: ومن أهم المراجع المعتمدة في هذا الموضوع نذكر:

-روبار برنثيفك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13الى نهاية الفترة 15م ترجمة لحمادي الساحلي، فهذا الكتاب الذي يشمل جزئين حيث خصص الجزء الأول للجانب السياسي، أما الثاني فيتناول فيه العديد من الجوانب الحضارية للدولة الحفصية لاسيما العلاقات الإقتصادية والتجارية مع مختلف أقطار العالم الإسلامي خاصة مع بلاد المشرق.

-سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك في مصر والشام" فهذا الكتاب الذي يتناول تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية بجانبها السياسي والإقتصادي، وحتى الجانب الديني خاصة للدولة المملوكية.

-أوليفيا ريمي كونستيل: التجارة والتجار في الأندلس، حيث أفادنا هذا المرجع في التعرف على وضعية التجارة في حوض المتوسط ودور الدولة الحفصية في هذه التفاعلات الإقتصادية الحاصلة وعلاقتها بالأندلس.

-محمد عوض الله:"أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر المماليك، فهذا الكتاب أفادنا في رصد الحالة الإقتصادية خلال العهد المملوكي، وكذا حركة الأسواق والمنشآت التجارية والعملة المتداولة آنذاك.

-جورج مارسية: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة لمحمود عبد الصمد هيكل، فهذا الكتاب أفادنا في رصد العلاقة السياسية للدولة الحفصية ببلاد المشرق لاسيما في الفترة الوسطية المتأخرة.

-قاسم عبد قاسم: عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والإجتماعي، هذا الكتاب الذي ساعدنا في إبراز الواقع السياسي للدولة المملوكية وأهم المظاهر الحضارية المرتبطة بالجانب الثقافي في العهد المملوكي.

-محمد العناقرة: المدارس في مصر في عصر دولة المماليك، فهذا المرجع يعد دراسة جادة في موضوع الحياة العلمية لاسيما بالمنشآت في دولة المماليك، إضافة الى رصد مظاهر التعليم ومناهجه في مصر المملوكية.

-أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون حيث أفادنا هذا المرجع في إستعراض لظاهرة الرحلة لكونها أخذت النصيب الأوفر من عناية العلماء بها، وبالتالي وضح لنا هذا المرجع مكانة الرحلة وإهتمام العرب بها.

-محمد حسن: "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي"، فهذا الكتاب ضم جزئين تناول فيهما الباحث بشكل مطول عن جميع ومختلف الجوانب الحضارية للدولة الحفصية وعلاقتها لاسيما مع مصر في جانبه التجاري.

-محمد لعروسي المطوي: "السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي " فمن خلال هذا الكتاب الذي ركز على الجانب السياسي للدولة الحفصية، فإنه رصد لنا أهم الأحداث السياسية بالدولة، كذلك علاقاتها مع دولة المماليك من خلال إبراز وذكر لتلك المراسلات والهدايا والسفارات التي كانت تتم بين سلاطين المماليك ونظرائهم الحفصيين.

هذا بالإضافة الى العديد من المصادر والمراجع التي تم الإعتماد عليها في إثراء ودراسة هذا الموضوع، محاولين بذلك وعلى قدر المستطاع الإلمام بجميع جوانب الدراسة من خلال ما توفر لنا من مادة علمية في هذه المصادر والمراجع والتي بدورها ترصد لنا الوقائع والأحداث بشكل متفاوت، محاولين بذلك إستثمارها في دراسة والإلمام بجوانب الموضوع على أحسن وجه.

**الفصل الأول: تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك
والحفصيين**

المبحث الأول: جذور التواصل المملوكي الحفصي

المبحث الثاني: مسألة الخلافة الإسلامية وأثرها على مجرى
العلاقات

المبحث الثالث: موقف المماليك من حركة أبي زكريا اللحياني

المبحث الرابع: أثر المراسلات والسفارات في دعم العلاقات
المملوكية الحفصية

المبحث الأول: جذور التواصل المملوكي الحفصي

شهد العالم الاسلامي مع بدايات القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي العديد من التحولات السياسية التي مست جميع أقاليمه، ولا سيما بين مشرقه ومغربه ولعل أبرزها سقوط كيانات سياسية، وبروز دول جديدة على أنقاضها، مما نتج عنه تغيير في الخريطة السياسية للعالم الاسلامي في وقت أصبحت فيه الخلافة العباسية مجرد خلافة إسمية، وتزامن ذلك مع تزايد الأخطار الخارجية على العالم الاسلامي.

ففي خضم هذه التطورات كانت كل من بلاد المشرق والمغرب الاسلامي يشهدان أفول وزوال دولتين كانت من أقوى الدول في التاريخ الاسلامي هما دولتا الأيوبيين والموحدين.

حيث برزت دولة المماليك على أنقاض دولة الأيوبيين الذين ظهروا كقوة مما أتاح لهم الفرصة على البروز و الاستيلاء على الحكم ، نتيجة لعدم اعتماد الأيوبيين على نظام حكم ثابت، و هو الأمر الذي أدى إلى الصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية من أجل السلطة ، و الحاجة لاكتساب المزيد من القوة و استجلاب أعداد كبيرة من المماليك ، ونظرا لزيادة عددهم و نفوذهم في الدولة الأيوبية ، في كل من مصر و الشام ، واعتماد الصالح نجم الدين أيوب على هذا العنصر لتقوية جيشه للتصدي للمناوئين له على السلطة من الأيوبيين ، هذا من جهة ، ومواجهة الخطر الصليبي من جهة أخرى.¹

فقام بتأسيس فرقة من المماليك وأسكنهم في جزيرة الروضة كما وضع لهم نظاما خاصا لتربيتهم و تدريبهم عسكريا.²

لم تكن تسمية المماليك غريبة عن المسلمين فقد وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما ذكرت في معاجم اللغة العربية، حيث جاء في قوله تعالى: «وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على

¹ -قاسم عبده قاسم: علي السيد علي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، د ت، ص 83,110,126.

² -سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1996، ص 176,178.

شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون".¹

كما وردت هذه التسمية في السنة النبوية الشريفة وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «من أعتق نصيبا له في مملوك أو شريكا له في عبد فكان له في المال ما يبلغ قيمته بقية العدل فهو عتيق".²

وجاء في لسان العرب أن العبد قد يكون من العرب أو من عناصر أجنبية في الدولة الإسلامية، والعبد المملوك خلاف الحر، ويقال عبد بين العبودية والعبودية وأصل العبودية الخضوع والتذلل وقال الأزهري: «اجتمع عباد الله والمماليك فقالوا هذا عبد من عباد الله وهؤلاء مماليك".³

وقد عرف المسلمون استجلاب المماليك منذ العصور الإسلامية الأولى كالعصر الراشدي والأموي وكذلك العباسي، حيث يذكر أن المعتصم بالله خصص لهم أرزاقا من بيت المال وقد زاد نفوذهم إلى درجة التأثير على السلطة.⁴

كما كان المماليك جزء مهما من جيش السلاجقة إذ أعدت لهم قواعد تربوية خاصة بهم، واعتمد عليهم أيضا الإخشيدون والطولونيون وكذلك الفاطميون.⁵

ويعتبر الأيوبيون من بين الدول التي اعتمدت على المماليك بكثرة وذلك لتثبيت ركائز الدولة وهو ما مهد لظهور دولة المماليك.

¹ -سورة النحل، الآية 75.

² -البخاري: ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري(194-256هـ)، صحيح البخاري، كتاب العتق، باب إذا أعتق عبدا بين إثنين أو أمة بين شركاء، رقم 2027.

³ -ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج32، ص 2776.

⁴ -ابن طباطبا: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1997، ص 231.

⁵ -النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733هـ): نهاية الإرب في فنون الأدب، ت ح مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2004، 1424هـ-ج28، ص 27,28.

ويعود أصل المماليك الذين تنتسب إليهم الدولة المملوكية إلى أجناس مختلفة كما أنهم جلبوا من مناطق عديدة والتي تمتد من شمال الهند إلى بلاد القوقاز مرورا بالتركستان¹، ومنطقة بحر قزوين²، التي وصل إليها المسلمون منذ الفتوحات الإسلامية واعتمد عليهم المسلمون في المهن والحرف وخدمة أسيادهم³.

وبقدوم المغول إلى المشرق الإسلامي كثر السبي والاسترقاق الخاصة من القفجاق⁴. حيث نشطت حركة التجار في أسواق النخاسة بمصر فقد حرص السلاطين الأيوبيين على شراء أنواع معينة من العبيد البيض صغار السن، وكانوا ينزلونهم في الطباقي، ويشرفون على تربيتهم وتعليمهم وتدريبهم عسكريا، ومن ثمة إدماجهم في الجيش وتقليدهم وظائف مختلفة بحسب قدراتهم⁵.

وقد كان قيام دولة المماليك استجابة للحاجة السياسية والعسكرية فرضتها ظروف العالم الإسلامي، وتعود، البواعث الأولى لظهور هذه الدولة إلى أواخر العهد الأيوبي، حيث أصبح أغلب جيش الصالح نجم الدين أيوب من المماليك، وقد برز منهم العديد من القادة الذين كان لهم دورا بارزا في بناء الدولة الجديدة⁶.

وبعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب (647هـ/1248م) وإنهزام الأيوبيين في دمياط أمام الصليبيين في حملتهم السابعة، وتولى بعده ابنه توران شاه الحكم بعد أن استدعته زوجة أبيه شجرة الدر وعمدت لإخفاء خبر وفاة زوجها⁷.

¹-تركستان: اسم جامع لجميع بلاد الترك حدها من الصين إلى بحر قزوين وكانت أرضها مليئة بقبائل الترك الذين كانوا يعيشون على النصب والصيد والغارات، القزويني: زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، د ط، بيروت، ص 514.

²-قزوين: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخا، وقزوين اسم حصن سمي كشرين بالفارسية وبينه وبين الديلم جبل، الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر، د ط، بيروت، مجلد4، ص342.

³-السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، د س، ص 86-87.

⁴-ابن تغري بردي جمال الدين أبي يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت 813-874هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، ج6، ص 278.

⁵-سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 176,178.

⁶-قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 127.

⁷-المقريزي، السلوك، ج1، ص 441.

إلا أن الخبر تسرب إلى لويس التاسع الذي سارع بقواته للسيطرة على المنصورة، لكنه هزم أمام الأيوبيين بفارسكور وأسر لويس التاسع بالمنصورة، وتعتبر هذه المعركة منعرجا حاسما في تاريخ المماليك حيث زاد نفوذهم وقوتهم وأصبحوا يتطلعون إلى السلطة.¹

وبالرغم من الدور المهم الذي لعبه المماليك في التصدي للصليبيين، فقد أساء توران شاه إليهم، مما أدى بهم للتخلص منه، وتولت شجرة الدر الحكم، وقد مرت دولة المماليك بمرحلتين:²

المرحلة الأولى: دولة المماليك البحرية

فقد حكمت من (684هـ-784هـ/1250-1382م) وأغلبهم من الأتراك الذين إستجلبهم الصالح نجم الدين أيوب وأسكنهم بجزيرة الروضة، وأول من تولى الحكم من المماليك البحرية شجرة الدر ثم تنازلت عن الحكم لزوجها عز الدين أيك التركماني سنة (684هـ/1250م) وآخروهم السلطان الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون الذي خلعه الجراكسة سنة 784هـ/1381م.³

المرحلة الثانية: وتمثلت في حكم المماليك الجراكسة منذ 784هـ/923هـ، 1382-1517م، وكان أول من وصل إلى الحكم منهم هو برقوق الجركسي العثماني وكان آخر من حكم منهم هو قانصوه الغوري.⁴ وفي الجهة المقابلة لبلاد المشرق، ظهرت ببلاد المغرب دولة الحفصيين عقي الضعف والاضطرابات التي عرفتها دولة الموحديين، والتي عجلت بسقوطها لاسيما ثورة بني غانية⁵

¹ -ابن كثير: الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القريشي الدمشقي (401 774هـ): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار مجر، ج17، ص 307.

² -المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص 458 / ابن كثير: المصدر السابق، ج17، ص 307.

³ -المقريزي: السلوك، ج1، ص 444

⁴ -ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ج5، ص 152.

⁵ -بني غانية: هم من بقايا المرابطين من قبيلة مسوفة ويعرفان بابني غانية، وهي امهما احدهما يحيى والآخر محمد ولما مات يحيى اضطرب امر محمد حيث عبر الى جزيرة ميرقة فملكها واستقل بها: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة ج3 ص 342-343.

واضطراب الاندلس وموقعة العقاب سنة 609هـ/1212م.¹

فظهرت بذلك بوادر الانفصال في الأقاليم التابعة لدولة الموحدين لتأسس بذلك دويلات وامارات ببلاد المغرب الإسلامي، ولعل من بين هذه الدويلات: ظهور دولة بني حفص.

ويرجع نسب الحفصيين الى ابي حفص عمر بن يحيى بن عمر بن الهنتاتي، وهناك من يرفع نسبهم الى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.²

وهم من قبيلة هنتاتة البربرية أكبر قبائل المصامدة بالمغرب الأقصى، والتي كانت سباقة الى نصره دعوة محمد بن تومرت، هذا الأخير الذي كنى جدهم عمر زعيم هنتاتة بابي حفص وضمه الى جماعة العشرة المقربين منه وأصبح في عهد عبد المؤمن بن علي من كبار رجال الدولة حت الى غاية وفاته سنة 618هـ/1221م.³

وترك أبو حفص الكثير من الأولاد الذين تولوا مناصب عدة في ولايات الدولة الموحدية بالمغرب والاندلس، وكان منهم أبو محمد عبد الواحد الذي أصبح من كبار شيوخ الموحدين ولما اشتدت حركة بني غانية على تونس وكامل بلاد المغرب الأدنى نهض اليه الخليفة الموحي الناصر بن يعقوب (595-610هـ/1199-1214م).⁴

¹- عبد الرحمن الاعرج: علاقات دول المغرب الإسلامي بدول المماليك سياسيا وثقافيا بين القرنين السابع والتاسع الهجريين 7-9هـ/13-

15م: رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان ، 2012-

2013م/1433-1434هـ ص 21

²- عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808هـ/1332-1406م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي

الشأن الأكبر، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ، 1421هـ-2000م ج 6 ص 371/محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب

التواريخ والخبار، تح: علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي ط1، بيروت 1988 مجلد 1 ص 541

³- أبو عبد الله محمد بن احمد الشماخ: الأدلة البيئية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح، الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية

للكتاب 1984 ص 48-49

⁴- محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1406-

وكلف أبا محمد عبد الواحد بملاحقته وتمكن من هزيمته قرب مدينة قابس.¹

وعين عبد الواحد الحفصي واليا على افريقية وذلك سنة 603هـ/1206م، فعمل الوالي الجديد على اخماد ثورة بني غانية، وتنظيم شؤون افريقية والاهتمام بكل جوانب الحياة حتى وفاته سنة 618هـ/1221م.²

واجمع شيوخ الموحدين على تعيين ابنه ابي زيد عبد الرحمن غير ان الخليفة الموحي المستنصر لم يوافق على التعيين، مخافة ان تصبح ولاية افريقية في ملك البيت الحفصي بالوراثة، وتم تعيين ابي العلا بن ابي يعقوب من بني عبد المؤمن.³

لكن عهد هذا الأخير تميز بعودة نشاط بني غانية، فقرر الخليفة الموحي العادل تعيين ابي محمد عبد الله بن الشيخ عبد الواحد سنة 627هـ/1225م بعد ان أدرك مدى أهمية بني حفص في حفظ النظام والامن بالمغرب الأدنى، وولى عبد الواحد اخاه أبا زكريا يحي على مدينة قابس، وابي إبراهيم على بلاد قسطلية.⁴

من هنا يمكن ملاحظة ان عبد الواحد أراد تثبيت اقدم بني حفص على ولاية افريقية، وذلك بعدما ولى اخويه على الأقاليم السابقة الذكر.

وسعى عبد الواحد الحفصي الى القضاء النهائي على بقايا بني غانية الذين تمكنوا من الاستيلاء على مدينة بجاية، تدلس، الجزائر ومازونة، وعقب مقتل الخليفة العادل خلفه يحي المعتصم، لكن والي

¹-ابن الشماخ: المصدر السابق ص 49

²-نفسه ص 50/ابن ابي دينار: المؤنس في اخبار افريقية وتونس، ط1، تونس 1286 ص 125

³-ابن خلدون المصدر السابق ج6، ص 376

⁴-قسطلية: مدينة بالأندلس وهي حاضرة كورة البيرة ، قال عنها ابن حوقل انها في بلاد الجريد ارض الزاب الكبيرة ، وهي مدينة كبيرة

عليها سور حصين ومن مدنها توزر والحمة و نفطة .ياقوت الحموي :المصدر السابق ، مجلد 5 ص 34

اشبيلية¹. أبو العلاء ادريس تحرك نحو مراكش واستولى على الخلافة، وتلقب بالمأمون، وبعث الى والي افريقية ابي محمد يطلب منه البيعة والولاء، لكن أبا محمد رفض، فاتصل المأمون بابي زكريا فوافق واخذ له البيعة على قابس، وكسب أبا زكرياء في البداية تأييد بني مكي، ثم أعلن ولايته على كامل افريقية من القيروان سنة 625هـ / 1227م ولما علم اخوه أبو محمد بذلك خرج لقتاله، لكن شيوخ الموحيين تخلوا عنه ثم بايعوا أبا زكريا يحيي².

وتلقب بالأمير وخلع البيعة للمأمون ودعا ليحي المعتصم بن اخي المأمون وأرسل الى عمال ولاية افريقية بخلع ابي العلاء ادريس المأمون سنة 627هـ / 1229م، وذلك في اول بادرة من الحفصيين لإعلان استقلالهم عن مراكش³.

وتمكن أبو زكريا الحفصي من السيطرة على بعض أقاليم الموحيين في قسنطينة وبجاية وفي سنة 634هـ / 1237م ببيع البيعة الثانية، ووصلت البيعات من مختلف اقطار الغرب

الإسلامي⁴.

وتولى بعد أبا زكريا الحفصي ابنه محمد الملقب بالمستنصر بالله، وعقد له البيعة عمه أبو عبد الله اللحياني⁵.

ومع العلم فان عهد المستنصر شهد العديد من الثورات لاسيما بالغربين الأدنى والوسط الا انه استطاع القضاء عليه.

¹-اشبيلية: مدينة عظيمة بالأندلس، بها قاعدة ملك الاندلس، وبها كانوا بنو عباد وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا وهي قريبة من البحر عليها جبل الشرق، وهو جبل كثير الشجر والزيتون على شاطئ نهر عظيم، تسير فيه المراكب المتقلة، ويقال له الوادي الكبير وفي كورتها مدن واقاليم. الحموي: المصدر السابق ج1 ص 245

²-ابن خلدون: المصدر السابق ج6 ص 380/عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزركشي: تاريخ الدولتين الموحيية والحفصية، ط1، تونس ، 1289 ص 17

³-ابن خلدون: المصدر السابق ج6 /380/المراكشي: المصدر السابق ج3 ص 293

⁴-ابن الشماخ: المصدر السابق ص 50

⁵-ابن خلدون: المصدر السابق ج6 ص 402

وذاع صيت هذا الحاكم بالمشرق، وبايعه شريف مكة سنة 657هـ/1259م عقب سقوط الخلافة العباسية ببغداد على يد المغول سنة 656هـ/1258م.¹

كما نشير انه بوفاة المستنصر ينتهي العصر الذهبي للدولة الحفصية ويبدأ عهد الاضطرابات والانقسامات وتفكك الدولة.

ولعل ما يمكن الإشارة اليه حول ظهور هذه الدويلات سواء في المشرق والمغرب الإسلاميين انها عملت على تدعيم علاقاتها بكل الدول المحيطة بها ، إسلامية كانت ام مسيحية .

لهذا نجد ان الحفصيين عملوا على تدعيم علاقاتهم بالمشرق لاسيما بدولة المماليك القوة النامية في مصر، وكان قبلها دولة الايوبيين.

وكان مرد هذه العلاقات وتنوعها هو توفر جملة من العوامل التي ساعدت على تقوية وتوحيد هذه العلاقات، وجعلت من بلاد المغرب جزءا لا يتجزأ من بلاد المشرق، وظل مرتبطا به حتى في فترات التوتر والاضطرابات، ولعل من اهم العوامل المساعدة على ذلك نذكر:

إن الحديث عن طبيعة العلاقات بين المغرب والمشرق الإسلامي بصفة عامة، وبين السلطنة الحفصية ودولة المماليك بصفة خاصة يقودنا للتطرق إلى تلك التأثيرات والروابط التي ساعدت في بلورة العلاقة بين الطرفين، حيث نجد أن رابطة الدين الإسلامي من أهم الأسس والمبادئ التي تجمع بين المسلمين في مشرق الأرض ومغربها.

فقد جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم قوله²: **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثم تشبك أصابعه**". وهو ما يدل أنه من واجب المسلم على أخيه المسلم العون والمؤازرة والتواصل، وكذلك المحافظة على ممتلكات وحرمات المسلمين في البلاد الإسلامية.

و هذه المبادئ كانت و لا تزال متجذرة في الذهنية العربية الإسلامية.

¹- ابن الشماخ: المصدر السابق ص 92

²- البخاري صحيحه، كتاب الآداب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، رقم الحديث 6026.

و قد بدا ذلك بوضوح من خلال العديد من المراسلات بين الموحدين و الأيوبيين و قد تضمنت طلب العون و ضرورة توحيد جهود المسلمين لصد الخطر الصليبي على العالم الاسلامي.¹

تمكنت مصر خلال العصر المملوكي، أي طيلة ثلاثة قرون أن تكون مركز التفاعل في العالم الإسلامي، حيث امتد نفوذها من الشام إلى² الحجاز، كما أنها تتصل غربا بالسلطنة الحفصية، أي أنها تشكل امتدادا جغرافيا يربط بين المشرق والمغرب الاسلامي، وهذا الإتساع كان يستوجب وجود علاقات سلمية وتعاونية مع جيرانها في المغرب خاصة أمام التهديدات الصليبية للمسلمين.³

لطالما سادت فكرة الدولة الواحدة والأمة الواحدة لدى المسلمين والتي تسير وفق لأحكام الشريعة الإسلامية، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ظهرت الخلافة الإسلامية التي جمعت شمل المسلمين، وبسقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة 656هـ/1258م، فقد بذلك العالم الإسلامي المرجعية الدينية التي كانت تحكمه.⁴

و بانتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة فقد أكسبها ذلك مكانة هامة لدى المسلمين ، حتى و إن كان هدف المماليك من خلال ذلك كسب سند و إعطاء الشرعية لحكمهم بتفويض من السلطة الشرعية العليا للمسلمين أي الخليفة العباسي.⁵

و على الرغم من تزامن هذه الأحداث مع إعلان الخلافة الحفصية بإفريقية إلا أن ذلك لا يلغي أن دولة المماليك أصبحت مركز الثقل الديني و الروحي للعالم الاسلامي.

¹-ابراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، دار البيضاء، 1420، 2000، ص 273.

² -نادية محمود مصطفى: العصر المملوكي في تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية(642-923هـ)، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1417هـ-1996م، ص 7.

³-نفسه، ص 08.

⁴ -بن ميلاد لطفي: إفريقية والمشرق المتوسط من أواسط القرن 5هـ/11م إلى مطلع القرن 10هـ/16م، المغاربية، تونس، 2011، ص 166/ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط1، دار النفائس، القاهرة، 1418م-1997، ص 109.

⁵-سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 205.

إن تردّي الأوضاع السياسية والاقتصادية في أوروبا خلال الفترة الممتدة ما بين 482-690هـ/1095-1291م) حيث لم تجد البابوية سبيلا للخروج من قوقعتها من خلال الإعتماد على الصبغة الدينية وبث الحماس لدى الشعوب الأوروبية للتوجه نحو العالم الإسلامي الذي كان يعيش حالة من التشتت والإنقسامات الداخلية.¹

وبالتالي فقد شكل الصليبيون خطرا على جميع المسلمين وعلى الرغم من الموقف السلبي للمسلمين، إلا أنه في العديد من الأوقات برزت مظاهر التضامن والتلاحم بين المغرب والمشرق الإسلاميين سواء في طلب المساعدة و الاستتجاد أو تبادل المعلومات حول الخطر النصراني.²

لطالما كانت بلاد الحجاز من الأماكن التي تشد إليها الرجال من طرف المسلمين ، سواء لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم.

ونظرا لإحتلال مصر موقعا إستراتيجيا، حيث تتوسط العالم الاسلامي وبالتالي فقد شكلت منطقة عبور بين المغرب والمشرق.³

بالإضافة إلى إحتوائها على أهم الممرات البرية، التي يعبرها الحجاج المغاربة القاصدين بلاد الحجاز، خاصة أمام تزايد عمليات القرصنة البحرية.⁴

إن الدارس لطبيعة العلاقات الحفصية-المملوكية يجد من خلال العديد من المصادر المغربية والمشرقية أنها تعود إلى أواخر العهد الأيوبي، حيث أدت الحملات الصليبية المتأخرة، أي السابعة والثامنة إلى بروز علاقة تعاون وتواصل بين الحفصيين والأيوبيين وذلك بتبادل المعلومات حول التحركات الصليبية في الضفة الشمالية لحوض المتوسط.⁵

¹-محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291م، دار المعرفة الجامعية، بيروت، 2000، ص 18.

²-ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري سنة (668-792هـ / 1270-1390م)، ط1، دار عمان، الأردن، 1419هـ-1998م، ص 256/ سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 109.

³ -روبار برنشفيك: تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988، ص 236.

⁴ -ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج 12، ص 731.

⁵-بن ميلاد لطفي: المرجع السابق، ص 166.

فقبيل الحملة الصليبية السابعة على دمياط سنة 647هـ/1249م) كان أبو زكريا قد وصلتته أخبار حول عزم الصليبيين على قيام بحملة على مصر، فأرسل بسفارة إلى السلطان المملوكي يعلمه بذلك.¹ كما أورد ابن قنفذ أن الملك الصالح صاحب الديار المصرية كانت له علاقات جيدة مع السلطات الحفصي حيث يراه أبا له وعندما تيقن من نوايا الفرنسيين في التوجه نحو مصر أرسل له كتاب تضمن "الإعلام بما عزم عليه العدو والإعتذار على عدم المبادرة إليه بنفسه ونجدته بما يخشى من عدو صقلية المجاورة له ومن أعراب إفريقية".²

ولعل ما يبرز أيضا العلاقات الجيدة بين الطرفين ما رد به السلطات المملوكية على أبي زكريا الحفصي حيث واصل ابن قنفذ حديثه قائلا: «فأفاض على ذلك الملك الصالح في شكر الأمير أبي زكريا وأثنى عليه، وأخذ حينئذ في الاجتهاد للقاء العدو».³

كما يذكر صاحب الفارسية أنه سنة (648هـ/1250م) نزل جمال الدين ابن مطروح الديار المصرية ويبدو أن ذلك بعد فك أسر لويس التاسع.⁴

وهو ما يدل أن الحفصيين كانوا مهتمين بمتابعة ما يحدث بمصر بالإضافة إلى ذلك يبرز إستمراريته التواصل بين الطرفين.

لكن الملاحظ أن النصوص الأيوبية والمملوكية تسكت عن هذا الموضوع وإن تحدثت، يكاد يتفق جليا أن الخبر وصل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب عن طريق رجل متخفيا في زي تاجر، وقد أرسله الإمبراطور فريديريك الثاني (598هـ-648هـ/1197-1250م) وقد تضمنت أخبار الحملة وأهدافها على مصر.⁵

¹-محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 154.

²-ابن قنفذ القسنطيني: أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، (ت 1407/810): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم محمد الشاذلي النفير، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، ص 112.

³ -المصدر السابق، ص 112

⁴-نفسه

⁵-المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص 437.

ويذكر أن فريديريك الثاني قد ربطته علاقة ود وصداقة مع الأيوبيين منذ عهد الملك الكامل وإستمرت بعد وفاته، كما عرف عنه أنه محب للمسلمين ويميل إليهم.¹

وقد ورد أيضا أن سرنرد وهو مهندادار² منفرد ابن الامبراطور قال:

«أرسلني الامبراطور في السر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب لأعرف عزم ريدافرنس.³

على الديار المصرية وأشير عليه، فاستعد له الملك الصالح ورجعت إلى الامبراطور، وكان ذهابي إلى مصر ورجوعي في زي تاجر، ولم يشعر أحد بإجتماعي بالملك الصالح خوفا من الفرنج أن يعلموا مما لأة الإمبراطور للمسلمين»⁴.

وفي ظل تضارب المصادر التاريخية حول من أورد أبناء الحملة الصليبية السابعة على مصر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، حيث يؤكد البعض على وجود علاقة صداقة بين الملك الصالح والسلطان الحفصي، الأمر الذي جعل هذا الأخير يرسل إليه بهذه المعلومات.⁵

كما يعتقد البعض الآخر أن السلطان الحفصي قد أدرك التغييرات التي طرأت على العلاقات الموحدية مع المشرق الإسلامي، التي ارتبطت مع الخلافة العباسية المتداعية، في حين أن الدولة الأيوبية حافظت على كيانها وأثبتت وجودها بالرغم من الصعوبات التي تواجهها.⁶

بالإضافة إلى حاجة الحفصيين إلى ضبط العلاقة السياسية والروحية مع الدولة الموحدية الأم وتجنب فتح جبهة شرقية معادية، خاصة أمام تصاعد الخطر الصليبي وتداعي الخلافة العباسية في المشرق

¹-ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت 697هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: حسين محمد ربيع، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ج4، ص 234.

²-مهندادار: وهو موظف الذي كان يقوم في الدولة الرومانية بعمل شبيه بعمل المهندادار في الدولة الأيوبية والمماليك وهو يتلقى الرسل الواردة على السلطان وينزلهم دار الضيافة الأميرية، القاهرة، 1332هـ-1914، ج4، ص 247.

³-ريدا فرنس: المقصود به الملك لويس التاسع ملك فرنسا. ابن واصل: المصدر السابق، ج4، ص 247

⁴-نفسه، ج4، ص 247.

⁵-بن ميلاد لطفي: المرجع السابق ص 166

⁶-إبتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامي، 564-936هـ/1130-1529م، دار المعارف، د ط، الاسكندرية، 1405هـ-1985م، ص 194.

والموحدية، بالمغرب وضرورة الأخذ بعين الإعتبار حماية المصالح المشتركة، ودعم روح الجهاد ضد الصليبيين.¹

ويتضح من خلال ما تقدم ذكره أنه من المؤكد أن أنباء عزم الفرنجة لغزو مصر قد وصلت إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد كان بدمشق وذلك ما جعله يتوجه إلى مصر على الرغم من مرضه وبياسر في عملية التحصينات ضد الحملة الصليبية.²

كما لا يستبعد أن حصوله على هذه المعلومات قد وردت من كلا الطرفين على إعتبار ما أوردته المصادر من علاقات الود والصداقة التي ربطت السلطان أبي زكريا الحفصي والملك الصالح نجم الدين أيوب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه تكاد تدفق المصادر على ما عرف به الإمبراطور فريديريك الثاني بميله إلى المسلمين وذلك بحكم نشأته على القيم والثقافة العربية، في الوقت الذي كان ممقوتا هو وأبناءه من بعده للسبب ذاته من طرف البابوية.³

حيث كانت له علاقات طيبة مع السلطان الأيوبي الكامل فقد جرت بينهم العديد من السفارات من أجل الوصول إلى إتفاق بين الطرفين منذ سنة (623هـ-1226م) وقد استمرت هذه العلاقات حتى بعد وفاة السطات الكامل، وبالتالي فلا يستبعد أن هذه المعلومات قد وردت من طرفه أيضا خاصة في ظل غياب إجماع أو اتفاق المؤرخين على رأي واحد حول من أرسل هذه المعلومات للصالح نجم الدين أيوب.⁴

¹ -أبتسام مرعي: المصدر السابق، ص194.

² -عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الاسلامية، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997، ص 129.

³ -ابن واصل: المصدر السابق، ج4، ص 234.

⁴ -المقريزي: المصدر السابق، ج1، ص 219/ابن تغري بردي المصدر السابق، ج7، ص 211.

المبحث الثاني: مسألة الخلافة الإسلامية وأثرها على مجرى العلاقات

شكلت مسألة الخلافة الإسلامية الميزة التي صبغت العلاقات المملوكية الحفصية، ولاسيما في بدايتها خاصة بعد سقوط الخلافة العباسية، والتي كانت تمثل مركز العالم الإسلامي أثر زحف المغول واسقاطها سنة 656هـ/1258م، وبالتالي أصبح المسلمون في وضع لم يعتادوه، وذلك بعد سقوط خلافتهم، ومن هنا كان لابد أن يكون هناك خليفة وخلافة جديدين ينويان حكم المسلمين، ويجددان رسوم الخلافة بعد فقدان المرجعية الدينية التي كانت تمثلها فهي خلافة النبي صلى الله عليه وسلم. ويبدو أن أهل الحجاز الذين هالهم الفراغ الذي أحدثه سقوط الخلافة العباسية في بغداد أخذوا يتطلعون الى أنحاء العالم الإسلامي يبحثون عن من يمكن أن يحمل لقب "الخلافة"، ويسد الفراغ الذي حصل بعد سقوط بغداد.⁶⁰

وكانت أقرب الدول الإسلامية إليهم وأقواها هي الدولة المصرية، ولكن إنتقال السلطة فيها الى المماليك البحرية حال دون ذلك في تقليد الخلافة لواحد منهم أو عرضها عليه، وهذا راجع الى الإعتقاد السائد بان الخلافة انما تكون في قریش، والمماليك ليسوا سوى خليط من الرقيق جلبوا من أقطار أعجمية مختلفة، فاستبدوا على بني أيوب وافتكوا منهم السلطة.⁶¹

وأمام هذه الأوضاع لم يبق أمام شريف مكة أبي نمي سوى سلطان الدولة الحفصية بعد الفراغ الذي أصاب العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة علي يد التتار سنة 656هـ/1258م. ويشير ابن خلدون⁶² على أن من أكبر المحرضين لأبي نمي على التبعية وإعلان البيعة للحفصيين ابن سبعين.

ولعل ما يمكن ملاحظته كذلك أن الأمر الذي زاد من قوة ومكانة الحفصيين، وكذلك من دعم أبي نمي شريف مكة هو ادعاء النسب الشريف لاسيما وأنهم يرفعون نسبهم الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فربما هذا كان سببا في تأييد أبي نمي للتبعية والرضا بخلافة المستنصر.

⁶⁰-المطوي: المرجع السابق ص 189

⁶¹-نفسه ص 189-190

⁶²-المصدر السابق ج 3 ص 407

فبالإضافة الى أن من أسباب إعتراف شريف مكة بالسلطان الحفصي، يعود الى فقدان حجاج العراق السند الديني، فأراد أيضا ان يستقطب حجاج المغرب خاصة وأن النظام المملوكي لم تنهياً له الظروف لمواصلة السياسة الأيوبية لحماية الأماكن المقدسة.⁶³

وتم إرسال نص البيعة⁶⁴ سنة 657هـ/1259م بعد الغاء مراسيم الخلافة العباسية في بغداد، ولم يكن ابن سبعين رجل سياسة أو حرب بل كان من الذين اتبعوا ما يسمى التصوف الفلسفي وكان يقول بمذهب الوحدة، حتى اتهم بالكفر في عقيدته، وقام عليه كثير من العلماء بالمغرب الإسلامي فهاجر الى بلاد المشرق، ونزل مكة مجاوراً.⁶⁵

أما حامل الرسالة من مكة الى المدينة فكان أبا محمد بن برطلة الإشبيلي⁶⁶، وعقد لها محفل ومجمع، واستحضر لها السلطان الملاً والكافة، وقرئت بمجمعهم وكان من الأيام المشهودة في الدولة.⁶⁷ كما أنشد بعض الشعراء السلطان الحفصي بعد هذه البيعة، ف جاء في قصيدته:

أهناً أمير المؤمنين بيعة
فلفد حباك بملكه رب الورى
وافتك بالإقبال والإسعاد
فأتى يبشر بافتتاح بلاد
وإذ أتت أم القرى منقادة
فمن المبرة طاعة الأولاد.⁶⁸

واكتفى السلطان الحفصي بلقب أمير المؤمنين.⁶⁹

⁶³-بن ميلاد لطفي: المرجع السابق ص 94

⁶⁴-انظر نص البيعة في كتاب ابن خلدون، ج6 ص ص 407-416

⁶⁵-عبد الرحمن الاعرج: المرجع السابق ص 65

⁶⁶-أبا محمد بن برطلة الاشبيلي: هو أبو محمد عبد الحق بن برطلة الازدي عالم ومحدث، ولد سنة 580هـ وتوفي بتونس سنة

661هـ/1262م، وهو الحامل لبيعة اهل مكة لأمير تونس ابي عبد الله المستنصر الحفصي، وصل بها الى تونس سنة 657هـ، وقراها في ملا من الناس بجامع الزيتونة القاضي ابن البراء، محمد بن محمد بن عمر بن قاسم بن مخلوف (ت 1360): شجرة النور الزكية في

طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 2003م/1424هـ ج1 ص 281

⁶⁷-ابن خلدون: المصدر السابق ج6 ص 417

⁶⁸-الزركشي: المصدر السابق ص 28-29

⁶⁹-ابن الشماخ: المصدر السابق ص 67

وكما تلقب بالمستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله ابن الأمراء الراشدين.⁷⁰ ولعل ما يمكن إستنتاجه من بيعة أبي نمي للمستنصر الحفصي العديد من الدلالات التاريخية، بعد هذا الإعلان الذي حظي به السلطان الحفصي ولعل أهمها:

-أن من بايعه أمير مكة له الحق والشرعية بالبيعة من بين كل السلاطين سواء في المشرق أو المغرب، كما جاء في هذه البيعة الإعتراف ووقع التصريح بلقب "ال خليفة " للمستنصر الحفصي، وأنهم أحق بالخلافة ولاسيما وأن الحفصيين يرفعون نسبهم الى سلالة عمر بن الخطاب، وذلك لما جاء في البيعة " وقد قيل إن الملة الحنفية المضرية تنصرها السيرة المحمدية ولعل الذي أقام الدين وأطلعه من المشرق وأتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه".⁷¹

كما أنه يمكن أن نستنتج من هذه البيعة دلالة أخرى وتتمثل في: بأن السلطان الحفصي هو الخليفة المقصود وانه الخليفة الذي سوف تكون له مقاليد الخلافة وذلك لما جاء في قوله "يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد ... وأشار بيده الى المغرب ".⁷²

عبرت واستدلت هذه البيعة على تفضيل الأقطار المغربية وأن الخلافة بعدما يتم إسقاطها في بغداد سوف تنتقل الى بلاد المغرب، وتستقيم لها وذلك لما ورد في الآثار "إذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد، ويستقيم ملك المغرب وتبسط كلمته في الأقطار، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند".⁷³

ومن هنا يمكن القول بأن هذه البيعة كانت رغبة كامنة في نفوس الحفصيين وهو ما تحقق، ولعل الإدعاء الى النسب الشريف ساعد الحفصيين على إكتساب الصبغة الشرعية لحكمهم.

⁷⁰ ابن الوردي: زين الدين عمر بن المظفر (ت 749هـ): تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ، 1417هـ-1996م ج2

⁷¹ ابن خلدون: المصدر السابق ج 6 ص 409

⁷² ابن خلدون: المصدر السابق ج6 ص 410

⁷³ نفسه ج6 ص 410/ ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 119

أما عن صدى هذه البيعة سواء في المشرق والمغرب، حيث توالى البيعات على الخليفة الجديد من أقطار الغرب الإسلامي، حيث وصلت بيعة بني مرين وتمسكوا بها ودخلوا في الدعوة الحفصية، وخطبوا السلطان بالتمويل والخضوع.⁷⁴

ولعل بيعة بني مرين للحفصيين كان مقصدها الإجتماع بالحفصيين ومساعدتهم ضد الموحدين حيث جاء: "...ولما نبغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه كانوا يدعون الى ابي زكريا الحفصي تأليفا لأهل المغرب، وإستجلابا لمرضاتهم وإثباتا لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم ...ولما لم يمكن بني مرين أن يدعوا الى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم، وإياهم ينازعون ولم يحاربون ويجالدون دعوا الى طاعة الحفصيين ... فلم تنفر نفوس المغرب عنهم ".⁷⁵

كما وردت بيعة بني زيان من مردنيش صاحب شاطبة وانشده قصيدته السينية الفريدة منها:

أدرك بخيلك خيل الله أندسا أن السبيل الى منجاتها درسا

وقد وصلت بيعة المرية سنة 640هـ أما إشبيلية وغرناطة، فكانتا بيعتهما لحاكم تونس سنة 643هـ، حيث وصل وفدهم لتونس، وقرئت بيعتهم على الناس⁷⁶، أما ملك كانم فقد بايع سنة 655هـ⁷⁷.

ولكن السؤال الذي يطرح هو حول ردود أفعال وصدى البيعة في المشرق، وعلى غرار البيعة التي وردت من بلاد الحجاز وبالضبط من أمير مكة أبي نمي سنة 657هـ/1259م، نلاحظ أن هذه البيعة لم تلق التجاوب اللازم من المشرق، لاسيما وأن القوة الناشئة في هذه الفترة كانت دولة المماليك.

ولعل من أسباب عدم رواج صدى هذه البيعة في بلاد المشرق، يعود ذلك في الأساس الى الظروف السياسية والإجتماعية التي صاحبت تلك البيعة، كما أنها عدت مبادرة فردية من ابن سبعين إستجاب لها

⁷⁴-ابن خلدون: المصدر السابق ج6 ص 317

⁷⁵-أبو العباس احمد بن خالد الناصري: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح، جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب،

الدار البيضاء 1955 ج3 ص 28

⁷⁶-ابن ابي دينار: المصدر السابق ص 126

⁷⁷-حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، دار الكتب العربية الشرقية، ط3، تونس ص 108

شريف مكة الذي كان في نزاع داخلي حول الشرافة، وكذلك في نزاع مع المماليك في كل من مصر والشام.⁷⁸

ولهذا فان المؤرخين المشاركة إعتبروا الخلافة الإسلامية على ما هي عليه، ظلت منقطعة ثلاث سنوات ونصف أي من سقوط بغداد (656هـ/1258م) الى أن جددت الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/1261م على يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس البندقداري.⁷⁹

كما حاولت سلطة المماليك في مصر التحقير من إعلان الخلافة من قبل الحفصيين وهو ما ذكره العمري⁸⁰ من أن "ملك تونس لا يدعي إلا الخلافة، ويتلقب بالقبائل الخلفاء ويخاطب بأمر المؤمنين في بلاده، ويدعي النسب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "

كما أضاف بقوله "...ليسوا من قبائل العرب في شيء، وهم من الحفصيين نسبة الى أبي حفص، أحد العشرة أصحاب ابن تومرت، وهم بقايا الموحدين".⁸¹ وبالتالي نلاحظ أن العمري يشكك في نسب الحفصيين في دعواهم النسب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كما نجد كذلك القلقشندي⁸²، يشكك هو بدوره في صحة نسب الحفصيين وخط من شأنهم ومن شأن خلافتهم بقوله "...وهي مستقرة الآن بيد الحفصيين منهم ، وهم يدعون النسب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقولون :أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانود بن علي بن احمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن واقتن ...وباعتبار ذلك القائمون بها من بني أبي حفص يدعون الخلافة ، ويدعي القائم منهم في بلاده بأمر المؤمنين ، وربما تارة ينسب الى عدي بن كعب ، رهط عمر بن الخطاب دون بني عمر ، ومنهم من ينسبهم الى هنتاتة من قبائل البربر بالمغرب ، وهي قبيلة عظيمة مشهورة ."

⁷⁸-المطوي: المرجع السابق، ص 192

⁷⁹-لطفي بن ميلاد: المرجع السابق ص 192

⁸⁰-العمري (ت700هـ 749هـ): التعريف بالمصطلح الشريف، تح، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1 بيروت ،

1408هـ -1998م ص 41

⁸¹-نفسه

⁸²-المصدر السابق: ج7 ص 277

كما سار ابن تغري بردي⁸³، على خطى كل من العمري والقلقشندي في تجاهل وإستحقار خلافة الحفصيين وجاء في قوله "...وفيما وصلت الاخبار من الغرب بإستيلاء إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة، وتلقب بالمستنصر، وخطب له في تلك النواحي".

ويفهم من كلام ابن قنفذ بأن الملك الظاهر بيبرس، قد إعترف بالمستنصر الحفصي كأمر المؤمنين، وذلك من خلال ما ورد عنه في قوله "وفي سنة تسع وخمسين وستمئة المذكورة قرئ كتاب هزيمة التتر على المستنصر وخطبه أهل الديار المصرية في الكتاب المذكورة بأمر المؤمنين، وكان هذا من أكبر آمال المستنصر وأحبها إليه".⁸⁴

ويبدو أن المماليك في مصر لم يعترفوا بخلافة الحفصيين، ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيب الحفصيين بلقب أمير المؤمنين، وإنما لقبوهم بلقب أمير المسلمين، وهو لقب دون الأولى في المرتبة ولا يعني أنه خليفة شرعي على المسلمين، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة.⁸⁵

ونجد فقط عند القلقشندي سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق الى أبا فارس عبد العزيز باسم "أمير المؤمنين".⁸⁶

ويرى سعيد عبد الفتاح عاشور⁸⁷، أن العبارة السابقة الذكر ربما فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة لخطأ النساخ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سبب دفع الظاهر برقوق الى الإعتراف بالخلافة الحفصية نكاية في الخلافة العباسية ويبدو أن رفض المشاركة لخلافة الحفصيين راجع الى أن سلاطين الحفصيين لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفويضا بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين.⁸⁸

⁸³ - المصدر السابق ج7 ص 32

⁸⁴ - ابن قنفذ: المصدر السابق ص 125

⁸⁵ - سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ص 245

⁸⁶ - القلقشندي: المصدر السابق ج8 ص 79

⁸⁷ - المرجع السابق ص 245

⁸⁸ - بن ميلاد لظفي: المرجع السابق ص 96

ويمكن التأكيد على أن الصراع على مسألة الخلافة إقتصرت فقط على عهدي كل من الظاهر بيبرس في مصر (658-678هـ/1260-1279م) والمستنصر بالله في إفريقية (657-675هـ/1249-1277م)⁸⁹.

لينتهي الصراع المملوكي -الحفصي حول مسألة بعد حج بيبرس نحو سنة 667هـ-1267م إذ يذكر المقرئزي⁹⁰ بأن الظاهر بيبرس لما حج أمر أن يخطب بإسم السلطان في الحرم والشارع وبالتالي قطع الطريق أمام الحفصيين بالإضافة إلى أنه أمر بضرب السكة بإسمه.

لكن اللبس والإشكال يبقى مطروحا حول مقصد ومغزى بيبرس من إعادة إحياء الخلافة العباسية، وبالتالي هل كان هدفه إعادة إحياء الخلافة كرد فعل حول إعلان الحفصيين الخلافة؟ أو أن إعادة إحيائها جاء كنتيجة لسلسلة المحاولات التي جاءت قبله لإعادة إحياء رسوم الخلافة؟

وحسب ما ذهب إليه محمد العروسي المطوي⁹¹ في هذا الصدد على أن إعلان إعادة إحياء الخلافة العباسية من قبل الظاهر بيبرس جاء في إطار منافسة وكرد فعل حول إعلان الحفصيين الخلافة، والدليل على ذلك اتخاذ الألقاب من طرف الخلفاء العباسيين، وتلقب أحد أفراد الأسرة العباسية الفارين من مذابح المغول وهو أحمد بلقب "المستنصر" وهو كرد فعل على إتخاذ هذا اللقب من قبل السلطان الحفصي.

وبالتالي كان علينا أن نتبع هذه النقطة لاسيما من الناحية الزمنية ومقارنتها بنظيرتها لدى الخلفاء العباسيين في مصر، وحسب إطلاعنا وإستقرائنا لألقاب الخلفاء العباسيين في مصر ونظرائهم من السلاطين الحفصيين، إرتأينا إلى وضع جدول يبين هذا العنصر لاسيما في إطار المنافسة المملوكية - الحفصية على الخلافة من ناحية الألقاب.⁹²

⁸⁹-نفسه ص 98

⁹⁰-المقرئزي: المصدر السابق ج2 ص 59/صفوان طه حسين: سياسة الملك الظاهر بيبرس (658-676هـ/1257-1277م) تجاه

امير الحجاز: مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مجلد 9 عدد 1 ، 2009ص229-230

⁹¹-المرجع السابق ص 194

⁹²-ينظر الملحق رقم 2ص

فبدى لنا من هذا الجدول أنه لا يمكن التأكيد على وجود تواتر تنافسي على الألقاب الخلافية بين الحفصيين ونظرائهم العباسيين في القاهرة ، فإِتخاذ الألقاب لم يكن هو ذاته دائما لدى الخلافة العباسية ، كما لم يتخذ اللقب في العديد من مراحل أحد الطرفين ، وحسب رأي يمكن أن يكون التزامن في إِتخاذ هذا اللقب من قبل الطرفين محض صدفة لا غير دون قصد والدليل على ذلك أن مسألة الخلافة إنتهت بحج بيبرس ، وزيارته للحرمين وتأديته فريضة الحج ليؤكد سلطته واكتساب الصبغة الروحية و الشرعية ، كما أن مسألة الخلافة أثرت فقط على عهدي بيبرس والسلطان الحفصي المستنصر .

في حين هناك من يرى إن إعادة رسوم الخلافة العباسية إنما جاء كنتيجة لسلسلة المحاولات التي قام بها العديد من السلاطين لينتهي أمر تجديدها في عهد بيبرس، وإن هذا الأخير لم يكن هو الأول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية، إلا أنه نجح في تحقيق هذا المشروع.

ويبدو أن الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب فكر في الإقدام على هذه الخطوة عقب سقوط بغداد، من خلال إستقدام أحد أبناء البيت العباسي الفارين من مذابح المغول، ليعلنه خليفة في بلاد الشام، إلا أن هذه الفكرة لم تتحقق.⁹³

كما نهج قطز نهج الناصر في التفكير في إعادة إحياء الخلافة العباسية سنة 658هـ/1258م عندما أرسل يستدعي واحدا من سلالة العباسيين، هو أبو العباس أحمد، بعد إنتصار في عين جالوت، إلا أن موت قطز حال دون ذلك في إعادة كرسي الخلافة الى القاهرة.⁹⁴

ليتحقق هذا المشروع على يد الظاهر بيبرس وذلك لما أحضر الى القاهرة أحد أبناء البيت العباسي الناجين من الزحف المغولي وهو الأمير أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن أبو القاسم بن الخليفة الظاهر العباسي.⁹⁵

⁹³ -محمد سهيل طقوش: المرجع السابق ص 93

⁹⁴ -قاسم عبده قاسم: المرجع السابق ص 88

⁹⁵ -ابن كثير: المصدر السابق ج 17 ص 425/ابن تغري بردي: المصدر السابق ج 7 ص 110/بدر الدين محمود العيني

(ت855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: تح، محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، 2009 ج 1 ص 293

أين إستقبله الظاهر بيبرس وأمر بعقد البيعة له بعدما شهد له بصحة إنتسابه وقرئ نسب الخليفة وكان أول من بايعه هو قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، ولقب بالمستنصر وهو الخليفة الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس وأحتفل الناس وزينت القاهرة له.⁹⁶ ليعقد بعد عدة أيام للسلطان الظاهر بيبرس تفويضا لحكم البلاد الإسلامية كما حصل على لقب "قسيم أمير الدين" الذي لم يحصل عليه أحد من قبله.⁹⁷

بالتالي نلاحظ أن المماليك استطاعوا بهذه الخطوة كسب الشرعية لحكمهم وحتى بالنسبة لبيبرس الذي إستطاع كسب شرعية واضحة لحكمه ودولته ولفنسه إضافة لذلك إستطاع المماليك كسب الشرعية الزمنية وعلى أنهم حماة المسلمين ، ولا يحق لغيرهم الدفاع عن العالم الإسلامي ، وبالتالي فنتيجة لهذه المكاسب إستطاع المماليك بسط الهيمنة على أقاليم العالم الإسلامي ، وأعاد لهم مشروعيتهم كمرجعية سياسية للعالم الإسلامي ، بالإضافة الى جعل هذه الخلافة سندا للمماليك الذين هم بحاجة ماسة الى دعم لاسيما وأن الأخطار الخارجية تحدى بالمماليك خاصة من ناحية المغول . وبالتالي فإعلان إعادة إحياء الخلافة كان بالنسبة للمماليك الدافع الأقوى لدعم دولتهم الناشئة على الرغم من حالة التشكيك التي صاحبت نسب الخليفة الجديد في العديد من المصادر الشرقية. ومن هنا يمكن أن نقول حول مسألة إعلان إحياء الخلافة العباسية من قبل المماليك والمغزى الحقيقي من ذلك تبقى مسألة تحتاج الى النقاش والإثراء لتحديد المعالم الأساسية من إعادة إحيائها من قبل المماليك.

ومن هنا يمكن القول إن مسألة إعلان الخلافة شكلت نوعا من الفتور في العلاقة بين المماليك والحفصيين، إلا أنه وفي زخم هذه الأحداث كان العالم الإسلامي يواجه أخطارا خارجية تكاد تعصف به، مما يستدعي الوحدة وتنسيق الجهود للوقوف لصدده بين مشرقه ومغربه، لهذا كان لزاما علينا حتى نوضح ونحاول أن نناقش هذا الجانب يتحتم علينا طرح السؤال التالي: هل إستطاعت كل من سلطتي المماليك والحفصيين تجاوز هذا الفتور والتوتر في العلاقات أمام الأخطار التي تهدد العالم الإسلامي؟

⁹⁶-ابن تغري بردي: المصدر السابق ج 7 ص 111-112

⁹⁷-قاسم عبده قاسم: المرجع السابق ص 89

ولعل المغزى من طرحنا لهذا السؤال هو إبراز معالم الوحدة بين العالمين المشرقي والمغربي خاصة وأنها تزامنت وتداعيات الحملة الصليبية الثامنة، بعد فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع، وبالتالي نحاول في هذه النقطة توضيح أثر الخلافات وإن كانت هذه الأخيرة وقفت حاجزا أمام التوحد ضد الخطر المشترك الذي كان يهدد العالم الإسلامي، ونعني خطر الحروب الصليبية.

تعد الحملة الصليبية الثامنة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع على الأراضي الإسلامية في تونس بمباركة من البابا، حلقة من حلقات الصراع الديني بين الشرق والغرب، وبعد فشل الحملة الصليبية السابعة على مصر، فكر الصليبيون في حملة أخرى على الديار الإسلامية للثأر من هزيمتهم والإذلال والمهانة التي تعرض لها الملك نفسه وأسرته في مصر قبل ذلك سنة 648هـ/1250م.⁹⁸ وبعدها حددت وجهة الحملة الصليبية الثامنة، وبالضبط نحو تونس حدثت حالة الإستنفار سواء في تونس أو مصر ويبدو أن مشكلة الخلافة لم تقف حائلا بين الدولتين في التعاون لردع الإعتداءات الخارجية، فد آثار الظاهر بيبرس في عام 669هـ/1270م أخبار استعدادات الصليبيين بقيادة الملك التاسع لإرسال حملة إلى تونس، فأرسل رسولا الى فرنسا يحذر ملكها من عاقبة مشروعه.⁹⁹ وقد صيغ هذا التحذير في شكل قصيدة شعرية من نظم الشاعر جمال الدين بن مطروح أنشدها له وهو قائم بمجلسه وجاء فيها:

مقال صدق من قؤول فضيح

قل للفرنسيس اذ جنته

من قتل عباد يسوع المسيح

آجرك الله على ما جرى

تحسب أن الزمر يا طبل روح

وقد جئت مصر تبتغي أخذها

ضاق به عن ناظريك الفسيح.¹⁰⁰

فساقك الحين إلى أدهم

وخلاصة ما جاء فيها هو تذكير لويس التاسع بكل ما جرى له في مدينة ووقعة المنصورة وسجنه هناك وأن دار لقمان الذي أسر فيها لاتزال على عهدنا لتقبل لويس التاسع من جديد أسيرا.

⁹⁸-عبد الرحمن الاعرج: المرجع السابق ص 69

⁹⁹-طقوش: المرجع السابق ص 11

¹⁰⁰-ابن خلدون: المصدر السابق ج6 ص 426/ابن قنفذ: المصدر السابق ص 110/ابن الشماخ: المصدر السابق ص 70-71

كما رد شاعر آخر من تونس وهو أحمد بن إسماعيل الزيات بقصيدة أخرى فقال فيها منذرا ومحذرا:

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتهايا إليه تصير

لك فيها دار لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير.¹⁰¹

ويبدو أن الخطر الصليبي زاد من لحة التوحد وتنسيق الجهود بين المشرق والمغرب على الأقل في هذه المرحلة الحساسة والخطيرة التي تستدعي توحيد الجهود، وهذا يفهم من السفارة التي بعثت سنة 648-649هـ/1250-1251م يطلب فيها المستنصر الحفصي المساعدة من الظاهر بيبرس الذي أرسل اليه سفارة عاجلة برئاسة الأمير بدر الدين جمان يخبره بأن الحملة الصليبية الثامنة بقيادة لويس التاسع ستتوجه الى تونس وليس الى مصر.¹⁰²

وأبدى الظاهر بيبرس استعداده في نجدة الحفصيين للتصدي للغزاة وبأنه باشر باتخاذ إجراءات التنفيذ، فحفر الآبار في الصحراء الغربية لمصر بتزويد فرقة تتكون أساسا من قبائل ليبيا الشرقية وستوجه الى تونس بالماء، لكن وصول أخبار من تونس تفيد بفشل الحملة، أوقفت كامل الإستعدادات المتخذة.¹⁰³ إلا أنه تلا بعد هذا الموقف فتور في العلاقات بين بيبرس والمستنصر الحفصي إذ وصل سنة 670هـ/1271م حسب ما أورده المقرئزي¹⁰⁴، بأن المستنصر بعث بهدية الى السلطان المملوكي بيبرس، هذا الأخير الذي قام بتوزيع الهدية على الأمراء، وبعث له برسالة ورد فيها "مثلك لا يصلح أن يلي أمور المسلمين" وهذا كرد فعل على تقاعس السلطان الحفصي عن الجهاد ضد الصليبيين وعدم خروجه لمقاتلتهم.

¹⁰¹ -المقرئزي: المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المعروف بالخطط المقرئزية: تح محمد زينهم، مديحة الشراوي، مكتبة مدبولي،

القاهرة، 1998 ج 1 ص 622/بدر الدين العيني: المصدر السابق ج 1 ص 31/ابن قنفذ: المصدر السابق ص 111/ابن ابي دينار:

المصدر السابق ص 129/محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، 1982 ص 141

¹⁰² -امال سالم عطية: السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14م): أطروحة لنيل شهادة

الدكتوراه في التاريخ الوسيط، تخصص: الغرب الإسلامي تاريخ وحضارة، جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر 1436-1437هـ/2015-

2016 ص 127

¹⁰³ -chapoutot (Mounira remadi): entre Ifriqiya et Egypte mamelouk: des relations anciennes, continues

et consolidées, leiden.brill.p 531

¹⁰⁴ -السلوك: المصدر السابق ج2 ص 77

وما نفهم من رد فعل الظاهر بيبرس أنه لربما تفاجئ وأصيب بخيبة أمل من موقف المستنصر في مجابهة الحفصيين، وربما بيبرس كان يؤمل أن تكون مجابته لهم لا تقل عن مجابهة المماليك للصليبيين في إسترداد أراضيهم ولجؤته الى عقد الصلح مع الإفرنج.

كما أن ابن قنفذ¹⁰⁵ أشار الى هذه السفارة بقوله "...في سنة سبعين وستمائة توجه الى الديار المصرية رسولا عن المستنصر للملك الظاهر بيبرس أبو عبد الله محمد بن الراس "

لكن يجب التنويه الى أن ابن قنفذ لم يوضح لنا سبب هذه السفارة والمراسلة الى السلطان المملوكي. ولعل ما يمكن أن نخلص اليه حول حديثنا عن مسألة الخلافة وتداعياتها، أنه نتيجة للإنطباع السلبي والذي سببه إعلان المستنصر الخلافة ظل يخيم نوعا ما على طابع العلاقة لاسيما على عهدي بيبرس والمستنصر، إلا أن الصليبيين شكلوا عنصرا تضامنا بين طرفين متنافسين على زعامة العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

إضافة الى ذلك يمكن أن نقول إن بيبرس إستفاد من ردة الفعل التي أبدأها تجاه سفارة المستنصر، فهي تبدو طريقة ناجحة وفرصة سانحة كي يؤكد للجميع أنه لم يخطئ عندما رفض أن يكون المستنصر هو أمير المؤمنين.

المبحث الثالث: موقف المماليك من حركة ابي زكريا اللحياني

شهدت الأسرة الحفصية انشقاقا بين أفرادها وهو الأمر الذي يسمح بتدخل العديد من الأطراف في شؤون الحكم بطريقة مباشرة وغير مباشرة.

ففي عهد السلطات أبي إسحاق إبراهيم (678-681هـ/1279-1283م) ثار عليه أحد المدعين بانتسابه للبيت الحفصي وهو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي الخياط، حيث وجد المساعدة من أمير طرابلس ومرغم بن صابر شيخ قبيلة دباب الذين أرسلوا في طلب العون من السلطان سيف الدين قلاوون (689-678هـ/1290-1279م) في حربهم ضد أبي إسحاق إبراهيم، مقابل تقديم الولاء للمماليك¹.

لكن يبدو أن السلطان المملوكي كان مشغولا بالتصدي للمغول في هذه الفترة، أي أنه لم يقدم دعما عسكريا، لكنه بادر لتقديم دعما معنويا تمثل في ألبسة وتشاريف وصنق، ويذكر أن هذه الحل تقلدها الدعي عمارة عندما تولى الحكم بإفريقية (683-681هـ/1284-1283م) كما أنه أعلن الدعوة في خطبته للسلطان المملوكي².

لكن المتأمل في موقف المماليك، لعل ذلك يبرز طموحاتهم ورغبتهم في مد نفوذهم نحو إفريقية، لولا الظروف السائدة آنذاك أي الخطر المغولي.

وإنهزم الدعي كما قتل أبا إسحاق إبراهيم واجتمع العرب على عمر ابن أبي زكريا وتلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين وتمكن من القضاء على الدعي³.

¹ محي الدين بن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في يسرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر،

1971، ص 44. / محمود شاكر: التاريخ الإسلامي: العهد المملوكي، المكتب الإسلامي، ط5، عمان، 1421هـ-2000م، ص 291

² ابن خلدون، المصدر السابق ج6 ص 443-444/عبد الظاهر: المصدر السابق ص44.

³ أبي الفداء: المؤيد عماد الدين اسماعيل ابن علي(ت672هـ-732هـ/1273-1331م): المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم،

محمد غرب وآخرون، ط1، دار المعارف، ج3، ص 189.

وعلى الرغم من هذا الموقف السلبي للمماليك ضد السلطنة الحفصية إلا أنه سادت بعد ذلك علاقات طيبة بين الطرفين ويظهر ذلك من خلال إستقبال صاحب تونس لسفراء السلطان المملوكي إلى المرينيين والأندلس وقد نزلوا في طريقهم بإفريقية حيث وجدوا معاملة حسنة وكرامة كما سير معهم السلطان رسولا وحكيما إلى صاحب تونس¹.

وفي سنة (700هـ-1301م) توفي أبي زكريا صاحب بجاية وخلفه ابنه أبو البقاء خالد الذي كان يميل إلى الصلح مع أبناء عمومته من البيت الحفصي، كما أنه كان يسعى لقطع العلاقات بين المرينيين والحفصية الشرقية وذلك لإدراكه لنوايا المرينيين بالتوسع على حساب الحفصية الغربية².

وبعد سيطرة أبو البقاء خالد على قسنطينة وأدرك أهل الحضرة قوته فقد ندموا على عدم مهادنته، مما اضطرتهم للجنوح إلى السلم وفقا لشروط أبي البقاء خالد، القاضية يتولى حكم السلطنة الحفصية أحد الطرفين إذا توفي الطرف الآخر³.

إلا أن هذا الوضع يظهر أنه لم يرضي أبو يحيى زكرياء بن اللحياني، حيث أن هذه الشروط يبدو أنها قد قطعت الطريق أمامه في تحقيق طموحه لإعتلاء الحكم⁴.

بالإضافة إلى مرض أبا عصيدة، وقد كان أبي يحيى زكرياء اللحياني يخشى وفاة سلطانه، في الوقت الذي كانت فيه جزيرة جربة تحت سيطرة الإسبان، فأعلن ابن اللحياني رغبته في الإلتحاق بالثوار في جزيرة جربة فجهر له أبو عصيدة جيشا، ونزل ابن اللحياني بجربة وضرب حصارا حول حصن قشتيل الذي تحصن به النصارى ودام ذلك مدة شهرين إلى أن نفذ القوت واستعصى عليه الحصن فتراجع نحو قابس⁵.

¹-عبد الظاهر: المصدر السابق ص 114.

²-ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 466.

³-نفسه: ج 6، ص 467.

⁴-محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص 203.

⁵-ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 468.

وهناك أمر الجيش بالعودة إلى تونس وأعلن عما كان يخفيه بالتوجه لأداء فريضة الحج، ويبدو أن القرار كان بسبب الأوضاع السياسية السائدة في السلطنة الحفصية، حيث إنطلق إلى المشرق الإسلامي رفقة القافلة الواردة من المغرب الأقصى.¹

لكن يبدو أن مخاوف ابن اللحياني قد صدقت حيث هلك أبو عصيدة بالمرض الذي أصابه.² في حين نقض البلاط الحفصي الإتفاق مع صاحب الحفصية الغربية وتمت البيعة لأبي البقاء خالد بن عبد الرحمن حفيد أبي بكر بن أبي زكريا الأول وساءت الأوضاع بإفريقية، فقد عرف عنه بعد امتلاكه لتونس حيث عكف على اللهو وترك الجنود وسياسة الملك.³

وفي خضم هذه الأوضاع قفل أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني من المشرق مع عسكر السلطان الملك الناصر ونزل بطرابلس الغرب.⁴

كما ذكر بيبرس المنصوري أن ابن اللحياني عندما عاد من الحج " سأل العودة إلى بلاده وبنيه وبينها مفارز مخيفة بها طوائف من الأعراب كثيفة. فالتمس أصحابه بجيش من

العساكر السلطانية لتوصيله إلى بلد إفريقية فرسم مولانا السلطان بتجريد جماعة من أمرائه وجنده لتوصيله وتبليغه إلى مأمته ومأمله.⁵

والملاحظ من خلال هذا الموقف للسلطان المملوكي يبرز تقديمه المساعدة والعون لأبي يحيى اللحياني، كما أنه يعطي صورة عن طبيعة العلاقات التي ربطت بين الدولتين في تلك الفترة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هل كان توجه أبا يحيى اللحياني إلى المشرق الإسلامي لأداء فريضة الحج فعلا؟ أمر أنه

¹ -الزركشي: المصدر السابق، ص 25.

² -ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 159/ابن الشماع: المصدر السابق، ص 106.

³ -ابن الشماع: المصدر السابق، ص 84.

⁴ -أبي الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 189.

⁵ -بيبرس المنصوري(ت765هـ): التحفة المملوكية في الدولة التركية: تاريخ المماليك البحرية في الفترة من 648-711هـ، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة 1407هـ-1987م، ص 229.

ذهب لطلب المساعدة من السلطان المملوكي لاسترجاع حكمه، على إعتبار أنه من أفراد البيت الحفصي.

بالإضافة إلى أن المتأمل في النص الذي أورده بيبيرس المنصوري قد وردت الجملة التالية: «سأل العودة إلى بلاده وبنيه وبينها مفارز مخيفة...فالتمس أصحابه بجيش...لتوصيله إلى بلد إفريقية...لتوصيله وتبليغه إلى مأمنه ومأمله»¹.

ويتضح أن المقصود من هذه الجملة أن أبا يحيى اللحياني قد طلب من السلطان المملوكي بعض الجنود ليصحبوه في طريقه إلى إفريقية لأن الطريق لم يكن آمناً.

في حين يذكر البعض أن السلطان المملوكي قد دعم أبا يحيى اللحياني بمائة مملوك مصري عندما تولى حكم إفريقية.²

كما أورد ابن إياس³ في سنة إحدى عشرة وسبعمائة جاءت الأخبار من إفريقية بالمغرب بأنه قد خطب فيها على المنابر بإسم الملك الناصر ويعود السبب في ذلك أن ابو اللحياني قدم إلى الملك الناصرو قال "أرسل معي عسكر إلى إفريقية فإذا فتحت المدينة و إمتلكتها إلتزمت للسلطان أن أقيم نفسي بها نائباً عنه، فعين السلطان معه تجريدة بها نحو مائة مملوك و معهم أمير عشرة ".

وبوصول أبو يحيى اللحياني إلى طرابلس اجتمعت عليه الأعراب وأخذ البيعة ثم توجه إلى تونس وقد تقدمه أولاد عبد الليل بقيادة شيخ دولته أبي عبد الله محمد المزدبوي سنة 711هـ/1311م، في الوقت الذي توجه فيه القاضي أبو إسحاق بن عبد الرفيع إلى السلطان أبي البقاء يحثه على الدفاع عن سلطانه، فاعتذر هذا الأخير بحجة المرض وأشهد بالإنخلاع وحل البيعة.⁴

¹-بيبيرس المنصوري : المصدر السابق ،ص229.

²-برنشيبيك: المرجع السابق، ص 159/بن ميلاد لظفي: المرجع السابق، ص 105.

³-ابن إياس :المصدر السابق ، ج 1 ، 439,440.

⁴-ابن الشماخ: المصدر السابق، ص 85.

و في المقابل كان أبو يحيى زكرياء بن اللحياني قد جددت له البيعة بالمحمدية و تقدم نحو تونس بعد أن تغلب على جزء من جيشه.

كما بايع المولى أبو بكر¹ لنفسه في قسنطينة عندما سمع بإختلال أحوال إفريقية، وعندما سمع أبو البقاء خالد يسر له جيشا وهو ما جعله يساند أبا زكريا اللحياني حيث أرسل إليه بهدية ووعده بالإمدادات.²

إلا أن أبا يحيى اللحياني تمكن من الدخول إلى تونس بعد إلقاء القبض على أبي البقاء و قتله.³

في حين أن سرحون آثر أبا بكر لإستخلاف أخيه أبي البقاء وتوجه إلى بجاية واستطاع السيطرة عليها.⁴

وقد تولى ابن اللحياني حكم إفريقية سنة 711هـ/1311م.⁵

وهناك من يعتقد أن تكون المساعدة التي قدمها السلطان المملوكي لأبي يحيى اللحياني مقابل تعهد هذا الأخير أن يكون نائبا للمماليك في بلاد المغرب، وإلى غاية 717هـ/1317م تم إلغاء الخطبة لابن تومرت وأمر بالدعاء للسلطان المملوكي طوال مدة حكم ابن اللحياني.⁶ في حين يذكر بيبرس المنصوري أن ابن اللحياني قد اشترط على نفسه أنه إذا تمكن من فتح البلاد وتحقيق ما يسعى إليه، أقام نفسه بها مقام غلام من غلمان الدولة ونائبا في الإقليم.⁷

وما يفهم من هذا النص أن أبا اللحياني كان يشعر بالإمتنان و موقفه يعتبر عن رد للجميل نتيجة للمساعدة التي قدمها له السلطان المملوكي بالإضافة إلى المعاملة الجيدة التي تلقاها منه.

¹-أبو بكر: ابن المولى أبي زكرياء ابن المولى أبي اسحاق ابن المولى أبي زكرياء دخل تونس ويبيع بها في الثامن عشر من ربيع الآخر من عام (718هـ-1318م) ولد بقسنطينة 692هـ-1293م، وكانت أمه أم ولد رومية اسمها أملح الناس، الزركشي، المصدر السابق، ص

66، ابن الشماخ: المصدر السابق، ص 49.

²-الزركشي: المصدر السابق، ص 160.

³-ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 160.

⁴-الزركشي: المصدر السابق، ص 50.

⁵-ابن الشماخ: المصدر السابق، ص 85.

⁶-طقوش: المرجع السابق، ص 269/بن ميلاد لظفي: المرجع السابق، ص 105.

⁷-بيبرس المنصوري، المصدر السابق، ص 229.

وعندما أقبل أبو اللحياني على البلاد وسمع الناس أنه بصحبة الأجناد المماليك فعظم شأنه وزاد قدره، وقد تداول الناس أن السلطان المملوكي قد أمدّه بالقوة، فأجمعت عليه الأعراب وبايعوه.¹

ويذكر أيضا أن أبا اللحياني عندما دخل تونس كان السنجق المنصوري خافق على رأسه.²

و في الواقع ما لا يمكن إنكاره هو تقديم المساعدة و العون من السلطان المملوكي إلى أبي اللحياني ، سواء كان من خلال تكليف بعض الجنود لاصطحابه إلى إفريقية أو دعما معنويا من خلال هذه المساعدة التي اكتسب من خلالها هيبه و مكانة مكنته من تولي حكم إفريقية فيما بعد.

وهناك من يجد أنه عند عودة أبي يحيى من المشرق الاسلامي كان مصحوبا بمائة مملوك مصري لإستعادة عرشه، وتعهد للناصر قلاوون بأن يصبح نائبا له في هذه البلاد وأن يخطب باسمه.³

والملاحظ من خلال هذه النصوص التاريخية إن صحت أن المساعدة تمثلت في قوة عسكرية مكنت ابن اللحياني من الوصول إلى حكم إفريقية.

على الرغم من إشارة ابن الشماخ أن أبا يحيى قد تخلى جزءا من الجيش ممن لم يثبت معه ، ولم يذكر إذا كان من بينهم المماليك أم لا.⁴

وبعد إمتلاك أبا بكر لبجاية أصبح يتطلع للسيطرة على إفريقية حيث وجه العديد من الحملات إلى تونس ونتيجة لهذا الضغط المستمر الذي مارسه أبو بكر على تونس، وإدراك أبي يحيى اللحياني عدم قدرته على التصدي له وعجزه عن تحمل شؤون الحكم أمام إستفحال صاحب الحفصية الغربية، حيث تراجع أبو اللحياني إلى قابس بعد أن إستخلف عليها أبا الحسن ابن واندوين.⁵

¹-بييرس المنصوري : المصدر السابق , 229.

²-نفسه.

³-برنثفيك: المرجع السابق، ج1، ص 159/طقوش: المرجع السابق، ص 269.

⁴-إبن الشماخ: المصدر السابق، ص86.

⁵-إبن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 479.

كما يذكر أن ابن اللحياني قام ببيع كل ما هو موجود في قصر الحضرة ، وحتى الكتب بيعت في الأسواق و جمع الأموال و توجه إلى طرابلس ، وقد تجاوزت قيمة الذخائر عشرين قنطارا و جواليق من حصى الدر و الياقوت.¹

وعندما شارف أبو بكر على الحضرة راسل ابن واندوين ابن اللحياني يعلمه بذلك، إلا أن الأخير إعتذر بأنه منشغل بما واجهه من الأوضاع مما جعل ابن واندوين يتخلى عن شؤون الحكم.²

وقد تولى بعده الحكم أبو ضربة اللحياني بعد إطلاق سراحه من السجن إلا أنه هزم أمام أبا بكر، الذي بوع في الثامن عشر لربيع ال آخر 718هـ/جوان 1318م، وتراجع أبو ضربة إلى المهديّة، وعندما بلغت أخبار هذه الهزيمة إلى طرابلس فاضطرب معسكر أبو اللحياني عليه، مما اضطر هذا الأخير إلى إكتراء أسطولا من الروم، وحمل أهله وولده وتوجه إلى مصر ونزل على ملكها محمد بن قلاوون فأكرمه وحفل بلقائه وبقي بمصر إلى غاية وفاته سنة 728هـ/1328م.³

وقد تولى أبو بكر حكم تونس بعد تغلبه على أبي ضربة وجيشه فاستقامت له إفريقية.⁴

وما نخلص إليه من خلال هذه الوقائع التاريخية وذلك في محاولة لضبط طبيعة العلاقة التي ربطت بين حركة أبي اللحياني والسلطان المملوكي حيث نجد أنه من المثير في الأمر عدم إفصاح أبي اللحياني عن نواياه الحقيقية في التوجه إلى بلاد المشرق الاسلامي، فقد أعلن عن رغبته في الذهاب لأداء فريضة الحج، ليأتي فيما بعد مجهزا بجيش من المماليك.

فقد كانت وجهته إلى بلاد المشرق من أجل طلب المساعدة من المماليك لاسترجاع ملكه الضائع ، على اعتبار أنه من أفراد البيت الحفصي ، خاصة و أنه لم يكن راضيا عن الوضع في السلطة الحفصية.

¹-الباجي المسعودي بأبي عبيد الله الشيخ محمد: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية مطبعة ببيكار، ط2، تونس، 1323، ص 69-70.

²-الزركشي: المصدر السابق، ص 66 /ابن الشماخ: المصدر السابق، ص 87.

³-الباجي المسعودي: المصدر السابق، ص 71-87.

⁴-ابن الشماخ: المصدر السابق، ص 87.

كما يبدو أن أبا اللحياني كان يتابع مجريات الأحداث بإفريقية على الرغم من تواجده بالمشرق، كما يظهر أنه كان يتحين الفرصة المناسبة للعودة إلى إفريقية للحصول على الحكم.

والملاحظ أيضا من خلال إلغاء الخطبة لابن تومرت، والأمر بالدعاء للسلطان المملوكي طوال مدة حكم أبي اللحياني، فذلك إن دل على شيء فإنه يدل على العلاقات الجيدة التي ربطت بين الطرفين في تلك الفترة.

بالإضافة إلى أن أبا يحيى عندما شعر بعدم قدرته على التصدي لجموع وقوة أبا بكر، فقرر التوجه مرة أخرى إلى دولة المماليك دون غيرها من البلاد الأخرى حيث وجد الحفاوة والترحاب وأمضى حياته بمصر إلى غاية وفاته.

وهناك من يفسر أن هذا الموقف للسلطان المملوكي في دعم هذه الحركة، أن ذلك يبرز الأهداف والنوايا للمماليك في محاولة لبسط نفوذهم على السلطنة الحفصية من خلال هذا الدعم.¹

¹ -عبد الرحمن الأعرج، المرجع السابق، ص 73.

المبحث الرابع: اثر المراسلات والسفارات في دعم العلاقات المملوكية الحفصية:

لم تقتصر العلاقات المملوكية الحفصية على دعم أبي اللحياني وإنما عرفت العديد من المراسلات والسفارات التي تلت ذلك، في فترات مختلفة، كما أنها تحمل مضامين متعددة.

إن جو المؤامرات والفتن التي كان يعيشها البلاط الحفصي دفعت بابن خلدون إلى الارتحال نحو المشرق الإسلامي وبالتحديد إلى مصر المملوكية سنة 784هـ/1382م.¹

وعلى الرغم من الأسباب السلبية لهذه الرحلة على ما يبدو إلا أنها من ناحية أخرى خلقت نوعا من التواصل بين الدولتين من خلال المراسلات والسفارات بين الطرفين بهذا الشأن.

وذلك على إثر إبقاء السلطان الحفصي أبي العباس (772هـ/1370م، 795هـ/1393م) أسرة ابن خلدون في تونس وكان يتطلع لرجوع ابن خلدون الذي يبدو أنه قرر الاستقرار بمصر.²

و قد وجدت هذه المسألة اهتمام السلطان و تدخل السلطان المملوكي شخصيا , كما صدرت هذه الرسالة عن ديوان الإنشاء و بإسم السلطان المملوكي .³

والملاحظ أن هذه الرحلة قد أثارت العديد من التساؤلات ووضع الكثير من الإحتمالات، فهناك من يعتقد أنه يحتمل أن يكون لابن خلدون نوايا مسبقة للاستقرار في مصر، وقد خطط لهذه الرحلة مسبقا.⁴

و يعتبر ذلك منطقيا خاصة أمام الفتن و المؤامرات التي كانت تحاك ضد ابن خلدون في البلاط الحفصي.

¹- ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ج7، ص 648.

²- نفسه: ج7، ص 650.

³- عبد الرحمان بالأعرج : المرجع السابق , ص74, 95.

⁴- لطفي بن ميلاد: المرجع السابق، ص 129.

و هناك أيضا من يرجح أن ابن خلدون كان يسعى من خلال هذه الرحلة إلى تولي مناصب في دولة المماليك.¹

و على الرغم مما قيل عن هذا الموضوع إلا أنه تظل رحلة ابن خلدون من أهم الرحلات التي عملت على التواصل بين المشرق و المغرب بالإضافة إلى توطيد العلاقات بين الطرفين.

كما تواصلت السفارات و الهدايا بين الدولتين حيث جسدت علاقات طيبة بين السلاطين في هذه الفترة على الرغم من الفتور الذي وصفت به العلاقات بين الطرفين خاصة ذات الطابع الرسمي في الكثير من الأوقات .

كسفارة السلطان الحفصي أبا العباس أحمد الثاني إلى المماليك سنة 787هـ/1385م أرسل بالهدايا إلى الظاهر برقوق الجركسي.²

وغيرها من الأحداث التي كان يتم فيها تبادل المراسلات و الهدايا كالتهنئة التي تلقاها السلطان المملوكي الظاهر برقوق بمناسبة عودته إلى الحكم سنة 792هـ/1386م من نظيره الحفصي.³

كما يذكر ابن إياس⁴ "وفيه وصل أي في سنة 792هـ/1386م قاصدا ملك الغرب، صاحب تونس وصحبته هدية جليلة للسلطان فأكرم قاصده وقبل الهدية.

كما يذكر المقرئ⁵ أن قدوم محمد بن علي بن أبي هلال بهدية أبي العباس المتوكل على الله بن الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي بكر بن أبي حفص صاحب تونس، ومعه كتابه يتضمن الهداء بالعودة إلى المملكة فخرج الأمير محمود الأستادار إلى لقائه بالجيزة، وأنزل بدار ورتب له في كل يوم مائة درهم.

¹ - نفسه، ص129.

² -المطوي: المرجع السابق، ص 543.

³ - ابن تغري بردي : المصدر السابق ، ج12، ص1،2.

⁴ -المصدر السابق، ج1، ص 441.

⁵ -السلوك: المصدر السابق، ج5، ص296.

كما تضمنت هذه الرسالة تذكير للمكانة التي تحتلها دولة المماليك في العالم الإسلامي و ذلك من خلال ما ورد في نص الرسالة "تعترف بما له من مزيد الأعظام بمجاورة البيت الحرام ... السلطان الجليل الظاهر الملك الأعظم الظاهر جمال الدين و الدنيا...سيف الملة الموهوب المضاء بيده القضاء".¹

كما أن هذه المراسلات تبرز بوضوح الإهتمام البالغ الذي يوليه كل طرف للطرف الآخر من خلال تتبع الظروف الداخلية و كذلك الخارجية , و قد حملت هذه الرسالة أيضا أخبار الجهاد الحفصي ضد النصارى و القرصنة في كل من جزيرة غودش و المهديّة التي كانت تشكل خطرا على المسلمين .
ويبدو أن هذه الأخبار قد بعث بها السلطان الحفصي إلى نظيره المملوكي وذلك عندما التمس منه الشوق لمعرفة أخبار السلطنة الحفصية.

حيث يذكر القلقشندي² في نص الرسالة قائلا: «ولما أستقر بنا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه تشوقكم لأخبار جهادنا».

وفي ظل إستمرارية العلاقات الطيبة بين الطرفين وبعد وفاة السلطان الحفصي أبو العباس أحمد الثاني 796هـ/1394م بعد فترة حكم دامت أربعة و عشرين عاما وثلاثة أشهر وواحد و عشرون يوما.³

وتولى الحكم ابنه أبو فارس عبد العزيز الحكم , و كانت له سمعة حسنة في العالم الإسلامي و ذلك نتيجة لسياسته الخارجية خاصة بما يقدمه من دعم مادي كالتبرعات لخدمة العلم و العلماء و المؤسسات الدينية في جميع الأقطار الإسلامية و منها مصر و الحرمين الشريفين.⁴

¹-القلقشندي : المصدر السابق , ج 8 , ص 82.

²-المصدر السابق: ج 8، ص 85.

³-ابن الشماخ : المصدر السابق، ص 112.

⁴-روبار برنشفيك: المرجع السابق , ج 2، ص 247.

حيث يذكر ابن قنفذ¹ "و جدد في المشرق و المغرب أية التوحيد و دعي له بالبقاء بعرفة و الحرمين وشاع ذكره الجميل بين العالمين وسلك المداح في ذلك السبيل الواضح وسهلت قوافيهم أفعاله الحميدة بالقول الناصح".

ففي عام تسعة وسبعين وسبعمائة وصلت هدية الأمير برقوق صاحب القاهرة إلى تونس.²

و قيل أنه في سنة 800هـ/1398م كان موجودا في القاهرة سفيرا تونسي صحبة زملاء له من تلمسان و فاس جاءوا بدون شك لتهنئة فرج بن برقوق بارتقائه إلى العرش ، و يبدو أنه في نفس السنة تعرضت قافلة الحجاج المغاربة للنصب ، مما جعل السلطان أبو فارس يبعث برسالة إلى فرج ليطلب منه السهر على أمن الحجيج.³

في حين يجمع ابن إياس والمقريزي⁴ في سنة 800هـ/1398م "في يوم الاثنين من رمضان وصل الأمير قطلوبغا الخليي أمير أخور للتوجه إلى بلاد المغرب بسبب شراء الخيول ومعه مائة وعشرين فرسا ورسل المغرب ومنهم رسول صاحب فاس فقدم ثلاثين فرسا وبغلين... و قدم رسول تلمسان أربعة وعشرون فرسا مسرجة وملجمة وبغلتين وغيرها من الأدوات الحربية، و قدم رسول صاحب تونس ستة عشر فرسا مسرجة ملجمة بذهب وقماش كبير".

في حين لم يذكر كليهما تقديم رسل المغرب التهنئة للسلطان فرج برقوق في هذه الزيارة.

وعن ابن قنفذ⁵ أنه "في عام ثمانمائة خرج بنفسه (أي الأمير برقوق) يسبح الركب الكبير الواصل من المغرب مع أرسال الأمير برقوق حتى تعدوا بلاد طرابلس، وأنفق عليهم وأحسن إليهم بالمال الكثير في حين ورد أنه إلى غاية سنة ثمانمائة لا يزال فرج برقوق يحمل لقب الأمير أي أنه لم يتولى السلطنة بعد.

¹-المصدر السابق، ص195.

²-ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 195.

³-روبار برنشفك: المرجع السابق، ج2، ص 247.

⁴-المقريزي: السلوك، المصدر السابق، ج5، ص 414-418/ ابن إياس: المصدر السابق، ج2، ص 500.

⁵-المصدر السابق، ص 195.

وتروي العديد من المصادر أن تولي السلطان فرج برقوق السلطنة كان سنة 801هـ/1399م.¹

في حين يذكر أحد المؤرخين أن السلطان الحفصي وجه رسالة تهنئة للسلطان المملوكي سنة 801هـ/1399م.²

بالإضافة إلى ذلك يذكر القلقشندي³ أنه ورد على السلطان فرج برقوق في أواخر دولته كتاب من صاحب تونس وفي آخره خطاب للسلطان جاء فيه "وعلى إحسانكم المعول، وبيت الظعرائي في لامية العجم لايتأو" ويبدو أن هذا الكتاب يتضمن التوصية لتأمين طريق الحجاج المغاربة وذلك لما تعرض له قافلة الحجاج المغاربة في السنة الفارطة.

والملاحظ أن أهم ما تحتويه الهدايا الموجهة من طرف السلاطين الحفصيين إلى السلاطين المماليك عبارة عن الخيول المغربية(البربرية) بالإضافة إلى ذلك شراء المماليك للجياد المغربية كما سبق الذكر، ولعل ذلك يعود لقوتها وصلابتها وتحملها بالإضافة إلى حاجة المماليك للإعتماد عليها في حروبهم.

كما تواصلت السفارات و الرسل بين الحفصيين و المماليك في مختلف المناسبات مجسدين بذلك صورة لتلك العلاقات التي ربطت بين الدولتين الجارتين كما لتوصية بتأمين قوافل الحجيج و غيرها من المراسلات⁴.

بالإضافة إلى ذلك الدور المهم الذي قام به الحفصيين من خلال الوساطة بين العثمانيين و المماليك و ذلك على إثر بروز العثمانيين في الأناضول كقوة نامية شكل ذلك صراعا مع دولة المماليك التي تعتبر من أقوى الدول في المشرق الاسلامي آنذاك؛ و من أهم أسباب الصراع بين الدولتين تجاور ممتلكاتهما و تصادم مصالحهم ، بالإضافة إلى تدخل المماليك لمساعدة الأمير جم في منافسة أخيه بايزيد الثاني.⁵

¹-المقريزي: السلوك، المصدر السابق، ج5، ص 441/ ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج2، ص 168.

²-لطف بن ميلاد: المرجع السابق، ص 126.

³-المصدر السابق: ج7، ص250.

⁴-رويار برنشفيك : المرجع السابق ، ص247.

⁵-محمود محمد الحويري تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، ط1، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات القاهرة، 2002، ص

و هو الأمر الذي فتح أبواب الصراع بين القوتين السنيتين بالإضافة إلى تطلع العثمانيين لبسط نفوذهم على إمارات آسيا الصغرى و التوسع على أراضي الدولة المملوكية.¹

وفي ظل هذه الأوضاع المتوترة فقد سعى السلطان الحفصي لفض هذا الصراع بالطرق السلمية، حيث أرسل محمد القلشاني المغربي لحمل رسالة إلى السلطان المملوكي وأخرى إلى السلطان العثماني، لكن هذا الرسول تم قتله من طرف الفرنج قبل أن يتم عمله سنة 891هـ/1486م.²

في حين جاء عن السخاوي أن محمد القلشاني³، قد مات مقتولا بأيدي الفرنج سنة إحدى وتسعين لحمله رسالة من صاحب تونس لملك الروم وأخرى لملك مصر وذلك من أجل الصلح بين الطرفين وكف القتال.⁴

وفي ظل التضارب بين هذه النصوص التاريخية يبدو أن هذه المراسلة تحتاج إلى البحث والتنقيب في المصادر المعاصرة لهذه الفترة من أجل الوقوف على معلومات دقيقة وموثوقة خاصة بها.

كما واصل الحفصيون جهودهم في تسوية الصراع بين المماليك والعثمانيين حيث توجه سيدي محمد الحلفاوي قاصداً إلى بلاد المغرب وهو متولي القضاء بتونس بهدف الصلح بين السلطان قيتباي ثم توجه إلى بلاد الروم فأحسن إليه وقبل الصلح.⁵

و نتيجة أيضاً للدور البالغ الأهمية الذي قام به باي تونس بالتوسط بين المماليك و العثمانيين فقد عقدت إتفاقية السلام بينهم سنة 896هـ/1491م كما أرسل بايزيد الثاني رسولا إلى القاهرة و معه

¹-نفسه، ص 196.

²-عبد الرحمن الأعرج: المرجع السابق، ص 85-86

³-(حسين) بن عمر بن محمد القلشاني المغربي أخو حسن الماضي وكان توعمين وقاضي الجماعة محمد أخذ عن الشيوخ وولي التدريس بمدرسة الرياض بتونس وبعد أخيه قضاء باجة ثم انصرف بالفقه وقتل على يد الفرنج، السخاوي: المصدر السابق، ج3، ص 153.

⁴-السخاوي، المصدر السابق، ج3، ص 153.

⁵-أحمد بن محمد بن عمر بن الحمصي الأنصاري: حوادث الزمان ووفيات الشيخ والأقران، تج: عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، ج1، 2000، ص 226.

مفاتيح القلاع التي استولى عليها فاستقبله قيتباي بحفاوة كما بادر بإطلاق سراح الأسرى العثمانيين كما تبادل الطرفان الهدايا و المجاملات.¹

وتبدو أهمية هذا الموقف الوسطي الذي قام به الحفصيون من أجل تحقيق السلم بين الدولتين السنيتين، خاصة أمام تصاعد الخطر الصليبي على العالم الاسلامي وسقوط غرناطة 892هـ/1487م.²

ولعل ما يمكن إستخلاصه مما سبق نجد أن هناك علاقات جيدة ربطت بين الحفصيين و المماليك وتجسدت من خلال العديد من المراسلات و السفارات بين الدولتين والتي تحمل في مضامينها مشاعر الود و المحبة و الصداقة بالإضافة تبادل المعلومات عن التحركات النصرانية سواء في الشرق أو الغرب، بالإضافة إلى الإهتمام البالغ الذي كان يوليه كل طرف للطرف الآخر من خلال تتبع مستجدات الأوضاع الداخلية و الخارجية.

خاصة في مواجهة الخطر النصراني، حيث كانت أخبار الإنتصار تضي مشاعر البهجة و السرور و الوحدة بين الطرفين، و لعل ذلك أيضا لتيقن الطرفين أن هذا الخطر هو خطر يهدد العالم الاسلامي بأكمله دون استثناء.

والملاحظ أيضا أن هذه الأوضاع وبالرغم من سلبيتها إلا أنها خلقت علاقة ودية و تضامنية بين الدولتين و في مختلف المناسبات، كما حملت العديد من المراسلات³ التهاني بمناسبة تولي السلاطين المناصب الجديدة و لعل ذلك يدل على الرغبة في استمرارية هذا التواصل بين الجانبين.

و لعل أيضا ما يمكن الإشارة إليه و لا يمكن إغفاله الأهمية الاستراتيجية و كذلك الجغرافية للسلطنة الحفصية بالنسبة لدولة المماليك ، حيث تعتبر الحضرة العلية حاجزا أمام الغزو النصراني بالنسبة لدولة المماليك.

¹ -سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 491.

² -إبن إياس ، المصدر السابق ، ج3، ص 245.

³ -ينظر الملحق 4، 5 ص

كما لا يمكن أن ننسى حاجة الحفصيين للماليك لتأمين طريق الحج للمغاربة القاصدين البقاع المقدسة على إعتبار أن أهم طريق بري إلى الحجاز يمر بمصر، وبالتالي فإنه نتيجة لهذه المصالح المتبادلة بين الطرفين فقد وجب على كل من الدولتين إيجاد علاقات حسنة مع نظيرتها.

الفصل الثاني: النشاط الاقتصادي ومظاهره

المبحث الأول: طرق التجارة ومحطاتها

المبحث الثاني: المنشآت والنظم التجارية

المبحث الثالث: وسائل التعامل التجاري

المبحث الرابع: المبادلات التجارية

المبحث الأول: طرق التجارة ومحطاتها

إن المتتبع والدارس لتاريخ العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب بصفة عامة وإفريقية في العهد الحفصي وبلاد المشرق في العهد المملوكي بصفة خاصة، يرى بأن هذا الجانب بقي يشكل مجالاً حيويًا وظل يشهد حركة إقتصادية نشطة، على الرغم من التحولات والمتغيرات السياسية التي تطرأ على واقع العالم الإسلامي، كإختلاف الأنظمة أو تعرض البلد الى فتن وحروب عسكرية او حتى حدوث نوع من الفتور في العلاقات بين دول المشرق والمغرب.

والظاهر أن الحركة التجارية بين المغرب والمشرق الإسلاميين لها جذور تاريخية، تعود الى فترات ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وليست وليدة صدفة أو زمن معين، حيث بقيت العلاقات بين أقطار الدولة الإسلامية حتى في فترات الإنقسام والإضطراب السياسي، ولعل ما ساعد على هذا الإرتباط الوثيق هو تأثير التبعية الدينية لبلاد المغرب نحو المشرق، وعلى رأسه بلاد الحجاز، والمتمثلة في رحلة الحج من كل موسم، بالإضافة لرابطة الجوار الطبيعي والدين الإسلامي، وهو ما تم تناوله في الفصل الأول حول أهم العوامل المؤثرة في العلاقات بين المشرق والمغرب والتي ساعدت على جعل بلاد المشرق جزءاً لا يتجزأ من بلاد المشرق بالإضافة الى وقوع مصر على الطريق الرئيسي لحجاج افريقية والمغرب إلى الأراضي الحجازية من جهة أخرى، وبالتالي نجد مصر هي البوابة الرئيسية والمعبر المحوري لبلاد المشرق، إضافة الى كونها المحطة والبوابة الرئيسية لتجارة افريقية والمغرب .

لهذا تمثل طرق التجارة عاملاً أساسياً في ازدهار التجارة، فكلما زادت الطرق وعم بها الأمن نشطت الحركة التجارية وساعدت على إنعاش النشاط الإقتصادي داخل الأسواق.

ولهذا إستلزم الإنتاج الوفير والمتنوع في مختلف المجالات الحرفية والصناعية والفلاحية تسويق هذه المنتجات الى مناطق الإستهلاك سواء داخل البلاد أو خارجها، ولا يتم ذلك إلا عن طريق منافذ تستخدم في ترويج التجارة، فكانت الطرق التجارية البرية والمسالك البحرية الرابط الأساسي بين مراكز الإنتاج ومناطق الاستهلاك.¹

¹بغداد غربي: العلاقات التجارية للدولة الموحدية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية،

وعليه تعد وسائل النقل والمواصلات في إقليم من المقومات الأساسية التي تساهم في استغلال وتنمية موارده الإقتصادية، وأن التبادل التجاري ودرجة نشاطه بين أجزاء الإقليم تعتمد أساسا على مدى توفر وسهولة سبل النقل بأنواعه المختلفة التي تصل بعضها ببعض وتدعم حركة ووحدة الإقليم وترتبط بين سكانه.¹

لقد كان لوقوع إفريقية بين حوضي البحر المتوسط، الدور البارز على أن تكون محطة أساسية للعبور بين الحوض الشرقي للبحر المتوسط وغربيه، وهو ما مكنها أن تكون لها شبكة من الطرق الخارجية التي تربطها بالعالم الخارجي، ولاسيما ببلاد المشرق وعن طريق مصر، هذه الأخيرة التي مثلت كذلك محورا مركزيا للعلاقات التجارية بين إفريقية وبلاد المشرق بصفة عامة طوال العصر الوسيط خاصة فترة العصر الوسيط المتأخر، مما جعلها تحافظ على دورها كقابلة لتجار بلاد المغرب بصفة عامة.

ولهذا نجد أن العرب قد سلكوا في تجارتهم عدة طرق سواء كانوا متوجهين الى بلاد المغرب أو بلاد المشرق، وقد عرفوا بدورهم نوعين من الطرق:

1- **الطرق البرية:** وتعرف بطرق القوافل ومن تسميتها تسلكها قوافل الحيوانات كما أصبحت الطرق الرابطة بين المغرب الأدنى والمشرق الإسلامي ساحلية أكثر منها داخلية.²

ولعل ما يجب الإشارة إليه حول أن مصر تعتبر أقرب دول المشرق الى بلاد المغرب، ولاسيما إفريقية وكانت من البلدان الصديقة، فقد تبادل سلاطينها مع الملوك الحفصيين السفارات والتعازي والتنهاني³ والهدايا⁴ لهذا فقد كانت التبادلات التجارية بين بلاد المغرب والمشرق بين طريقين أساسيين.

¹ - أثير عبد الكريم صادق: التجارة في صفاقس خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، مجلة دراسات تاريخية، العدد 6، جامعة البصرة 2014 ص 355

² - بغداد غربي: المرجع السابق ص 101

³ - روبر بر نشيفك: المرجع السابق ج 1 ص 292

⁴ - أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني: الرحلة، تقديم، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1961، ص 54

الأول: الطريق البري: الذي تعتبر طرابلس والإسكندرية أهم محطاته، حيث كانت ممر القوافل الحج وهي الوسيلة الأساسية للربط بالمشرق ومصر في التجارة الخارجية.¹

وعليه نجد أولى الطرق التي تربط بلاد المغرب ببلاد المشرق وعن طريق مصر نذكر:

الطريق الرابط بين الإسكندرية وطرابلس ثم يمر بقابس بعد خروجه من طرابلس ثم يسلك الطريق الذي يتوسط طريق القيروان وطريق الساحل الى صفاقس ومنها الى المهديّة ثم الى المنستير ومنها الى سوسة.²

وظل هذا الطريق مستخدما في القرن الثامن الهجري /14م حسب ما أشار اليه القلقشندي بقوله: " الى أن هذا الطريق يبدأ من تونس ثم سوسة وصفاقس، قابس وطرابلس ومنها الى طاجورة وسرته والى سرت ومنها الى طليثمة ثم يدخل الإسكندرية."³

وقد سلك هذا الطريق ابن بطوطة في رحلته الى المشرق مع قافلة تجارية منطلقا من إقليم المغرب الأقصى.⁴

أما الطريق الثاني: الرابط بين بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين فهو الطريق الرابط بين برقة والإسكندرية، وهو من أكثر الطرق إستعمالا حيث قدر الإدريسي مسافته بإحدى وعشرين مرحلة.⁵

¹-محمد بن ساعو: التجارة والتجار في المغرب الإسلامي القرن 7-10هـ/13-15م مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الحاج لخضر، 1434-1435هـ/2013-2014م ص 152

²-أبي القاسم ابن حوقل: المسالك والممالك: مطبع بريل، ليدن، 1872، ص 50/شوقي عبد القوي عثمان حبيب: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر سلاطين المماليك. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص 65-67/ينظر خريطة رقم 3 ص 212

³-القلقشندي: المصدر السابق ج 5 ص 112

⁴-ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، تح، محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، ط1، بيروت 1407-1987م ج 1 ص 12-17

⁵-الشريف الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبع بريل، ليدن، 1862، ص 317

ونجد هذا الطريق يمر بالعديد من المحطات المهمة إنطلاقاً من برقة وقصر الندامة وتاكنست، وادي مخيل وجب الميدان وجب عبد الله، مرج الشيخ والعقبة، خرايبب أبي حليلة، قصر الشماس، خرايبب الفوم، جب العوسج، كنائس الحرير، قصر الروم، ذات الحمام فالإسكندرية.¹

وهو نفس الطريق الذي أشار اليه اليعقوبي² بقوله «أنه من أراد أن يسلك من مصر الى برقة واقاصي المغرب نفذ من الفسطاط، الكنائس، جب العوسج ثم خربة القوم ثم الرمادة وهي أول منازل البربر ثم يصير الى العقبة، ثم قصور الروم ثم جب الرمل ثم يصير الى وادي مخيل ومن وادي مخيل الى مدينة برقة الى إجدابية الى سرت الى طرابلس ثم قابس الى القيروان الى صفاقس الى بنزرت ...».

كما أن الطريق السابق الذكر يقطع من برقة الى البحر الغربي (المحيط الأطلسي) حسب ما أورده ابن حوقل³ وهي أول محطة ينزلها المتجه من مصر القيروان⁴ وهذا الطريق يتجه غرباً نحو بجاية ووهران⁵ ثم سبتة التي بينها وبين وهران ثماني عشرة مرحلة، وبعدها طنجة بمسيرة يوم تام في البحر⁶، ثم ينعطف هذا الطريق الى مناطق المغرب الأقصى الساحلية والداخلية⁷.

كما نجد الطريق الذي يربط ويبدأ من البصرة وبغداد عن طريق دجلة ماراً بعدة مدن شرقية كالأنبار والرقعة وحران ... حتى الوصول الى بحيرة طبرية ثم منها الى الرملة والفسطاط ومن الفسطاط الى الإسكندرية ومنها الى برقة، وبلاد إفريقية وقد أشار ابن خردزابه⁸ الى هذا الطريق من الفسطاط إلى برقة وإفريقية.

وهناك الطريق الساحلي أو ما يسمى بطريق الجادة الذي يربط طبرقة بالمغرب الأدنى بمدينة الإسكندرية عبر الساحل على مسافة تقدر بإحدى عشرة مجرى ونصف مروراً بمجموعة من

¹-الإدريسي: المصدر السابق، ص 317

²-اليعقوبي: البلدان، مطبع بريل، ليدن، 1860، ص 130-140

³-المصدر السابق: ص 14-43

⁴-الإدريسي: المصدر السابق، ص 131

⁵-أبو عبد الله العبدري: الرحلة، تح، علي إبراهيم كروي، دار سعد الدين، ط2، دمشق، 1426هـ-2005م ص 558-561

⁶-المراكشي: المصدر السابق، ص 438-439

⁷-محمد بن ساعو: المرجع السابق ص 93

⁸-المسالك والممالك: مطبعة بريل، ليدن، 1889، ص 220-221/ ينظر خريطة رقم 3 ص 212

المدن والمراسي انطلاقاً من الإسكندرية عبر رأس الكنائس ومرسى الطرفاوي، وعقبة السلوم، مرسى عمارة وصولاً الى الملاحة ثم مرسى طبرقة.¹

ومن مدينة الإسكندرية ثم الفسطاط يتفرع الى وجهتين نحو المشرق، طريق يربط الفسطاط بطبرية، الأردن ثم دمشق، بعلبك، حمص وحماه وقنسرين وحلب وصولاً الى الموصل.²

والطريق الآخر يربط الفسطاط بالعريش ثم رفح، غزة، يافا ثم طبرية، وصولاً الى الرقة بعد المرور بمجموعة من المحطات والمدن ... إلى بغداد.³

كما نجد كذلك الطريق الساحلي من الإسكندرية الى فاس ومكناس ويبدأ من الإسكندرية، ليمر ببرقة وطرابلس ثم الى القيروان وقد وجدت بين الإسكندرية وطرابلس حصون متقاربة جداً إذا ظهر عدو في البحر أثار كل حصن الذي يليه فيصل التتوير، وينتهي خبر العدو ومن طرابلس الى الإسكندرية أو من الإسكندرية الى طرابلس في ثلاث ساعات أو أربع ساعات، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذروا عدوهم.⁴

ويوجد على هذا الطريق من الإسكندرية الى طرابلس عدة حصون وموانئ ومدن تنزل بها العربان منها العقبة.⁵

إلا أنه ما يجب الإشارة اليه أن تجارة القوافل تراجعت مع بلاد المشرق ولعل ما أدى الى إضعاف هذه الطرق كان نتيجة لقدم الهالبيين مع منتصف القرن 5هـ/11م ثم قدم النورمان مع منتصف القرن 6هـ/12م.⁶

بالإضافة الى أن طرق المغرب كانت تعرف في بعض الأحيان أعمال قطع الطريق من طرف عصابات، تقوم بالإعتداءات على التجار والقوافل المارة وسفك دمائهم ونهب أموالهم، وتزدهر

¹-البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 85-86

²-ابن خردذابة: المصدر السابق ص 116-117

³-بغداد غربي: المرجع السابق ص 103-104

⁴-المراكشي: المصدر السابق ص 432

⁵-شوقي عبد القوى: المرجع السابق ص 65

⁶-بن ميلاد: المرجع السابق ص 232

عملية قطع الطريق خلال فترات ضعف الدولة والإضطرابات التي تتعرض لها وكانت أكثر القوافل تعرض للنهب تلك التي لا تدفع رسوم العبور وبالتالي لا تتوفر على جوازات المرور وتصريحات الأمان التي ستظهر عند بعض المدن والقرى التي يمرون بها.¹

وقد أفتى الفقيه ابن عرفة بقتل قطاع الطرق من عرب الديالم وسعيد ورياح وسويد وبني عامر من المغرب الأوسط سنة ست وتسعين وسبعمئة الذين عرفوا بقطع الطرق ونهب المارة.²

وبالتالي فهذه الفتوى دليل على مدى إنتشار هذه الظاهرة واستفحال خطورتها وتأثيرها على مختلف الميادين الحياتية ببلاد المغرب.

كما أن الغزوة الهلالية على بلاد المغرب كان لها تأثير سلبي على نشاط ومنشآت الطرق خاصة الطريق الرابط بين الإسكندرية والقيروان، حيث خربت الاعراب الكثير من الحصون الواقعة على هذا الطريق فطرد وشرد سكانها وأهلها.³

إلا أنها لم تنقطع بشكل نهائي حتى نهاية العصر الوسيط، كما أن الطرق الصحراوية لا يمكن التخلي عنها لأنها المسار الضروري للمصريين نحو الممالك الإفريقية غرب الصحراء الكبرى وهي التي كانت منبعاً لمناجم الذهب ومصدراً هاماً من مصادر تمويل الشبكات التجارية العالمية.⁴

وهو ما جعل شكل التجارة بين إفريقية في العهد الحفصي وبلاد المشرق في العهد المملوكي بعد قدوم الهلاليين أن تأخذ طابعاً بحرياً بالأساس.

¹ - محمد بن ساعو: المرجع السابق ص 96

² - الونشريسي: ابي العباس احمد بن يحيى: (914هـ): المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والاندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1401هـ-1981م ج 2 ص 435-436

³ - المراكشي: المصدر السابق ص 432-433

⁴ - لمى فائق احمد: الإسلام في إفريقيا وأثره في تطور العلاقات التجاري مع مصر، مجلة جامعة الانبار للعلوم الإنسانية،

وهو ما أشار اليه مارسية بقوله "أن الطريق البحري الساحلي مع بلاد المشرق أصبح السبيل الوحيد للتبادل التجاري والحج".¹

فبعد تراجع القوافل مع بلاد السودان والمشرق إزدهرت وزادت أهمية البحر المتوسط تجارة وقرصنة.²

ومن هنا تبرز منافذ أخرى للتواصل والاستمرارية في تنشيط الحركة التجارية بين بلاد المشرق والمغرب الإسلاميين بصف عامة، وبالتالي تظهر الطرق البحرية كبديل للطرق البرية وكنقطة إتصال أخرى بين إفريقيا وبلاد المشرق.

ثانيا: الطرق البحرية

لقد كان لتطور التجارة البحرية في منطقة المغرب الأدنى نتيجة غير مباشرة للغزو الهلالي³ وذلك لما سببه الغزاة من تخريب للمدن والحوضر وهذا ما يؤكد صاحب الاستبصار⁴ إذ يقول: «إن على الطريق من القيروان الى قلعة بني حماد...مدنا كثيرة خربتها العرب عند دخولهم بلاد إفريقية»

ولقد ساعد الموقع الجغرافي الاستراتيجي لتونس أن تكون همزة وصل بين المشرق والمغرب وعلى إقامة علاقات اقتصادية مع كثير من الدول المجاورة خاصة مع مصر.

حيث تعتبر تونس محورا مركزيا وكان الخط الواصل بين تونس والإسكندرية من أهم الخطوط البحرية نحو المشرق، نظرا لإنتقال أعدادا كثيرة من المراكب التي تقل الحجاج والتجارة عبره.⁵

¹-جورج مارسية: بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: محمد عبد الصمد هيكل، مطبعة الانتصار، الإسكندرية، 1999 ص 252

²-محمد حسن: أوج العصر الحفصي 625-750هـ/1228-1349م: تونس عبر التاريخ من العهد العربي الإسلامي الى حركات الإصلاح، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2007 ج 2 ص 147

³-جورج مارسية: المرجع السابق ص 328

⁴-مجهول: الاستبصار في عجائب الامصار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ص 101

⁵-محمد بن ساعو: المرجع السابق ص 99

وعلى طول هذه الطرق البحرية كانت تنظم الرحلات التجارية بنوعيتها، الرحلة الشاطئية والرحلة في عرض البحر، فالرحلة الشاطئية هي التي تسير على طول الشاطئ للوقوف بمختلف الموانئ، أما الرحلة في عرض البحر فإنها لا تلزم بالسير بمقربة من الساحل.¹

فكانت السفن المبحرة في عباب البحر المتوسط تمر بالضرورة عبر ميناء تونس.²

فكانت من أهم الطرق البحرية التي ربطت إفريقيا وبلاد المشرق نجد:

-الطريق البحري بين مصر وإفريقية: ويبدأ من الإسكندرية الى طرابلس ثم الى تونس ومنها الى بقية موانئ المغرب.³

ونجد أن هذا الطريق سلكه ابن خلدون (ت 808 هـ -1406م) حيث بين أنه لما إستقر بمنطقة قلعة بني سلامة بتيارت وبعد أربعة أعوام من التأليف إتجه الى تونس سنة 1378هـ/1780م مارا بالدوسن من أطراف الزاب ثم قسنطينة وصولا الى سوسة ثم تونس وكانت بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعتهم فركب معهم في منتصف شعبان 784هـ/أكتوبر 1382م.⁴

وهذا ما يبين لنا نشاط خط النقل البحري بين بلدان المغرب والمشرق الإسلامي عن طريق مصر سواء للحج أو التجارة أو نقل الأشخاص.

كما أشار كذلك القلصادي (ت 891هـ/1486م) الى هذا الطريق في رحلته نحو المشرق مرورا بوهران الى تلمسان ومنها الى تونس وجربة وطرابلس فالإسكندرية، وكان ذلك سنة

¹-اوليفيا ريمي كونستيل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، د ت، ص 72-73

²-بن ميلاد لطفي: المرجع السابق ص 227

³-مریم محمد عبد الله جبودة: التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحيدي والحفصي (355-980هـ/1160-1572م): رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب من قسم التاريخ، جامعة الزقازيق 2008 ص 84/ ينظر خريطة رقم 3ص 212

⁴-ابن خلدون:(ت808هـ): الرحلة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1425/2004هـ ص 188-191

851هـ/1447م) وأثناء عودته سار على الخط من القاهرة الى برقة الى طرابلس الى تونس الى وهران فتمسان الى الميرية.¹

وكان هذا الطريق الأساسي لحمل تجارة بلاد المغرب الى مصر ولقد كثر عدد المغاربة الوافدين الى الإسكندرية بهذا الطريق، كما استخدمه تجار مصر الذين يقصدون المغرب أي أنه كان طريق التجارة الرئيسي بين مصر وبلاد الساحل الشمال الإفريقي.²

حيث كانت السفن التي من المغرب، تسير بحذاء الساحل المغربي والليبي، فإنها ترسو بثغور تونس وبرقة، ثم تصل الى الإسكندرية وكانت تنطلق من الإسكندرية مبحرة الى أنطاكية، بعد أن تمر بدمياط وتتيس وبموانئ عسقلان وقيسارية ويافا وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس فاللاذقية.³

وبالتالي أصبح الاتصال البحري بين بلاد المغرب والمشرق أكثر كثافة في عهد الحفصيين وكانت طرابلس نقطة الإنطلاق للسفن التجارية المحملة بالبضائع والسلع من الأسواق المغربية الى الإسكندرية ومنها الى موانئ بلاد الشام.⁴

ومن الملاحظ أن الطرق البحرية التي سلكها التجار لنقل البضائع الى المشرق الإسلامي سواء كان الى مصر أو الى بلاد الشام أو العراق، ظلت نشطة طوال القرن السابع الهجري /الخامس عشر الميلادي، حيث أن إنتشار الموانئ الساحلية المغربية على طول الساحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، جعل أمر النقل البحري بين بلاد المغرب والبلدان الخارجية أمرا ميسورا.⁵

¹-القلصادي: أبي الحسين علي(ت891هـ): الرحلة، تح: محمد أبو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، د.ت، ص 161-158-95

²-شوقي عبد القوي: المرجع السابق ص 76

³-قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية: العصر المملوكي والعثماني، دار مكتبة الهلال، ط1، بيروت 2004 ص 261

⁴-كريم عاتي الخزاعي: أسواق بلاد المغرب بين القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، الدار العربية

للموسوعات، ط1، بيروت، 1432هـ-2011م ص 97

⁵- نفسه: ص 98

وكان الطريق البحري من الإسكندرية الى طرابلس كثير الاستعمال لاسيما وأن الطريق البري كان محفوفا بالمخاطر.¹

كما رسم لنا البكري² طريقا بحرية بين مرسى المهديّة ومرسى الإسكندرية مارا بجزيرة قرقنة.

ثم تسيّر المراكب الى مدينة قابس ثم الى جزيرة جربة ثم الى مرسى مدينة طرابلس، ثم تخرج المراكب الى سرت ومنها الى برقة ثم الى مرسى طبرق الى مرسى السلوم ومنها الى رأس العوسج ثم الى الكنائس ومنها الى منارة الإسكندرية.³

كما أن التجارة القادمة من الغرب الى الشرق التي كان يجلبها تجار البحر تسلك البحر المغربي، وبالضرورة العبور على موانئ إفريقية ثم الفرما ويحملون تجارتهم ومنها الى بحر القلزم ومنها يبحرون الى السند والهند والصين ويسلكون نفس الطريق أثناء عودتهم.⁴

وقد كان لنشاط التجارة البحرية وتطوره وإزدهاره، نتيجة غير مباشرة لوجود سلسلة من الموانئ والمتناثرة على طول سواحل البحار، ولهذا فقد عرفت الدولة المملوكية العديد من الموانئ والمراسي الهامة والتي ربطتها مباشرة بالعالم الخارجي سواء الموانئ المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط أو التي تشرف على البحر الأحمر ومن أبرز موانئ الدولة المملوكية نذكر:

ميناء الإسكندرية: نجد هذا الميناء تمثل المحور المركزي للعلاقات التجارية بين إفريقية وشرق المتوسط طوال العصر الوسيط إذا إكتسب أهميته من كونه الميناء المشرقي الأقرب الى بلاد المغرب والميناء المركزي الذي يربط عالم البحر الأحمر وموانئ البحر المتوسط.⁵

¹- عز الدين عمر موسى: النشاط الإقتصادي الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، ط2. بيروت 2003، ص 321

²-المصدر السابق ص 85

³-نفسه ص 85-86

⁴-ابن خردذابة: المصدر السابق ص 153-154

⁵-بن ميلاد لطفي: المرجع السابق ص 240

حيث إستعادت الإسكندرية إزدهارها القديم في العهد المملوكي، وأصبحت بحق الثغر التجاري الأول، بحيث ترسو فيه السفن التجارية محملة بسلع الشرق والغرب، وكانت تشكل محطة رئيسية للسفن التجارية القادمة من المغرب الى الأندلس الى الشام الى مصر.¹

وقد مدح وليم الصوري² أهمية الإسكندرية كمدينة تجارية فقال "أصلح ما تكون للتجارة الواسعة ولها ميناءان يفصلهما عن بعضهما لسان من الأرض ضيق جدا، ويقوم عنده برج شاهق يسمى بفاروس وموقعها على البحر واتصالها بالنيل ترتب عليه ذبوع شهرة الإسكندرية".

فكان للإسكندرية مينائين الطور لاستقبال السفن الأوروبية والسلسلة لإستقبال السفن العربية والمغربية.³

كما مثل كذلك ميناء الإسكندرية الميناء الرئيسي والتاريخي لمصر وثاني أكبر المدن المصرية بعد القاهرة العاصمة.⁴

وقال عنها القلقشندي⁵ : "فإليها كانت تهوي ركائب التجار في البحر والبر، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض، وهي فرضة بلاد المغرب والاندلس وجزائر الروم وبلاد الروم والشام".

كما لعبت الإسكندرية دورا كبيرا في كونها محطة تجارية، لا سيما في تجارة القوافل باعتبارها أهم الثغور المصرية على البحر المتوسط، حيث كانت تلتقي عندها القوافل القادمة من المغرب سواء القوافل الخاصة بالتجارة أو قوافل الحجاج المتجهة الى الأراضي المقدسة ونظرا لتوسع نشاط المغاربة في الإسكندرية فقد فضل بعضهم الإقامة ونتج عن ذلك تزايد في عدد الجالية

¹-قصي الحسين: المرجع السابق ص 263

²-الحروب الصليبية: تر، حسين حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر 1992 ج 3 ص 69

³-أنطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، ط2، بيروت 1982 ص

150

⁴-حياة ناصر الحجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع

الهجريين، الرابع عشر والخامس عشر للميلاديين، الكويت ، 1995 ص 47

⁵-المصدر السابق: ج 3 ص 408

المغربية حيث أصبحت لهم الوكالات، ونشطت تجارتهم في الأسواق وأقاموا الطرق والإحياء التي سميت فيما بعد بإسمهم مثل حارة المغاربة، حي المغاربة، سوق المغاربة¹.

ومن هنا يتبين لنا أن الإسكندرية حافظت على دورها كقابلة للسفن التجارية المغاربية ولتجارة القوافل المنتقلة من المغرب الى المشرق.

ميناء القاهرة: وتزداد أهمية هذا الميناء في كونه يقع عند التقاء الطرق التجارية بين إفريقيا وآسيا وحج المسلمين الإفريقيين الى مكة التي كان يمر في وسطها².

ونجد ميناؤها الهام على النيل بولاق، والذي ظل الميناء الرئيسي للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى، فتدخل الميناء الآلاف من السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب³.

فضلا على أن الطريق الذي كانت تحمل عليه السلع الثمينة من السودان والحبشة كان ينتهي إليها⁴.

ميناء دمياط: فهو يعتبر من أشهر الموانئ البحرية النهرية فهو يقع على جانب النيل، ويعتبر مخرج التجارة المصرية الى المتوسط، وتتصل بالقوافل البرية الى موانئ البحر الأحمر ولا تدخل اليه المراكب مباشرة بسبب شدة تيار مياه النيل، فقد كانت تخرج منه قناة تصل حتى مدينة تنيس⁵ حيث كانت ترسو المراكب⁶.

¹- إبراهيم أبو القاسم: مراكز طرق القوافل بين شمال افريقيا ووسطها "طرق التجارة العالمية عبر العالم الغربي على مر عصور التاريخ «ندوة عقدها الاتحاد بمقره في القاهرة منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 1421هـ-200م ص 495

²- جاستون قيت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، تر: مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، بيروت 1968 ص 101

³- نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1393هـ-1973م ص 128-129.

⁴- إسراء مهدي: نشاط ومعوقات التجارة في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، عدد 12 ص 181

⁵- تنيس: جزيرة قريبة من البر بين فرماء ودمياط في وسط بحيرة منفردة عن البحر الأعظم، بينهما وبين البحر الأعظم بر مستطيل وبها فوهة تدعى القرباج يدخل منها ماء البحر الأعظم الى بحر تنيس، القزويني: المصدر السابق ص 176

⁶- أنطوان خليل ضومط: المرجع السابق ص 192

ويعد من أكبر المراكز التجارية، وهي مدخل البحر الأحمر الجنوبي وفيها يتم تبادل السلع الشرقية والغربية.¹

ميناء عيذاب: ويعتبر كذلك من أهم موانئ البحر الأحمر، فهي تقع على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، فكانت عيذاب مركز تجمع حجاج مصر والمغرب ووسط وغرب إفريقيا.²

كما أن عمق مياهها جعل المراكب آمنة من خطر الشعاب المرجانية المنتشرة في مياه البحر الأحمر.³

حيث كانت تجارة الشرق الأقصى تنتقل عبرها في إنتقالها من مصر الى البلاد الأوروبية، كما إنها محطة هامة في طريق القوافل المتوجهة الى المناطق المقدسة لأداء فريضة الحج ببلاد الحجاز عبر البحر الأحمر، وذلك لموقعها المناسب لمثل هذه الرحلة كونها تقع في الجهة المقابلة لميناء جدة.⁴

أما أهمية ميناء عيذاب، فقد بدأت بالظهور خلال القرن الخامس الهجري وخلال هذه الفترة يمدنا الرحالة الفارسي ناصر خسرو بمعلومات عن بدايات نشاطها التجاري، فيذكر أن المكوس كانت تحصل على ما في السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، ومنها تنتقل البضائع على الإبل الى أسوان عبر الصحراء ومن هناك تنتقل الى السفن الى مصر في النيل.⁵

كما قدم لنا ابن جبير⁶ نصا في وصف عيذاب ، إذ قال : "وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها، وتقلع منها زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة". وهذا دليل على ازدياد نشاط وأهمية ميناء عيذاب، كما وصف لنا كذلك ابن جبير كثافة الحركة التجارية في ميناء عيذاب، وأنواع السلع الواصلة اليها ومدى بلوغ الأمن على الطرق

¹-إسراء مهدي: المرجع السابق ص 182

²-على السيد علي محمود: الحياة الاقتصادية في جدة في عصر سلاطين المماليك (648-923هـ/1250-1517م)

المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1991ص 59

³-حلمي محمد سالم: إقتصاد مصر الداخلي وأنظمتها في العصر المماليكي، دار الرشاد، الإسكندرية، ص 251-252

⁴-بغداد غربي: المرجع السابق، ص 248-249

⁵-ناصر خسرو علوي: سفر نامة، تر، يحي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1993 ص 133-134

⁶-الرحلة: دار صادر، بيروت، د.ت، ص 45

البرية المؤدية إليها بقوله: "والقوافل العيذابية والقوصية صادرة وواردة والمفازة معمورة امنا...ورمنا إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تكمن لنا ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة بسلع الهند، الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب، وأكثر ما شاهدناه من ذلك أحمال الفلفل، فقد خيل إلينا لكثرتة أنه يوازي الرباب قيمة ومن عجب ما شاهدناه، إنك ترى احمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها، أو غير ذلك، وتبقى بموضعها الى أن ينقل صاحبها مصنونة من الآفات على كثرة المارة عليها من أطوار الناس".¹

فكان هذا لبعض الموانئ والمحطات التجارية الهامة الواقعة في بلاد مصر على ساحلي المتوسط والبحر الأحمر، كما كانت كذلك بعض المحطات والموانئ الأخرى التابعة لإقليم الحجاز وواقعة على ساحل البحر الأحمر، والتي عرفت هي الأخرى شهرة وإزدهارا لا مثيل له في العهد المملوكي نذكر منها:

ميناء جدة: «وهي فرضة مكة على ساحل بحر القلزم، وهي تقع في الغرب من مكة بميلة الى الشمال وهي ميناء عظيم محل محط وإقلاع واليها تنتهي المراكب من مصر واليمن وغيرها وعنها تصدر من مكة وهي ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب إليها".²

عن أهمية ميناء جدة ونشاط الحركة التجارية به وهذا ما أشار إليه الظاهري³ بقوله: «وأما جدة فهي ميناء مكة المشرفة ترد إليها المراكب بالبضائع وهي من أعظم الموانئ وربما يردها في كل سنة نيف عن مائة مركب من جملة ذلك مركب بسبعة قلع وتؤخذ الموجبات والرسوم تحمل الى صاحب مكة".

كم كان لموقع جدة المتوسط من موانئ الحجاز وقربها من عدن والهند ومكة أثر في ازدهار النشاط التجاري بها، وحركية المبادلات التجارية مع المراكز والموانئ العالمية في حوض

¹-ابن جبير: المصدر السابق، ص 42-44

²-القلقشندي: المصدر السابق، ج 4 ص 258

³-الظاهري: غرس الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، مطبعة الجمهورية، باريس

المتوسط، حيث كانت السلع تنتقل من أوروبا وبلاد المغرب الى الإسكندرية ومنها الى الفرما ثم منها الى بلاد الحجاز، كما نشطت التجارة بينها وبين بلاد المشرق من الهند الى الصين.¹

ميناء سواكن: يعد هذا الميناء المنفذ البحري الرئيس لبلاد السودان والحبشة والمناطق الداخلية، فيصلها من الداخل سلع النوبة والحبشة، المتمثلة بالرقيق واللؤلؤ الجيد لتصديرها.²

وكانت سفن التجارة تصلها من اليمن وجدة، ويتم تحصيل الضرائب على المراكب المارة بها لصالح ملكها، كما اعتبرت سواكن من المحطات الهامة للتجار الكارمية، إذ يصلون اليها بسلع الشرق عبر عدن.³

كما تتوفر للدولة المملوكية العديد من الموانئ الأخرى والتي كان لها الأثر البالغ في تنشيط التجارة البحرية للدولة المملوكية كموانئ: صيدا وصور، عكا، بيروت، طرابلس، عدن، الطور أيله، وغيرها من الموانئ، فكان لكل ميناء أهمية ومميزاته الخاصة به، وساهمت بدورها في ربط أقاليم الدولة المملوكية بالعالم الخارجي ولأسيما ببلاد المغرب وخاصة إفريقية.

ولا غريب كذلك أن تبرز في بلاد المغرب وخاصة إفريقية في العهد الحفصي مراكز وموانئ بحرية وتكون لها مكانة إستراتيجية في تنشيط الحركة التجارية لاسيما من ناحية المشرق وظلت موانئ تونس مقصدا لتجار المشاركة يحملون منها سلعا ويأتون بأخرى خاصة إذا علمنا أن أغلب السفن المبحرة تمر في أغلب الأحيان على مراكز ومراسي الدولة الحفصية ولعل من أبرز هذه الموانئ نذكر:

ميناء تونس: لتونس ميناء تدخله المراكب الصغيرة والكبيرة⁴ وكان محطة إقامة للنصارى، بل أنهم يلجؤون الى الإستيلاء عليه في بعض الأحيان إذ يقول ابن قنفذ القسنطيني⁵ "ووصل في مدته في يوم السبت السادس والعشرون من شهر ذي الحجة عام ستة وتسعين وستمائة

¹ -بغداد غربي: المرجع السابق، ص 250

² -الحميري: المصدر السابق ص 332

³ -خالد محمد السالم العميرة: موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م): أطروحة

مقدمة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جامعة اليرموك 2004 ص 63

⁴ -ابن سعيد المغربي: الجغرافيا، تح، إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1970 ص 143

⁵ -المصدر السابق ص 152-153

سبعون جفنا للنصارى البنادقة أقام أهلها بمرسى تونس ثلاثة أيام ثم تونس أقلعوا، وبعد إقلاعهم أصبح في المرسى المذكور ثلاثة وعشرون جفنا للنصارى القطلانيين أقاموا بها ثلاثة أيام ثم أقلعوا ."

فكان ميناء تونس من الموانئ الفاعلة في البحر المتوسط إذ يقول عنها العبدري¹ "مدينة تونس مطمح الآمال ومصاب كل برق ومحط الرحال من الغرب والشرق، ملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلكك فإن شئت أصحرت في موكب، وإن شئت أبحرت في مركب". وبالتالي يلاحظ دورها في كونها نقطة إتصال بحرية هامة في شبكة موانئ البحر المتوسط.

ونتيجة لموقعها جعل من مينائها ميناء آمنة للسفن من الرياح والأمواج العاتية الأمر الذي أكسبها أهمية إقتصادية تتمثل في رواج ونشاط التجارة بمرساها مع مختلف الدول الأوروبية والإسلامية، وخاصة مع الجمهوريات الإيطالية وبصفة خاصة مدينة بيزة في المعاهدة التي عقدها معهم في أواخر التي شهر رمضان سنة 582هـ/أوائل ديسمبر 1186م والتي تدوم مدتها 25 سنة.²

ولكن ما نتساءل حوله عن دور ميناء تونس في التجارة بين إفريقيا والمشرق أو كمحطة للتجارة بين المدن الأوروبية والمشرق، فلا يمكن أن ننفي بالمرّة نقلا للبضائع بين إفريقيا والمشرق عبره؟ ولا يمكن إستبعاد كذلك وجود حركة لتتنقل السفن البحرية بين ميناء تونس وميناء الإسكندرية باعتباره الأقرب الى بلاد المغرب وخاصة الى تونس.

ولعل ما يدل على أن مينائي تونس والإسكندرية كانت تنظم عبرهما رحلات نذكر على سبيل المثال ابن تافراجين الحاجب الحفصي فر عبر البحر إثر الاحتلال المريني ربيع الأول 749هـ/جوان 1348م) حيث تسلل عن أصحابه وركب السفن الى الإسكندرية³.

¹ -المصدر السابق ص 108

² -بغداد غربي: المرجع السابق ص153

³ - ابن الشماخ: المصدر السابق ص97

كما أن ابن خلدون الذي خرج من تونس في منتصف شعبان 784هـ/25 أكتوبر 1382م ركب سفينة إنطلقت من ميناء تونس الى الإسكندرية "فودعتهم"، وركب البحر منتصف شعبان من السنة¹.

كما سافر أبناؤه من نفس الميناء والى نفس الوجهة نحو الإسكندرية.²

كما كان هذا الميناء قبلة للبحارة المصريين ووسيطا بين المشرق والبنديقية حيث كانت سفن البنديقية تبحر بإزاء سواحل تونس لتحمل منها منتجات البلد وتتجه بها الى مصر وذلك في إطار خط ترافيقو traffico خلال النصف الثاني من القرن 9هـ/15م.³

-ومن هنا يتبين لنا أنه على الرغم من قلة المعلومات في هذا الصدد إلا أنه يمكن القول وجود حركة لتنتقل السفن البحرية بين ميناء تونس والإسكندرية، حتى ولو كان بنسب ضئيلة.

ميناء طرابلس: إستمدت مدينة طرابلس أهمية وميزة موقعها الخاص من مينائها الجيد الذي يعد من الموانئ المهمة على ساحل البحر المتوسط.⁴

وكما كانت طرابلس الغرب ملتقى طرق القوافل الواردة من الشرق من مصر ومن المغرب.⁵

كما أشاد البكري⁶ بميناء طرابلس إذ قال: «...ومرساها مأمون من أكثر الرياح "

ولمكانتها الإستراتيجية جعلتها حلقة وصل تربط بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب أيضا، كما تعد طرابلس محطة وإستراحة للحجاج المغاربة العائدين الى بلادهم.⁷

¹-ابن خلدون: الرحلة، المصدر السابق ص 199

²-نفسه، ص 266

³-هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تعريب، احمد رضا محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994، ج3 ص 328

⁴-مريم محمد عبد الله جبوده: المرجع السابق ص 88

⁵-إبراهيم أبو القاسم: المرجع السابق ص 494

⁶-المصدر السابق، ص 7

⁷-علي محمد سميو: التجارة والأسواق في إقليمي برقة وطرابلس من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين مع المقارنة بما جاء في المصادر التاريخية من 5الى 7هـ، مجلة كلية الآداب، جامعة مصراته، العدد 1، ص 196-197

كما أن مرساها يتميز بالإتساع وهذا ما أشار اليه التجاني¹ بقوله: «وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك إصطفاف الحياذ في أواربها».

ولقد تضمنت فتاوى البرزلي بعض الإشارات عن التجارة بين طرابلس والإسكندرية في نص نوره: «سئل ابن يونس وعن ابن عبدوس في قوم إكثروا مركبا من الإسكندرية إلى طرابلس فرددتهم الريح لسوسة لإكراء عليه لزيادة المسافة، وإن شاء الرجوع الى طرابلس بالمتاع خاصة أو بنفسه خاصة أو بالأميرين فذلك له، لأنه شرط ولا ينظر الى غلاء المتاع بسوسة ولا رخصة»².

وبالتالي يمكن أن نستنتج من هذه الفتاوى بعض ملامح النشاط بين إفريقية ومصر إضافة الى أن هذا النص يطلعنا على مشاكل التنقل بين طرابلس والإسكندرية بصفة خاصة والمغرب والمشرق بصفة عامة.

ميناء بجاية: مدينة عظيمة كانت في عهد إزدهارها تحتوي أكثر من عشرين ألفا من الدور العامرة.³

حيث تتوفر بجاية على ميناء كبير تحط فيه السفن الأوروبية والإسلامية من الإسكندرية وهو ميناء محمي من الرياح الغربية والشمالية، وله مكانة خاصة في البحر المتوسط.⁴

وهو ما أشار له صاحب الاستبصار⁵ ولها مرسى عظيم تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من اقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن والهند والصين، وغيرها "

¹-المصدر السابق، ص 246

²-البرزلي: ابي القاسم بن احمد البلوي التونسي (ت 841هـ/1438م): فتاوى البرزلي جامع مسائل الاحكام لما نزل بالقضايا بالمفتيين والاحكام، تح، محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2002، ج3 ص 646-647

³-مارمول كرخال: افريقيا، تر: محمد حجي، احمد التوفيق واخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1408-1409هـ/1988-

1989 ج 2 ص 376

⁴-برنشيفك: المرجع السابق ج1 ص 42

⁵-المصدر السابق ص 130

وقال عنها الإدريسي¹: "السفن اليها مقلقة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة البضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار...تجار المشرق." وهذا دليل على أن المشاركة كانوا يصلون الى ميناء بجاية.

وذكر الحميري²: "أن بجاية مغلقة من جبل قد دخل البحر يضرب فيه، ولها دار الصناعة المراكب وإنشاء السفن... وهي مرسى عظيم تحط فيه السفن من كل جهة."

لهذا ساعد موقع بجاية الممتاز والذي تتوسط المراكز التجارية الإسلامية في الأندلس والمشرق الإسلامي، وكذا المدن التجارية في إيطاليا على تبوء مكانة إقتصادية مهمة في العهد الحفصي إذ تعتبر ثاني أكبر مدينة حفصية بعد تونس³.

ميناء قابس: يتحدث البكري⁴ في مسالكه عن قابس بقوله: "وساحل مدينة قابس مرفأ للسفن في كل مكان."

وجاء بعده الإدريسي⁵ في وصفه وصفا متأملا مدقق بقوله: "ومرساها في البحر ليس بشيء لأنه لا يستر من ريح وإنما ترسى القوارب بواديها، وهو نهر صغير يدخله المد والجزر ويرتسي به المراكب الصغرى وليس بكثير السعة، وإنما يطلع المد للإرساء نحو رمية سهم".

فلا شك أن مرسى قابس مرفأ للسفن وكان موئلا للسفن المتوسطة والصغيرة وأما السفن الكبيرة، فكانت ترسو في الخليج بعيدا عن المرفأ ومنها تنقل السلع والمسافرون بواسطة السفن الصغيرة والزوارق⁶.

¹ -المصدر السابق، ص 116

² -الروض المعطار في خبر الأقطار، تر، إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط 2، بيروت، 1984 ص 81

³ -بغداد غربي: المرجع السابق، ص 152

⁴ -المصدر السابق ص 17

⁵ -المصدر السابق، ص 107

⁶ -محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي، مصر، د ت ص 53

وجاء في دائرة المعارف التونسية أن مصب الوادي يستعمل كمرسى للسفن الصغيرة الحمولة، أما السفن الكبيرة فترسي في البحر في خليج مختلف العمق يعلو فيه البناء زمن المد نحو مترين ونصف.¹

مرسى المهديّة: وهو مرسى تقصده السفن من بلاد المشرق والاندلس والروم وغيرها.²

ويقول صاحب الاستبصار³: "وللمهديّة مرسى للمراكب من عجائب العالم، فإنه منقور في حجر صلب، يسع ثلاثين مركبا، وكان على المرسى برجين بينهما سلسلة حديد من أعرب ما عمل، وإذا أرادوا أن تدخل سفينة أو مركب، أرسل حراس البحر السلسلة حتى تدخل السفينة ثم مدوها كما كانت."

والى جانب هذه الموانئ كانت هناك موانئ أخرى تستغل في حالات استثنائية كمرسى بنزرت الذي تلجأ اليه المراكب من مرسى تونس في فصل الشتاء. إذ كان الهول أو يرام إصلاحها.⁴

إضافة الى موانئ الجزائر الشرقية، والتي كانت تابعة للعهد الحفصي كبونة والقل وسكيكدة

فكان هذا عبارة عن وصف بسيط لبعض موانئ الدولة الحفصية، والتي تختلف أهميتها وسعتها لإستقبال الملاحة الدولية ومدى نشاط المجال البحري فيها.

كما أنه يجب التنويه الى المصادر العربية الإسلامية، والتي تتناول تاريخ التجارة بين الدولة الحفصية ودولة المماليك في الفترة المتناولة بالدرس، قليلة وشحيحة جدا، فقد تقتصر على كتب الجغرافيا وهي كتب في أغلبها لا تتجاوز نهاية العهد الموحي خاصة فيما يخص الإدريسي صاحب نزهة المشتاق وصاحب الاستبصار، كما حاولنا إستيقاء وإستنتاج بعض الفتاوى الخاصة بالبرزلي والتي تثير بعض المشاكل الإقتصادية حول البيوع والكراء وتشير من خلال ذلك الى إنتقال تجار وسفن من إفريقية الى الإسكندرية، إضافة الى بعض كتب الرحالة الذين

¹-العربي عبد الرزاق: قابس، دائرة المعارف التونسية، عدد خاص في " تاريخ إفريقية " المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، "بيت الحكمة"، تونس، 1994، ص 99

²- الإدريسي: المصدر السابق: ص 107

³-المصدر السابق، ص 118/ البكري: المصدر السابق، ص 30

⁴-ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص 143

حاولنا من خلال رحلاتهم تتبع المسارات والدروب التي سلكوها وبالتالي رسم الطريق بين المشرق والمغرب.

وفي ختام هذا المبحث يمكن أن نقول ونؤكد الى حد كبير على أن شكل التجارة بين دولة الحفصيين مع نظيرتها دولة المماليك، خاصة بعد قدوم الهلاليين، أخذت طابع بحريا بالأساس ومن ثمة كانت الطرق التجارية بين هذه الموانئ تعتمد على المساحلة في عرض البحر للربط بين المشرق والمغرب.

المبحث الثاني: المنشآت والنظم التجارية

لطالما شكلت المدينة الإسلامية مظهرا من مظاهر العمران الوظيفي وذلك تلبية لمتطلبات المجتمع وحاجاته¹.

إذ يعتبر السوق² جزء مهما من هذا المظهر العمراني، فتكاد لا تخلو أي مدينة وفي بعض الأحيان حتى البوادي من السوق سواء كان كبيرا أو صغيرا، وذلك وفقا للعمران البشري المحيط به أو الذي يفد عليه نتيجة لما يليه من حاجات الإنسان.

ويعد الموقع الإستراتيجي الذي تحتله بعض المدن الكبرى خلال العهد الحفصي والمملوكي كبجاية وبونة وتونس وطرابلس الغرب وكذلك الإسكندرية والفسطاط وغيرها من المدن على شريط ساحلي واحد، شكل ذلك رابطة قوية بين هذه المحطات التجارية الكبرى آنذاك، إذ ازدوجت سبل الوصول إليها برا وبحرا، وأصبحت مقصدا للتجار من جميع الأنحاء³.

فعلى الرغم من توتر العلاقات بين الطرفين في بعض الفترات إلا أن الضرورة الدينية وكذلك الإقتصادية وحتى العلمية كانت تفرض نفسها بقوة إذ تكاد لا تنقطع الرحلات بين الجانبين سواء لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم أو للإستزراق⁴.

فقد إحتوت هذه المحطات وغيرها من المدن الأخرى على أكبر الأسواق وبعد إنتقال العاصمة من القيروان إلى تونس في العهد الحفصي فإتسعت المدينة وفتح فيها بابان وهما باب السويقة وباب الجزيرة وفي وسط المدينة قام المسجد الجامع وحي الأسواق والتجارة كما اهتم الحفصيون ببقايا المدينة القرطاجية وعملوا على توسيعها، وأما القصبنة تقع في الجزء الشرقي وهي من

¹ - رشيدة بالسرور: مركز تجاري في مصر السفلى الإسكندرية خلال العهد المملوكي، مركز النشر الجامعي، الإسكندرية، د ت، ص172.

² - السوق: معروف يسوق الإبل يسوقها والسوق موضع الباعات والسوق التي يتعامل فيها وتسوق القوم أي باعوا واشتروا، وفي حديث الجمعة: إذا جاءت سويقة أي تجارة وهي تصغير للسوق وسميت بها لأن التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها. إبن منظور: المصدر السابق، ج3، ص2154.

³ - مريم محمد عبد الله جبوذه: المرجع السابق، ص104.

⁴ - سيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص7.

إنشاء موحدٍ وإهتم الحفصيون بتهيئتها فإستعت الأسواق الحفصية، وإزدهرت منذ عهد السلطان أبي يحيى زكرياء الأول، كما بلغت عدد دكاكين العطارين سنة 747هـ/1346م سبعمائة دكان¹.

ولم تقتصر حركة التجارة على مدينة تونس فحسب بل شهدت مختلف المدن الحفصية أسواقا إلا أنها تختلف من حيث حجمها وإتساعها وأهميتها، ونذكر من بين أهم الأسواق الحفصية الداخلية سوق قسنطينة في الجهة الغربية، وتكمن أهميته كونه يحتل موقعا إستراتيجيا حيث يربط بين المغرب والمشرق، ويستقبل القوافل التجارية التي تأتي من الجنوب وتتجه نحو الشمال ومن الشرق نحو الغرب².

وفي المقابل كانت مصر تتوفر على أسواق كثيرة وتتنوع على مختلف أقاليمها الداخلية وكذلك الساحلية، فقد كانت من أعظم الأسواق بمصر سوق القصب³، بالقاهرة إذ يحتوي على إثني عشر ألف دكان ويمتد من أول الحسنية إلى المشهد النفيسي وقد كانت عامرة بمختلف البضائع والسلع⁴.

ولعله ذلك يوحي بمدى حركية السوق وإزدهار المجال الإقتصادي بالإضافة إلى إحتلال السوق مركز إستراتيجي.

كما عرفت الكثير من الأسواق التي تتميز بنشاط إقتصادي كبير مثل سوق الإسكندرية والفسطاط وغيرهم⁵.

¹ - كريم عاتي الخزاعي: المرجع السابق، ص 28.

² - حسن الوزان: إفريقيقا: تر: محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1963، ج2، ص 26

³ - القصب: معناها الشارع الرئيسي ويسميه المقرزي الشارع الأعظم وموقع هذه السوق تقريبا في قلب القاهرة المعزية.

المقرزي: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص 194.

⁴ - الأمين محمد عوض الله: أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية المماليك الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

2007م، ص 22.

⁵ - ابن جبير: المصدر السابق، ص 18.

والملاحظ أن هذه الأسواق تقام في الغالب بالقرب من المساجد سواء تعلق الأمر بالأسواق المملوكية كسوق الفسطاط الذي كان على مقربة من جامع عمرو بن العاص¹، أو الأسواق الحفصية كسوق صفاقس الذي كان بمحاذاة المسجد كما هو الحال بالنسبة لسوق القيروان الذي كان يبدأ من المسجد إلى باب الربيع ومن المسجد إلى باب تونس².

وقد كانت أبواب المساجد توصف بأسماء الصناعات والتجارات التي تمارس بالقرب منها مثل باب الصباغين وباب الرماحين، وباب الشماعين، باب الغزل، باب الفانوس، باب الحلوانيين³.

وقد خضعت هذه الأسواق إلى النظم السياسة السائدة وكذلك العديد من العوامل المؤثرة على حركية الأسواق ونشاطها كالأمن والإستقرار بالإضافة إلى المؤثرات الطبيعية⁴.

وقد عرفت الأسواق في العهد الحفصي وكذلك المملوكي

نظام التخصص: فقد إختص كل سوق بمصر ببيع بضاعة معينة حيث نجد سوق العطارين وهو السوق الذي يباع فيه العطر وكذلك سوق الشماعين وهو من الأسواق القديمة بمصر ويزدهر خاصة في الأعياد وشهر رمضان حيث تعلق الشموع والفوانيس في الحوانيت والشوارع وغيرها من الأحياء⁵.

ومن أسواق الفسطاط سوق النحاسين والبزازين وسوق الغزل وغيرها من الأسواق التي حملت أسماء السلع والبضائع وكذلك الحرف الممارسة بها كالحدادين واللجامين⁶.

وهو مايدل على الإرتباط الحضاري وكذلك التجاري بين الدولتين هذا التطابق في هذه الخاصيات التي ربطت بين المشرق والمغرب بصفة عامة وبين المماليك والحفصيين بصفة

¹ - الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 57.

² - كريم عاتي الخزاعي: المرجع السابق، ص 62.

³ - المقديسي المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، 1411هـ - 1991م، ص 217.

⁴ - الأمين محمد عوض: المرجع السابق، ص 57.

⁵ - المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج 2، ص 494.

⁶ - أمين محمد عوض: المرجع السابق، ص 57.

خاصة حيث نجد أن هذه الخاصية، أي إرتباط الأسواق بأسماء السلع والحرف التي كانت تمارس وتباع فيها.

ففي السلطنة الحفصية وجدت العديد من الأسواق التي حملت أسماء ما يباع فيها كسوق الأقمشة وسوق الشمع الذي كان يزدهر خاصة في الأعياد الدينية حيث يتم إشعالها في المساجد، وكذلك سوق الأقمشة وسوق الجلود والحدادين والسلاح والأسماك وغيرها¹.

كما كانت هناك أسواق تحمل أسماء القبائل كسوق كتامة وسوق المسلمين وسوق اليهود، وقد وجد ذلك أيضا في مصر كسويقة المغاربة وسويقة العراقيين².

حيث يذكر ابن دقماق³: أن سويقة المغاربة هي سويقة مشهورة ولها أربعة مسالك الأول من الصوافين والثاني من سويقة الوزير وهذه السويقة متصلة بسويقة المغاربة.

ولعل ذلك يبرز بوضوح العلاقات الطيبة التي ربطت دولة المماليك ودول المغرب من خلال تخصيص سويقة للمغاربة لممارسة أعمالهم التجارية ويدل ذلك أيضا على مدى ازدهار المعاملات التجارية بين الطرفين.

ومن بين المنشآت التجارية التي كان لها إرتباط وثيق بالأسواق وذلك لتسهيل وتنظيم المعاملات التجارية بين الباعة والمشتريين.

أ/ **الفندق أو الخان**⁴: وتتشابه وظيفة الفندق والخان، وهو مصطلح عرف في بلاد المغرب وكذلك المشرق الإسلامي وذلك للدلالة على نزل أو مبيت لإقامة الإنسان والحيوان، وهي عبارة

¹-حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي الى الغزو الفرنسي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1412هـ/1992م ص 40

²-إبراهيم بن محمد بي أيدير العلائي الشهير بابن دقماق: الإنتصار لوسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ج1، ص32

³-نفسه، ج1، ص32

⁴-الفندق أو الخان: والفندق بلغة أهل الشام خان من الخانات التي ينزل بها الناس الذين يكونون في طريقهم إلى المدائن. ابن منظور: المصدر السابق، ج5، ص3473.

عن مجموعة من المباني العامة التي تجمع مخازن وحوانيت ومساكن لمبيت التجار وسلعهم، وقد تنوعت ملكية الفنادق بين الدولة والملك الخاص بالأشخاص¹.

وقد كانت نشأة الفنادق في العالم الإسلامي كمؤسسات أعدت خصيصا لإيواء المسافرين ومن بينهم التجار من مختلف الأجناس والديانات، وقد فرق العرب بين مصطلحين للمؤسسة أي عبارة الخان والفندق، واختص الخان بالنزلاء من المسلمين، في حين إرتبط الفندق بالأوروبيين².

كما شهدت المدن الساحلية لإفريقية هذا النوع من المؤسسات التجارية القريبة من الموانئ أو تكون وسط المدن أو بالقرب من مواقع الأسواق أين تكثر حركة النشاط التجاري مثل مدينة تونس وبجاية وغيرها من المدن الحفصية، ويحتوي الفندق على مخازن للبضائع التي أعدت للبيع في الأسواق بإفريقية، أو تلك السلع التي كانت تجمع بها ليتم إرسالها إلى أوربا³.

وكانت الفنادق عبارة عن بناية كبيرة مركبة من العديد من الغرف والطوابق للسكن حول ساحة مركزية وتلتف حول صحن مكشوف في الوسط ويختص الطابق الأرضي لحفظ السلع والبضائع والعلوي للسكن كما تتم فيه المعاملات التجارية⁴.

وقد لعبت الفنادق دورا مهما في الحياة الإقتصادية وعقد الإتفاقيات التجارية، ويصف البكري⁵، أسواق مدينة تونس وقد عرفت إزدهارا كبيرا وذلك بقوله: "في مدينة تونس أسواق كثيرة ومتاجر عجيبة."

ولم تقتصر هذه الفنادق على بلاد المغرب أو الحفصيين فحسب، بل عرفت دولة المماليك هذا النوع من المؤسسات، فقد كانت هذه الفنادق تستقبل السلع التجارية التي ترد من البلدان الأخرى، وتعمل على تسويقها محليا أو للتجار الوافدين على الدولة⁶.

¹ - محمد بن ساعو: المرجع السابق، ص126.

² - محمد الطاهر المنصوري: تونس في العصر الوسيط إفريقية من الإمارة الأغلبية إلى السلطة المستقلة، صامد للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2015م، ص138.

³ - نفسه، ص 139.

⁴ - كريم عاتي الخزاعي: المرجع السابق، ص59.

⁵ - المصدر السابق، ص20.

⁶ - محمد بن ساعو: المرجع السابق، ص125.

حيث ضمت الإسكندرية العديد من الفنادق التي كان لها دورا مهما في تنشيط التجارة المشرقية الداخلية والخارجية¹.

كما كانت هذه الفنادق تستقبل التجار من مختلف البلدان ومعهم بضائعهم. كما كان يتم فيها عقد الصفقات التجارية وتحتوي أيضا على العديد من المخازن².

وعادة ما تتمركز هذه المؤسسات في المدن الرئيسية أو على الطرق التجارية المؤدية إليها أو بالقرب من الموانئ كفندق باب البحر بمصر كما كانت هذه المؤسسات تحتوي على ساقية للسبيل وحوانيت يقتني منها المسافرين ما يحتاجونه لأنفسهم ولدوابهم³.

ويذكر ابن دقماق⁴، العديد من الفنادق بمصر منها ما يتم به البيع والشراء مثل فندق "العصر" الذي كان يباع فيه السلع والبضائع المجلوبة من الفيوم وبياع فيها أيضا أمهات الزيتون الأخضر، وفندق القصب الذي كان يباع فيه قصب السكر وفندق دار التفاح وفندق الملك السعيد وقد عمر أيام الملك السعيد محمد، ثم ملكه قلاوون الألفي وغريهم من الفنادق.

يذكر ابن جبير⁵ في رحلته إلى مصر زمن المماليك أنه نزل بالفسطاط بفندق أبي التثاء في زقاق القناديل على مقربة من جامع عمرو بن العاص حيث وصف هذا الفندق بأنه عبارة عن مؤسسات تجارية يتم بها البيع والشراء وكذلك توفير أماكن للنوم والإقامة للتجار.

كما عرفت الأسواق بالنسبة للماليك والحفصيين نوعا آخر من المؤسسات الملحقة أو التابعة للأسواق وهي:

القيصاريات: كما وردت بالسين أي القيساريات وتعرف أيضا بالوكالات، ويذكر أن هذه الكلمة أصلها إغريقي تعني المستعمرة وهي مختصر لسوق المستعمرة، ويطلق أيضا على مجموعة من المباني العامة التي تشكل مجموعة من الحوانيت والورش فضلا عن أنها توفر غرفا للمعيشة ويربط البعض هذا المصطلح بالإمبراطور القيصري وأقدم هذه المنشآت كانت ملك للدولة بينما

¹ - أنطوان خليل: المرجع السابق، ص 210.

² - حياة ناصر الحجي: أنماط من الحياة السياسية، المرجع السابق، ص 219.

³ - المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج3، ص820، 821.

⁴ - المصدر السابق، ج1، ص40.

⁵ - المصدر السابق، ص19.

في العصور الإسلامية قد إمتلكها أيضا التجار الأغنياء وكذلك الأسر الحاكمة وذوي المناصب العالية¹.

ومن مظاهر التنظيم في الأسواق بالمغرب والمشرق وجود القيساريات التي كانت تختص ببيع العديد من السلع والبضائع كالحرير والكتان والقطن والصوف والطور والتوابل والفواكه والخضروات وغيرها من السلع².

كما كانت هذه القيساريات عبارة عن مجموعات من الدكاكين والحوانيت والمصانع والمخازن وهي مغطاة ويتوسطها رواق واسع وهي محكمة التنظيم وكانت بها أبواب تغلق ليلا، كما كانت تحتوي، على مستودع توضع به السلع والبضائع قبل بيعها، وتضم أيضا أفران وحمامات ومساجد وأديرة³.

وقد كانت هناك مساطب ومقاعد بجانب الحوانيت والدكاكين وقد خصصت عند الممالك للخياطين خاصة منها في قيساريات الأقمشة والملابس، وعند الحفصيين خصصت للمشتريين⁴.

والملاحظ أن هناك تطابق في التخطيط العمراني في هذه الفنادق والقيساريات ولعل ذلك يدل على تبادل الأفكار بين الممالك والحفصيين من خلال المبادلات التجارية التي كانت تتم بين الجانبين.

حيث كانت القيساريات المملوكية تضم عددا كبيرا من الدكاكين التي يباع فيها ما تحتاجه النساء من الخواتم والأساور ومختلف الحلي كما تعددت أبواب هذه القيساريات وكذلك بضائعها كقيساريات القشاشين التي كان يباع فيها الصناديق، وقيسارية الحلي وهي سكن للصوفيين وغيرهم⁵.

¹ - كريم عاتي الخزاعي: المرجع السابق، ص 65.

² - كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996، ص 69؛ 70.

³ - محمد بن ساعو: المرجع السابق، ص 128.

⁴ - ابن دقماق: المصدر السابق، ج 1، ص 37.

⁵ - نفسه، ج 1، ص 38.

وقد عرف هذا النوع من الأسواق نشاطا كبيرا ولعل ذلك يعود إلى كونها مسقوفة مما يعني إستمرارية نشاطهم طيلة العام، وأن سلعهم لا تتعرض لمطر الشتاء أو أشعة الشمس في الصيف، بالإضافة إلى أنها تحتوي على ورشات لتعليم الصبيان مختلف الحرف والصناعات ومنها أيضا ما يختص ببيع بعض السلع ذات الشهرة، وهو ما يجذب التجار إليها¹.

ويذكر العبدري²: أثناء رحلته إلى مصر أن أسواق القاهرة تظل مفتوحة طوال الليل، وقد نزل بالمدرسة الكاملة التي كانت تشرف على السوق، ولم يكن ينام إلا بصعوبة بسبب أصوات الباعة والتجار، الذين كانوا يقومون بعملية البيع والشراء طوال الليل.

وقد عرف الحفصيين هم بدورهم هذا النوع من المؤسسات التجارية، حيث كانت بمدينة بجاية عدة أسواق إرتبطت بالميناء الذي شكل حركة تجارية نشيطة، ومنها سوق قيسارية الذي كان يحتوي على تجار الأقمشة والحريير والصوف وأسرى القرصنة، وكان هناك أيضا سوق الحبوب ويطلق عليه سوق "البر" ثم إنتقل إلى القيروان في النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة، وكانت هذه القيساريات تضم حوانيت للصناعة والنسيج³.

مراقبة الأسواق:

كانت الأسواق تخضع للرقابة من طرف السلطة وذلك من خلال الضرائب التي تفرض على التجار، كما كانت الدولة تتدخل لفرض النظام داخل الأسواق وتخطيطها، وقد كانت لكل طائفة من أرباب الأسواق عريف وهو الوسيط بين الدولة وأرباب البضائع، والعرفاء بدورهم يخضعون لإشراف المحتسب، كما كانت الدولة تتقاضى ضريبة معينة من هؤلاء العرفاء⁴.

¹ - حياة ناصر الحجى: المرجع السابق، ص218.

² - المصدر السابق، ص287.

³ - روبر بارنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص416

⁴ - قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والإجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية،

ط1، القاهرة ، 1999، ص 64

وكان الإشراف الفعلي للمحتسب الذي يقوم بمراقبة السلع والبضائع وحالات الغش والسرقه في الموازين وكذلك مراقبة الأسعار وكان له أعوان.¹

كما كانت الأسواق المملوكية وقيسارياتها يشرف عليها العرفاء فمثلا قيسارية جهاركس² يشرف عليها عريف يعين من قبل التجار بإشراف والي القاهرة، ويعمل على تنظيم الأمور داخل القيسارية وخارجها، وتضاء ليلا بالفوانيس خاصة في الأعياد والمواسم وتغلق أبوابها ليلا.³

وكان صاحب العسس يجول في شوارع القاهرة ويعمل على مراقبة الأحياء التجارية خوفا من الحرائق أو كسر ويتعقب المفسدين ويستعلم عن كل الحوادث من قتل وحريق وغيره وينفذ الحدود ويقوم بالأحكام.⁴

كما عرفت الأسواق الحفصية نظام الرقابة والردع من طرف المحتسب الذي كان يقوم بمحاربة الغش ومنع إحتكار البضائع والعمل على حل النزاعات ومراقبة الموازين ونظافة الأسواق وعرف الحفصيون نظاما أمنيا في أسواقهم حيث يتم تعيين حرس يسهر ليلا على هذه الأسواق، كما كانوا يستعينون بالكلاب المدربة.⁵

وجرت العادة أن يتم إختيار الأمين من بين الحرفيين الأكثر إتقان للعمل ويصير ممثلا للسلطة، وقد كان العريف عند الحفصيين أقل أهمية من منصب الأمين ويخضعان في تعيينهم لسلطة القاضي أو المحتسب لمراقبة الأسواق وإعانة المحتسب.⁶

¹ -القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص451

² -جهاركس: نسبة الى الأمير جهركس الخليلي (ت791هـ/1388م)، أمير أخور الظاهر برفوق، المقرزي: الخطط، المصدر السابق، ج3، ص118

³ -المقرزي: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص463-464

⁴ -الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص151.

⁵ -محمد حسن: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، 1999م، ج1، ص512.

⁶ -إبن رشيد السبتي أبي عبد الله محمد بن عمر: الرحلة، دراسة وتحليل: أحمد حدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مطبعة إبيت، د ط، المملكة المغربية، 1424هـ-2003م، ص70، 71.

كما كانت أسواق الحيوانات لا تقام في المدن وإنما بأطراف المدينة وكذلك سوق الدباغين والحدادين وذلك لتجنب الروائح والأوساخ¹.

وما يستنتج من خلال هذه الخاصيات كتسميات الأسواق وفقا لما يباع فيها، وكذلك ظاهرة التخصص في الأسواق بحيث كل سوق يختص ببيع سلعة معينة، بالإضافة إلى التشابه إن لم نقل التطابق الكبير في المنشآت التجارية ووضائفها لدى المماليك وكذلك الحفصيين، إشارة واضحة لعلاقة التأثير والتأثر وتبادل الأفكار والنظم المطبقة في الأسواق.

وذلك من خلال العلاقات التجارية بين المماليك والحفصيين على الرغم من أن النصوص التاريخية لا تشير إلى وجود علاقات إقتصادية واضحة ومزدهرة بين الطرفين بالإضافة إلى إنعدام إتفاقيات رسمية بين سلاطين الدولتين.

والملاحظ أيضا قلة المصادر التاريخية التي تتناول هذا الجانب المغيب في تاريخ الدولتين على الرغم من أنه لا تكاد تخلو المصادر المتزامنة مع هذه الفترة من ذكر التواصل بين المغرب والمشرق الإسلامي.

وتعد مدينة الإسكندرية محطة أساسية بالنسبة للمغاربة، حيث تقع على طريق الحج والقوافل التجارية، وبها مخازن تستأجر للسلع التي كانت تجلب من الهند، والشرق الأقصى، وموانئ شبه الجزيرة العربية، وموانئ شرق المتوسط².

كما كانت هذه المخازن تستقبل الكثير من السلع والبضائع المتاجر بها بين المشرق والمغرب كالقمح، والزيت والعسل والجلود وغيرها³.

وتعتبر رحلات الحج من أهم الروابط التي جسدت التواصل بين المغرب والمشرق بصفة عامة وبين الحفصيين والمماليك بصفة خاصة، ليس فقط في الجانب الديني والروحي بل حتى الجانب التجاري، إذ كان بعض الحجاج يستغلون هذه الرحلات لممارسة نشاطهم التجاري

¹ - محمد حسن: المرجع السابق، ص 514,517.

² - فاروق عثمان أباطة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 119، ص25.

³ - رويار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص272.

فيقومون بحمل السلع وبييعونها في طريقهم إلى الحج، ولم يقتصر نشاطهم على ذلك فحسب بل كانوا يقتنون السلع الحجازية والهندية والشامية والمصرية، وبييعونها في طريق عودتهم¹.

ويتحدث أيضا ابن جبير، في رحلته من لقيهم من التجار المغاربة في بلاد الشام وما كانت تفرض عليهم من المكوس والضرائب، وما كانوا يعرفون به من الأمانة والصدق في معاملاتهم التجارية².

ولم تقتصر وجهة المغاربة إلى بلاد المشرق لأداء مناسك الحج فقط، بل كانت مناطق لإستقرارهم أيضا، خاصة في الأوقات التي تشهد فيها بلاد المغرب الإضطرابات وعدم الإستقرار، في الوقت الذي كانت تعرف فيه مصر حالة من الرخاء الإقتصادي في الكثير من الأوقات، حيث كانت مدينة الإسكندرية من أهم المحطات التي إستقر بها المغاربة، وذلك لموقعها الإستراتيجي، فضلا عن الكثير من المدن الداخلية، واستطاعوا أن يشكلوا بذلك تنظيمات إجتماعية³. ويقومون بأدوارهم الحضارية⁴.

وما يدعم العلاقات بين البلدين خاصة في المجال الإقتصادي وهو تنوع وتعدد نشاطات المغاربة في مختلف المدن المصرية وإنتشارهم في أحيائها حيث كانوا يسكنون العديد من الحارات التي حملت أسمائهم مثل "حارة الكتامين"، و"حارة بني السوس"، وعرفت بطائفة "المصامدة" وذلك منذ قدومهم مع جوهر الصقلي⁵.

وأیضا ما يمكن الإشارة إليه أن استمرارية وجود هؤلاء المغاربة بمصر وإندماجهم في المجتمع المصري لا دليل على الدور الحضاري الذي كانوا يقومون به في المجتمع.

وما يجسد العلاقة بين المماليك والحفصيين كذلك هو إستقرار بعض التجار الحفصيين بمصر بغرض ممارسة التجارة ونذكر منهم: أبو محمد عبد العزيز ابن إبراهيم بن عبد الله بن علي القيرواني الأصل المصري الدار الذي كان يبيع التمور واليز وأصبح يلقب بالبزاز وتوفي

¹ - العبدري: المصدر السابق، ص 207.

² - ابن جبير : المصدر السابق، ص 251، 274.

³ - ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ج 7، ص 362.

⁴ - المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج 2، ص 389.

⁵ - أمال سالم عطية: المرجع السابق، ص 133.

بالفسطاط (632هـ/1239م)، بينما إختار أبو مدين شعيب بن يحيى بن أحمد بن محمد بن عطية القيرواني الإسكندرية ليعمل بها تاجرا في بيع العطور والنباتات الطبية خاصة منها الزعفران وأصبح يعرف بالزعفراني، وغيرهم¹.

وبالإضافة إلى ما شهدته الأسواق المملوكية والحفصية من خصائص ومنشآت ونظم ومعاملات تجارية بين الطرفين، فقد وجدت هناك العديد من أنواع الأسواق وذلك من الناحية المكانية والزمانية.

ب/ أنواع الأسواق:

1/ الأسواق اليومية: فقد عرف الحفصيون هذا النوع من الأسواق الدائمة في كل مدن إفريقية وهي بدورها تنقسم إلى قسمين: أحدهما مخصص للصناعات اليدوية التي يتم فيها تحويل المواد الأولية إلى مصنوعات والنوع الثاني معدة لعرض وبيع هذه المصنوعات كما كانت هذه الأسواق لا تقتصر على بيع السلع المحلية بل حتى المجلوبة من الخارج².

وإختصت أيضا هذه الأسواق ببيع الأقمشة وقد برع الحفصيون في صناعة القماش وإتقانه وكان يباع بإفريقية كلها وبأثمان باهضة بالإضافة لبيع الصوف والعمائم المصنوعة من الكتان والسوق المختص في بيع الثياب القديمة³.

بالإضافة إلى أسواق قابس التي تتميز بإتساعها وأهمها السوق المخصص لبيع الحرير والأقمشة⁴.

¹ - مريم عبد الله جبوذه: المرجع السابق، ص106.

² - نفسه، ص176.

³ - ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى (849هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2010، ج1، ص465/ عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، تح: محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتي، دار سراسر للنشر، تونس، 1981، ص68.

⁴ - كريم عاتي الخراعي: المرجع السابق، ص33.

وكذلك الأسواق الإستهلاكية كسوق الفاكهيين وبيع فيه الفواكه والخضر والجزارين والصباعين والنجارين والحدادين والصناع والنساجين حيث كان مقصد من كل بلاد وعرف روجا كبيرا¹.

وقد كان في تونس أكثر من سبعمائة حانوت عطار، كما يتم في هذه السوق صناعة أربعة آلاف قفيز² من القمح وغيرها من البضائع والسلع التي كانت تعرض في هذا النوع من الأسواق الدائمة وفي مختلف المدن الحفصية كصفاقس³.

ويبدو أنه من بين هذه الأسواق من يظل مفتوحا لساعات متأخرة من النهار⁴.

والى جانب الأسواق الدائمة أو اليومية التي عرفت السلطة الحفصية فقد كان هناك نوعا آخر من الأسواق وهي:

2-الأسواق الأسبوعية: ومن بين هذه الأسواق ما يعقد بالقرب من المدن وفي القرى خاصة منها أسواق الحيوانات وما يعرف بالرحبة⁵.

فكان يخصص لها يوما معينا لإقامة هذه الأسواق كسوق الخميس والإثنين ببجاية، وكانت تعقد بمدينة تونس ثلاثة أسواق وفي أماكن مختلفة فيتوافد عليها التجار والبدو من كل النواحي، وقد عرفت أيضا مدينة قسنطينة سوقا أسبوعيا في أيام مختلفة وكان يقصده التجار من مختلف الأثناء كمصر والسودان والمغرب وغيرهم⁶.

كما كانت هذه الأسواق يراعي فيها سهولة التمويل وتحترم فيها متطلبات حفظ الصحة والنظام العمراني⁷.

¹ - الإدريسي، المصدر السابق، ص 277، 279، 278.

² - قفيز: وهو وحدة كيل تساوي ستة عشر وبيبة، وكل وبيبة إثني عشر مدا قرويا ويساوي ثمانية أمداد، بالكيل الحفصي، وخلال القرن 13م أصبح مقداره يساوي الوسق الشرعي أي 175.92 لترا. العمري: المصدر السابق ج4، ص 87. القلقشندي:

المصدر السابق، ج5، ص 114/روبار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص262

³ - الخزاغي: المرجع السابق، ص 32

⁴ - مريم عبد الله جبوذه: المرجع السابق، ص 182

⁵ - المقديسي: المصدر السابق، ص 224-226

⁶ - نفسه، ص 226

⁷ - مريم عبد الله جبوذه، المرجع السابق، ص 179

وقد عرفت أيضا جزيرة جربة سوقا أسبوعيا يزخر بمختلف البضائع ويحتشد فيه جميع سكان الجزيرة وكذلك عدد كبير من الأعراب الوافدين من اليايسة حاملين مختلف البضائع والماشية.¹

وقد عرف الحفصيون نوعا آخر من الأسواق وهي:

3- **الأسواق السنوية:** وكان هذا السوق بمثابة المعرض التجاري الذي يعرض فيه مختلف أنواع السلع والبضائع، حيث كان يقصده التجار من مختلف المناطق ليقتنوا منه ما يلزمهم، وقد خصصت دور للضيافة تقدم فيها الطعام مجانا طيلة مدة إقامتهم.²

وقد عرف المماليك هذا النوع من الأسواق أيضا تبعا للسلع التي كانت تباع فيها وتميزت بأسواقها الشاملة،³ ومن بين هذه الأسواق:

1/ **الأسواق الدائمة:** وقد عرفت هذه الأسواق في العصر المملوكي نوعا في التخصص في البضائع التي تباع فيها وذلك وفقا للحاجات الاجتماعية، كأسواق المواد الغذائية التي تنتشر في جميع أنحاء البلاد مثل سوق باب الفتوح الذي يباع فيه الخضروات والضأن والبقر، وسوق حارة يرجون الذي تباع فيه اللحوم والجبن واللبن والقطر، وسوق الدجاجين وتباع فيه مختلف أنواع الطيور للزينة والدواجن.⁴

بالإضافة إلى السوق المركزي بالقاهرة ويسمى بدار الفاكهة أو دار التفاح، وكانت توضع في هذه السوق مختلف أنواع الفاكهة، وسوق الحلويين وقد أخذ اسمه مما يباع فيه، وسوق الصناديق وكانت تباع فيه الصناديق والخزائن وغيرها من المصنوعات الخشبية وكذلك سوق الخلعين أو الثياب، أو سوق العنبريين وقد أنشأ المنصور قلاوون⁵

2/ **الأسواق الأسبوعية:** ومن بين الأسواق الأسبوعية التي عرفت مصر سوق الدجاجين بالقاهرة، حيث كان الناس يتوجهون إليه كل يوم جمعة، وتعرض فيه أعداد كبيرة من الدواجن

¹-حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص94

²-روبار برنشيوك، المرجع السابق، ج1، ص336-337

³-المقريزي: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص342

⁴-ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ص329

⁵-الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص34

وتباع فيه أيضا العصافير الملونة وغيرها من الطيور المغردة، ويقوم الناس بشراء هذه العصافير لأطفالهم لكي يطلقونها حبا لعمل الخير ولإعتقادهم أن هذه العصافير تسبح بحمد الله¹.

بالإضافة إلى سوق يوم الإثنين والخميس، الذي كان يخصص لبيع الجواري والعبيد².

3/ الأسواق الموسمية أو السنوية: أما بالنسبة للأسواق الموسمية التي عرفت في مصر في العهد المملوكي، فقد ارتبطت بمواسم معينة مثل سوق الحلويين الذي كان يعرف نشاطا كبيرا خاصة في بعض المناسبات والأعياد المرتبطة بعادات وتقاليد المجتمع المملوكي، فكانت تصنع الحلوى على شكل حيوانات كالقطط والسباع وغيرها من أشكال الحيوانات الأخرى، وكانت تعرف هذه الأشكال بالعلاليق لأنها تعلق بالخيط على أبواب الحوانيت، ويتراوح وزنها ما بين ربع رطل إلى عشرة أرطال³. ويزدهر هذا السوق أيضا في مواسم أول رجب، ونصف شعبان، وعيد الفطر⁴.

كما كان سوق الشماعين يزدهر خاصة في شهر رمضان وعيد الغطاس⁵، وتباع فيه مختلف أنواع الشموع الموكبية والفوانيس، ويصل وزن هذه الشموع أحيانا من عشرة أرطال إلى قنطار⁶ ويستمر عمل هذه الأسواق إلى منتصف الليل⁷.

¹ -قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص233

² - ابن دقماق: المصدر السابق، ج1، ص34.

³ -الرطل: ويلفظ أيضا رطل بكسر الراء ضمها، وعند الأوربيين في العصور الوسطى روتولو rotole وما شاكل ذلك، وباليونانية لترون litron، وهو أكثر وحدات الوزن إستعمالا في الشرق العربي ويساوي 12 أوقية. قالتر هنتس: المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط2، الأردن، 2001م، ص36

⁴ - قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص233.

⁵ - الغطاس: وهو عيد يحتفل به بمناسبة تعميد المسيح في نهر الأردن، في الحادي عشر من طوية، السادس جانفي وتشعل فيه الشموع ويخرج فيه المصريين إلى النيل من المسلمين والنصارى ويركبون النيل، ويعملون على إظهار المأكّل والمشارب وآلات الذهب والفضة. المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص494.

⁶ - القنطار: والقنطار هو وحدة للوزن أيضا، ويساوي القنطار الواحد 100 رطل وإذا أطلق إسم القنطار على كمية كبيرة من الذهب فيكون حينئذ 10.000 دينار ويساوي 42.33 كلغ ذهب، قالترهنتس: المرجع السابق، ص40. روبرار برتشفيك، المرجع السابق، ص261.

⁷ - المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص494.

المبحث الثالث: وسائل التعامل التجاري

إن التقارب الكبير في الخطط والنظم الاقتصادية المتبعة من طرف المماليك والحفصيين، وتعدد المبادلات التجارية بين الدولتين وإزدهارها في الكثير من الأوقات، فإن ذلك أدى إلى توطيد العلاقات بين الطرفين خاصة في المجال الاقتصادي.

إلا أن هذه المبادلات والمعاملات التجارية بين الدولتين، كان لابد لها أن تخضع لمعايير ووسائل محددة يتم من خلالها ضبط أحجام وأوزان ومكاييل مختلف السلع والبضائع، وكذا تحديد قيمتها ووضع سعر معين لها.

وتعد هذه الوسائل عنصرا مهما وفعالا في عملية البيع والشراء وكسب المصداقية في هذه المعاملات التجارية، كما أن هذه الوسائل من شأنها التأثير على حركية الأسواق والمبادلات بين الطرفين خاصة إذا إختلت أو تمايزت بشكل كبير.

ولعل من الضروري قبل التطرق إلى هذا العنصر المهم في مجال التجارة والأسواق، لابد من الإشارة إلى فئة معينة من التجار الذين لعبوا دورا هاما في تنشيط وتنسيق عمليات البيع والشراء وهم الصيارفة.

فقد عرفت الأسواق المملوكية وكذلك الحفصية نظام الصيارفة الذين كانوا يقومون باستبدال العملات وتغييرها لرواد الأسواق، وكانت لهم حوانيت على أبواب الأسواق يجلسون بها طيلة النهار لممارسة أعمالهم¹.

ويصف ناصر خسرو أن أسواق مصر بقوله: " كانت دكاكين البزازين والحرفيين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة"².

كما عرفت الأسواق الحفصية هؤلاء التجار الذين كانوا يعملون على إستبدال العملة أو يقومون باقتراض المال للتجار مقابل الفائض³.

¹- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص 227.

²- المصدر السابق، ص 121.

³- محمد حسن: المرجع السابق، ج2، ص 509.

كما كانت الأسواق المصرية تعرف إزدحاما كبيرا من النساء اللاتي يخرجن إلى الأسواق خاصة في عيد خميس العهد¹ وذلك لشراء البخور والخواتم والحلي وغيرها من لوازم الإحتفال بهذا العيد على الرغم أنه عيدا مسيحيا.²

وما يمكن الوقوف عليه من خلال هذه المعطيات التاريخية، وتنوع الأسواق والخطط الإقتصادية المتبعة من طرف المماليك والحفصيين، يتضح لنا بوضوح وجود علاقة تأثر وتأثير الطرفين وذلك من خلال تطبيقهم لنظم متشابهة أن لم نقل واحدة.

ويعود هذا التشابه والتطابق في النظم نتيجة الإحتكاك والتواصل المستمر للمعاملات التجارية بين الطرفين، كما أن تواجد هذه النظم في كلا البلدين من الطبيعي أن يخضع لما تفرضه الحاجات الإجتماعية، خاصة إذا تعلق الأمر بالأسواق الدائمة وما تلعبه من دور في تنشيط الحركة التجارية سواء بالداخل أو الخارج، حيث أن هذه الأسواق والمنشآت التابعة لها توفر لمختلف التجار الذين لا ترتبط تجارتهم بأوقات معينة، وإمكانية ممارسة أعمالهم دون عوائق خاصة إذا إرتبط الأمر بتلك المؤسسات الملحقة بالأسواق كالفنادق والقيساريات والوكالات وذلك من خلال ما تقدمه من خدمات كالمبيت وحفظ سلعهم في المخازن التي تحتوي عليها هذه المنشآت، بالإضافة إلى القيام بعمليات البيع والشراء وعقد الصفقات التجارية.

أما بالنسبة للأسواق الأسبوعية فيتضح من خلال هذا النوع من الأسواق، أن ما يعرض فيها من سلع وبضائع لا يعدو من الحاجات اليومية والضرورية التي يعتمد عليها الإنسان في حياته، كما أن هذا التوقيت يمكن القوافل التجارية الآتية من بعيد من الحضور أو الوصول إلى هذه الأسواق في الوقت المناسب، والملاحظ أيضا أنه من الضروري أن تكون هذه القوافل تحمل البضائع الغير قابلة للفساد.

¹-خميس العهد: ويسمى أيضا الخميس المقدس أو خميس الأسرار، ويسبق عيد الفصح بثلاثة أيام، وهو ذكرى العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه حيث ترك لهم الوصية وقد جرت العادة في هذا العيد ضرب خمسمائة دينار ذهبا، عشرة آلاف خروبة تفرق على جميع أرباب الرسوم خاصة في العهد الفاطمي بمصر. المقريزي: الخطط، المصدر السابق، ج2، ص495.

²-قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، المرجع السابق، ص232

وما يستنتج من خلال عمل هؤلاء الصرافين أنهم قد لعبوا دورا بالغ الأهمية في تسهيل المعاملات التجارية في الأسواق سواء تعلق الأمر بتلك المعاملات الداخلية أو الخارجية، وذلك من خلال ما يوفره من أنواع العملات المتداولة أُنذاك لدى الحفصيين وكذلك الممالك.

ونظرا لما تكتسبه العملة أو النقد في مختلف مناحي الحياة بصفة عامة والنشاط الإقتصادي بصفة خاصة، فهي المحرك الأساسي في الأسواق وعمليات البيع والشراء لذلك إرتأينا التطرق لهذا العنصر المهم في مجال المبادلات التجارية.

النقود أو المسكوكات:¹

وهناك العديد من الآراء حول مفهوم السكة فهناك من يرى أنها تلك القطع المعدنية على اختلاف أنواعها وأوزانها ومعادنها حيث يتم التعامل بها في مختلف المجالات المالية والتجارية.²

وقد عرف المصريين التعامل بالدينار الذهبي قبل الفتح الإسلامي بالإضافة إلى نقود من معادن أخرى كالفضة والنحاس.³

وعندما نقل الظاهر بيبرس مركز الخلافة لعباسية بمصر⁴، ضرب السكة ونقش إسم الخليفة العباسي على العملة الذهبية والفضية وأضاف عبارة قسيم أمير المؤمنين، ولم تعرف العملة المملوكية الثبات على عيار أو حجم أو وزن واحد وهو ما أدى إلى كثرة التعامل بالعملة الأجنبية خاصة منها الدوكان وهي عملة البندقية.⁵

1-السكة: سكة الدينار والدرهم المصروبين وسمي كل واحد منها سكة لأنه طبع بالحديد المعلمة له ويقال له السك، والسكة بالكسر حديدة منقوشة يضرب عليها الدراهم والسكي الدينار. ابن منظور: المصدر السابق، ج3، ص2051. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي (817هـ): القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط1، 1426هـ، 2005م، ص943.

2-حسين القزويني: العملة الإسلامية، شركة الربيعان، ط1، الكويت، 1945، ص19.

3- القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص441.

4- أحمد مختار العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، د ط، بيروت، 1995، ص167.

5- الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 61.

ولعل السبب في ذلك يعود إلى كثرة المعاملات التجارية مع البنادقة أو لدقة سك هذا النوع من النقود الذهبية من حيث الشكل وكذلك الوزن حيث تن 3،45 غ وهو ما يسهل التعامل بها بين التجار¹.

والملاحظ أن العملة كانت تخضع لعدة معايير، منها المعدن النقي أي الذهب والدقة في الوزن وكذلك الشكل المنتظم، وهذه المعايير هي التي تتحكم في صلاحيتها واستمراريتها في الأسواق والثقة في التعامل بها سواء في الداخل أو الخارج.

وقد تعرضت العملة المملوكية في الكثير من الفترات للغش والتزوير مما اضطرت سلطين المماليك لإعادة ضرب السكة، محاولين بذلك إعادة الثقة للنقد المملوكي، ففي سنة 803هـ/1400م ضربت الدنانير من الذهب محررة الوزن 4،25 غ وإبطال العملة الإفرنجية، إلا أنها عرفت نقص في الوزن وهو الأمر الذي أدى إلى إعادة ضرب عملة أخرى سنة 810هـ/1407م².

لكن العملة المملوكية قد ظلت في تغير مستمر ولم تعرف الإستقرار ولم يقبل الصيارفة التعامل بها وصرفها دون وزن وانحطت قيمتها وتم تغييرها في العديد من المرات³.

وقد عرف المماليك التعامل بعملات من فضة ونحاس إلى جانب الدينار الذهبي كما استخدمت دراهم النقرة⁴، غير أنه في عصر المماليك الجراكسة تميز باختفاء الدراهم أو النقود الفضية، وضربت بكثرة الفلوس " النقود النحاسية"⁵، بالإضافة إلى الدوكات الإفرنجية⁶.

¹ - الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 72.

² - ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ص 606.

³ - محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (1031هـ): النقود والمكاييل والموازين، تح: رجاء محمود السامرائي، دار رشيد للنشر، د ط، العراق، 1981م، ص123.

⁴ - النقرة: وهي أحد أنواع الدراهم بمصر ويكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس وتطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية، ووزنها بالدرهم أربعة وعشرين قيراطا وست عشر حبة من الخروب. القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص 443.

⁵ - محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 72-75.

⁶ - الإفرنجية: جمع إفرنجي وأصله إفرنجي، وهي من العملات المتداولة في مصر نسبة إلى مدينة من مدن الفرنجة إسمها إفرنجية، وربما قيل إفرنجية ويعبر عنها بالدوكات وهذا الإسم يطلق على العملة إذا كانت من ضرب البنادقة من الفرنجة وذلك لأن الملك عندهم يسمى دوك. القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص 441.

وشهد العصر المملوكي التعامل أيضا بالدرهم الكامل¹، الذي كانت قيمته ثمانية وأربعين فلسا ويقسم الفلوس إلى أربعة قطع، وكل قطعة مقام الفليس، وضربت فلوس أخرى، وكل فلس يزن مثقالا والدرهم أربعة وعشرين فلسا، وقد راجت الفلوس في عهد الظاهر برفوق وقلت الفلوس الفضية، وأصبح الذهب كل مثقال منه بخمسين من الفلوس، والفضة كل زنة درهم بخمسة دراهم من الفلوس، وكان كل درهم منها يعد أربعة وعشرين فلسا، وبلغ المثقال من الذهب بنجر الإسكندرية ثلاثمائة درهم من الفلوس².

وإنقسمت أجزاء العملة المملوكية إلى ثلاثة أصناف، وهي الهرجة والدارجة والناصرية، والهرجة هي عملة مستديرة الشكل وتستهمل أيضا في صناعة الحلبي كالأساور والعقود³.

ويتضح أن العملة المملوكية لم تعرف الثبات ويرجع ذلك للعديد من الأسباب منها ما كان يتعلق بما تتعرض له من غش وتزيف، بالإضافة إلى سياسة بعض الملوك دون أن ننسى ما كانت تتعرض له مصر من كوارث طبيعية كفيضان النيل أو جفافه، وما يصاحب ذلك من حالات الأمراض والوباء، مما يؤثر ذلك سلبا على الأوضاع الاقتصادية⁴.

وفي المقابل نجد أن الحفصيين قد حافظوا على الدينار الموحد الذهبي في معاملاتهم، ويزن أربعة وعشرون قيراطا⁵، أي ما يعادل " دوكة " وثلاثا وهي المتعامل بها في أوروبا⁶، وقد حدد الدينار الحفصي أيضا ب 4,72 غ من الذهب ووصف أنه من العملات الإسلامية الجيدة الصنع والمرتفعة العيار⁷.

¹ - الدرهم الكامل: ضرب في عهد السلطان الكامل 622هـ/1225م وهو مستدير أطلق عليه إسم الكاملة وثلاثها فضة والثالث الآخر نحاس. المقرئزي (845هـ): إغاثة الأمة يكشف الغمة، تح: كرم حلمي فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1427هـ-2007م، ص 62.

² - نفسه، ص 144، 146.

³ - رشيدة بالسرور: المرجع السابق، ص 190.

⁴ - إين إياس: المصدر السابق، ج1، ص555. / المقرئزي، السلوك، المصدر السابق، ج2، ص261.

⁵ - القراط: وهو وحدة الكيل والقيراط ثلاث حبات والحنة أربع أرزات، والأرزة خردلتان من الخردل البري. والقيراط مكيال في مصر يساوي 32/1 من القدرح أو 0.064 لتر. محمد عبد الرؤوف بن تاج: المصدر السابق، ص 46، قالترهنتس، المرجع السابق، ص68.

⁶ - حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص81.

⁷ - رويار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص73، 74.

في حيث جاء عن القلقشندي في حديثه عن العملة الحفصية " أما الدنانير فإنها تضرب بإسم ملكهم، وزنة كل دينار من دنانيرهم... ويعبرون عنه بالدينار الكبير، وذهبهم دون الذهب المصري في الجودة فهو ينقص عنه في السعر"¹.

لكن هناك من يرى عكس ذلك، فالعملة الحفصية ثابتة وسلمية في أغلب أوقاتها وتنقسم إلى أجزاء ومنها نصف الدينار، وربع الدينار، وقد شهدت أيضا الأسواق الحفصية نوعية من الدراهم أحدها يسمى بالقديم والأخر بالجديد ووزنها واحد، ولكن النقد الجديد خالص، والنقد القديم مغشوشا بالنحاس تسهيلا للمعاملة في البيع والشراء وهناك تفاوت بينهم حيث أن كل عشرة دراهم عتق تساوي ثمانية دراهم جدد².

والدرهم الحفصي من الفضة وهو مربع الشكل ويساوي ثلاثون أو اثنان وثلاثون منها دينارا واحد ويزن الدرهم 1,5 غ وكان بعضها مجزأ إلى خمسة أسداس إلى الخروية وهي أربعة أسداس، وإلى نصف ناصري، وقفصي وهو القيراط ويساوي سدس الدرهم³.

كما استحدثت الحفصيين النقود النحاسية سنة 660-661هـ/1262-1263م وأطلق عليها إسم " الحندوس" وذلك تسهيلا للناس في معاملاتهم وتقليدا للفلوس في المشرق، لكن سرعان ما تعرضت هذه الفلوس للفساد فتم قطعها سنة 661هـ/1262م⁴.

وقد خضع النقد الحفصي كنظيره المملوكي لنظام الوزن فالوحدة العادية للوزن عند الحفصيين تتمثل في الأوقية البالغ وزنها 31,48 غ وهي محددة من طرف الخليفة العباسي منذ القرن الثامن للميلادي، أما بالنسبة للحفصيين يستعملون وحدة أصغر في الوزن وهي المثقال البالغ وزنه 4,72 غ ويرجع ذلك للعصر الموحيدي، أما الأوقية تضم ستة دنانير وثلاثي الدينار وغيرها من الأجزاء التي عرفها الدينار والحفصي⁵.

¹ - القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص114.

² - صالح فياض أبو دياك: النظام المالي عند الحفصيين، مجلة دراسات تاريخية، العدد 21-22، جامعة دمشق، 1986، ص87-114.

³ - الونشريسي: المصدر السابق، ج3، ص281.

⁴ - إبن الشماخ: المصدر السابق، ص67. صالح أبو دياك: المرجع السابق، ص121.

⁵ - رويار برنشفيك: المصدر السابق، ج2، ص160.

وما يستنتج من خلال التطرق لنظام النقد المملوكي والحفصي هو وجود تقاربا كبيرا بين العملتين سواء من ناحية الوزن أو المعدن المستعمل في سك هذه العملة، مما يسهل عملية الشراء والبيع بين التجار، دون وجود تمايز كبير في أسعار السلع والمنتجات المتبادلة.

ويمكن أن يكون ذلك عاملا مهما لتسهيل وإزدهار المبادلات والمعاملات التجارية دون عوائق قد تؤثر سلبا على ذلك، فقد يكون لقيمة العملة والفارق في معدنها ووزنها الأثر البالغ في مستوى النشاط الإقتصادي بين الجانبين.

ويقارب القلقشندي¹ في الأسعار بين المغرب ومصر وذلك للتجاور بينهم حيث أن أسعار بعض السلع ببلاد المغرب أرخص من مثيلاتها في مصر والشام.

ومن أجل توضيح التقارب بين العملتين المملوكية والحفصية قمنا بإعداد الجدول التالي:

المالِك ³		الحفصيين ²		العملة
الوزن بالغم	المعدن	الوزن بالغم	المعدن	
3.37 غ-	ذهب	4.50 غ-	ذهب	الدينار
4.25 غ		4.72 غ		
0.81 غ-	فضة	1.5 غ	فضة	الدرهم
2.97 غ				
جزء من عشرين	-	0.75 غ	فضة	القراط

¹-المصدر السابق، ج5، ص115

²- إبن الشماع: المصدر السابق، ص67. حسن الوزان: المصدر السابق، ج1، ص81. القلقشندي: المصدر السابق، ج5، ص114. رويار برشفيك، ج2، ص73. كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص78. محمد بن ساعو: المرجع السابق، ص44. كربوع مسعود: المرجع السابق، ص90.

³- المقرئزي: إغاثة الأمة، المصدر السابق، ص122، القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص440، بن تاج: المصدر السابق، ص47، الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص81، 82، رأفت محمد النبراوي، النقود الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، ط2، القاهرة، 1996، ص263، 302، مروان عاطف الضلاعين، السلع التجارية في الأسواق المصرية في دولة المماليك البحرية (648هـ-784هـ/1250م-1382م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، م6، العدد 2، الأردن، 2012م، ص87.

من المتقال		32-30 قيراط 1= دينار		
50-12-10 درهما	ذهب	6 دنانير وثلاثي الدينار	ذهب	الأوقية
4.25 غ	-	4.72 غ	-	المتقال
2.97 غ- 4.85 غ	نحاس	-	نحاس	الفلوس

جدول رقم 1: العملة المملوكية والحفصية

والملاحظ من خلال الجدول أعلاه أن العملة الحفصية وكذلك المملوكية لم تختلف خاصة في نوع المعدن، الذي يضرب به الدينار وأجزائه حيث كان الدينار الحفصي والمملوكي يضرب من الذهب الخالص، أما بالنسبة للدرهم فيضرب من الفضة أيضا الخالصة، وكذلك فالأوقية كانت تضرب من ذهب في حين فقد كانت الفلوس تضرب من نحاس.

أما بالنسبة للوزن فلم تكن هناك فروقا واسعة قد تعيق المبادلات التجارية بين الدولتين.

كما لا يمكن إغفال بعض المؤثرات السلبية التي كانت تخضع لها العملة في كلا البلدين طيلة القرن 7 هـ. 8 هـ. 9 هـ. فلم تعرف العملة نوعا من الاستقرار الدائم، حيث جرت العادة عند تولي أحد السلاطين الحكم يعمل على تغيير العملة وضربها بإسمه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت العملة تخضع للظروف الإقتصادية التي تمر بها البلاد، ففي حالة الأزمات يعمل السلاطين على ضرب عملة أقل قيمة من سابقتها سواء في نوع المعدن كالذهب والفضة، أو في الوزن كما يقومون في بعض الأحيان إلى مزج المعادن ببعضها البعض وبالتالي تكون العملة الجديدة أقل قيمة من العملة القديمة.

بالإضافة إلى اللجوء لإستعمال بعض المعادن الأقل قيمة من الذهب والفضة كالنحاس لضرب النقود، وهو الحال كذلك لدى الحفصيين الذين تعاملوا بالفلوس التي كانت تضرب من معدن النحاس، وذلك لتسهيل المعاملات بين الناس ومحاكات للماليك.

وقد تعرضت العملة أيضا لظواهر أخرى كالغش والزيغ سواء عند الحفصيين أو المماليك خاصة إذا تعلق الأمر بنوع المعدن، حيث كان يتم مزجه بمعادن أقل قيمة من معدن العملة الأصلية، أو يتم الغش في وزنها وذلك طمعا في الربح، فتكون أقل من سابقتها مما يؤدي إلى اضطراب العملة وعدم إستقرارها، مما يضطر السلاطين لإعادة ضرب عملة جديدة وإلغاء سابقتها في الكثير من المرات.

وعلى الرغم من أن العملة الحفصية قد عرفت نوعا من الإستقرار مقارنة بالعملة المملوكية، إلا أنها لم تكن بعيدة عن هذه التأثيرات السلبية كالأزمات وظاهرة الغش والزيغ، مما أدى إلى تغييرها في العديد من المرات أيضا.

إلا أن هذه الأوضاع التي كانت تمر بها العملة في كل من الدولتين لم تكن بحاجز أمام تواصل المبادلات التجارية بين الطرفين وخير دليل على ذلك، وجود سوقة للمغاربة في مصر حيث كانوا يمارسون نشاطاتهم التجارية.

بالإضافة إلى تعرض العديد من المصادر لذكر مختلف المنتجات الحفصية التي كانت تروج في الأسواق المملوكية، وكذلك حركة السفن والقوافل التجارية التي كانت في تواصل مستمر.

ودون شك فإن العملة لم تشكل عائق في المبادلات التجارية بين الطرفين، بل إن الحفصيين قاموا بضرب الفلوس النحاسية ما يعرف " بالحدوس " ولعل ذلك إن دل على شيء فإنه يدل على ذلك التواصل في المعاملات المالية والتجارية، والرغبة في التقارب أو توحيد العملة لتذليل جميع العقبات في مجال البيع والشراء.

الصكوك¹: أو الصك، فقد عرف العرب التعامل بهذه الوسيلة منذ عهد عمر بن الخطاب حيث كانت الرواتب تدفع بالصكوك أحيانا، كما كانت تصرف أحيانا على بيت المال أو على التجار والصرافين الذين كانوا يتقاضون عملة نظير ذلك تبلغ درهما عن كل دينار ويتم توقيعه بحضور

¹ - الصكوك: أو الصك الكتاب، لفظ فارسي معرب وجمعه أصك وصكوك وصكاك، وقال أبو منصور الصك الذي يكتب للعهد وكانت الأوراق تسمى صكاك لأنها كانت تخرج مكتوبة وقد نهي عن شراء الصكاك وفي حديث أبي هريرة قال: لمروان أخلت ببيع الصكاك، وهي جمع صك، وهو الكتاب وذلك لأن الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم وأعطياتهم كتب فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلا. ابن منظور: المصدر السابق، ج28، ص 475.

شاهدان ثم يختم أسفله¹، وقد ورد أيضا أن العباسيين كانوا يتعاملون بالصكوك في عهد الرشيد².

ولم تقتصر هذه الطريقة في المعاملات المالية على المشرق فحسب بل كان المغاربة أيضا يتعاملون بالصكوك خاصة مع التجار الأجانب³.

كما عرف المصريون هذا النوع من المعاملات بحيث يذكر أنه كان يوجد في وسط سوق بمصر، جامع يسمى باب الجوامع، وقد شيده عمرو بن العاص وبيقيم به المدرسون والمقرئون ولا يقل عددهم عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود، وبالإضافة إلى الصكوك فقد تعامل المصريون والحفصيين بنوع آخر من المعاملات وهي⁴:

السفاتج أو الحوالات⁵: حيث لعب الصرافون دورا مهما في هذا النوع من المعاملات المالية بين المسافرين والتجار من منطقة إلى أخرى أو من بلد إلى بلد آخر.

حيث كانوا يكتبون بقيمة المبالغ التي يأخذها منهم التجار قابلة للصرف في أي بلد آخر من قيمة إحدى عملاتهم ثم يشترون ما يلزمهم ويحولون ثمنه عليهم⁶.

وكان هذا النوع من المعاملات سائدا طيلة العصور الوسطى، إلا أن هناك بعض الفقهاء قد عارضوا هذه المعاملة واشتروا حضور الأطراف الثلاثة في هذه العملية لأنه بيع دينار بدرهم، وقد عرف كذلك الحفصيين والمماليك نوعا آخر من المعاملات المالية وهي: الوكالة التجارية

¹ - الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص77.

² - الجهشياري: أبي عبد الله محمد بن عبدوس:، كتاب الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، القاهرة، 1357-1938م، ص196.

³ - إين حوقل: المصدر السابق، ص169.

⁴ - ناصر خسرو: المصدر السابق، ص117.

⁵ - السفاتج: جمع سفتجة وهي كلمة فارسية معربة ومعناها ورق مالية أو خطاب ضمان وتعني أيضا تسليف المسافر إلى بلاد ثانية ماله لآخر على أن يأخذه من وكيله الموجود في البلاد المسافر إليها. الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص78، محمد حسن: المرجع السابق، ص525.

⁶ - الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص78.

وذلك من خلال إرسال التاجر إلى وكيله المقيم بالخارج أو ببلاد أخرى لشراء مختلف السلع والبضائع وإرسالها له فيرسل الوكيل المطلوب منه¹.

وفي هذا الشأن يذكر العبدري:² في رحلته إلى بلاد المشرق، أن تاجرا من بلاد السوس كان يتعامل مع وكيل له في العراق حيث يشتري له الحرير ويرسله إليه.

بالإضافة إلى ذلك إعتد التجار على أسلوب الشراكة أو القراض حيث يقوم التاجر بإقتراض المال والسفر به إلى المشرق للمتاجرة به وجلب البضائع والسلع إلى بلاد المغرب³.

المقايضة: وتعتمد هذه الطريقة على مبادلة الأشياء بأشياء أخرى، وغالبا ما تتم في الأسواق الكبيرة والبعيدة كسوق قسنطينة الذي كان يفد عليه الكثير من القوافل التجارية الآتية من الدول المجاورة⁴.

كما كانت المقايضة في الأسواق الداخلية الحفصية وتتم خاصة في المبادلات التجارية بين المدينة والبادية وتتعلق بالحالتين بالإضافة إلى الزيت والقمح والشعير⁵.

وفي المقابل فقد كان المماليك في عهد الظاهر بوقوق يعرفون إختلالا في العملة ونقص في أهميتها، وذلك لأن جزء كبيرا من العملة يحتوي على النحاس الأحمر مما أضر بمصالح الناس⁶.

وهو ما حدث أيضا في عهد الناصر محمد (738هـ/1338م) حيث سكت بالإسكندرية وغيرها من المدن المصرية وقد خلطت بمعادن رخيصة الثمن وذات قيمة منخفضة لذلك فضل الناس التعامل بالفضة رغم تعميم إستعمال الفلوس التي لم تكن محل ثقة فاختراروا المقايضة كوسيلة

¹ - محمد حسن: المرجع السابق، ص 525.

² - العبدري: المصدر السابق، ص 67, 68.

³ - البرزلي: المصدر السابق، ج 3، ص 455، 456.

⁴ - حسن الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 54.

⁵ - الونشريسي: المصدر السابق، ج 5، ص 236-241، محمد حسن: المرجع السابق، ص 529.

⁶ - المقرئزي: إغائة الأمة، المصدر السابق، ص 154.

تتجهم من التعامل بها وشملت المقايضة العمليات التجارية البسيطة، ولم تقتصر المقايضة على التجار المصريين بل عمت على نطاق واسع¹.

ونظرا للموقع الإستراتيجي الذي كانت تحتله إفريقيا وذلك في تحويل مختلف المنتجات من الجنوب والغرب نحو المشرق، بالإضافة إلى ما شهدته جزيرة جربة وطرابلس الغرب من المبادلات التجارية مع مصر من منسوجات صوفية وأكسية وأغطية وغيرها².

وقد عرفت الحركة التجارية بين الحفصيين والمماليك الإنتعاش في العديد من الفترات، حيث كان المماليك يستوردون الخيول والزيوت، ويصدرون بدورهم المنسوجات الحريرية والكتانية إلى إفريقيا³.

ونظرا لزخم المبادلات التجارية بين الطرفين فلا يستبعد أن المماليك قد تعاملوا بالمقايضة أيضا في الأسواق الحفصية، بالإضافة إلى أن هذا النوع من المعاملات كان شائعا خلال العصور الوسطى، كما لا يمكن إغفال جانبا مهما وله إرتباط وثيقا بالمعاملات التجارية والأسواق وهي:

الأوزان والمكاييل والمقاييس: وكما سبق الذكر أن الدرهم يمثل القاعدة الأساسية في تقدير الأوزان والمكاييل ويختلف درهم الكيل في عياره عن درهم الوزن⁴، والدرهم المصري المعتبر في الوزن يساوي 3،125 غ، وقد عرف المماليك عدة وحدات للوزن كالرطل والأوقية والقنطار وأوزان أخرى⁵.

الرطل: يعتبر من بين الأوزان الشائعة في الأسواق المملوكية والأوقية جزءا منه وتساوي 1/2 كلف ويبدو أن الأوزان هي بدورها لم تكن ثابتة في الأقاليم المملوكية، فقد اختلف وزن الرطل بين

¹ - رشيدة بالسورور: المرجع السابق، ص 189.

² - حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص94.

³ - سعيد عبد الفتاح عاشور: عصر المماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1965م، ص240،

محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص404.

⁴ - عبد الرؤوف بن تاج: المصدر السابق، ص35.

⁵ - الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص81.

مصر والقاهرة ودمياط، وإعتمد الرطل المصري في القاهرة وما يجاورها وكان وزنه مائة وأربعة وأربعون درهما وأوقيته اثنا عشر درهما¹.

بالإضافة إلى ذلك نجد أن المصريين إعتمدوا على الأوزان الزجاجية لوزن النقود الفضية والذهبية وذلك لنظافته ودقة وزنه².

القنطار: كان عدد الأرتال بالقنطار متفق عليه في هذه الوحدة وذلك بحسب وزن الرطل في كل منطقة ويقدر القنطار المصري بحوالي 45 كلغ³.

الحملة: وتستعمل هذه الوحدة لوزن الحطب ووزنها بالرطل القاهري مائة وعشرة أرتال، أما بالرطل المصري وزنها 49,5 كلغ، وتستخدم أيضا لوزن الدقيق⁴.

كما نجد أوزان أخرى **كالبيعة** وتستخدم لوزن الشعير وتختلف من منطقة إلى أخرى ووزنها بالرطل المصري 4,5 كلغ، وبالإضافة إلى ذلك فإن المماليك إستخدموا الأردب وتتكون من 6 ويا صغيرا، والويبة 8 أقداح كبيرة، أو 16 قدحا صغيرا، أي أن الأردب وزنه 96 قدحا وفي المقابل فقد إعتمد الحفصيين في مبادلاتهم التجارية على الأوزان والمكايل ومنها⁵:

الرطل: فقد تعددت أوزانه عند الحفصيين فمنه الرطل العطارى ويزن ستة عشر أوقية أي 504 غ، ويستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة، بالإضافة إلى الرطل السوقي ويستعمل لوزن المواد الغذائية ومختلف المعاملات خاصة مع الخارج، وقد كان القنطار يساوي مائة رطل ذات ست عشر أوقية ولكن المعمول به خلال وزن الفواكه الجافة والأقمشة تقتضي تسليم من 102-110 رطلا للقنطار الواحد⁶.

¹ - الفلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص470، 471.

² - الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص81.

³ - نفسه، ص82.

⁴ - المقرئزي: السلوك، المصدر السابق، ج3، ص220. الفلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص528.

⁵ - مروان عاطف الضلاحي: المرجع السابق، ص87.

⁶ - رويار برنشفيك، المرجع السابق، ج2، ص261.

القنطار: ويختلف القنطار عند الحفصيين من منطقة إلى أخرى ومن سلعة لأخرى، وكان وزنه الشرعي مائة رطل كما إستعملت وحدات أوزان أخرى مثل: الوسق وهو قدر القفيز التونسي بالإضافة إلى الصاع، وهو أربعة أمداد وكل مد رطل وثلاث والرطل إثنا عشر أوقية¹.

كما إستخدم الحفصيين أيضا الصاع، والصاع النبوي قدره مدان حفصية، وهو ثلاثة أصوع من ويبة تونس².

بالإضافة إلى المتقال ووزنه سبعين حبة من حبات الشعير المتوسطة الحجم، أي حوالي أربعة غرامات من الذهب ويطلق عادة على الذهب³.

ونبين من خلال ما تم ذكره بوضع جدول توضيحي لبعض الموازين المعتمدة في كلا البلدين

الموازين	الحفصيين ⁴	المماليك ⁵
المتقال	72 حبة شعير متوسطة حوالي 4 غ من الذهب 4.25 غ، 4.53 غ	72.222 حبة شعير من المتوسط 4.68 غ
الأوقية	37.776 غ = 10، 12 دراهم وثلاثان	10، 12 درهم و 37.44 غ، 37.5 غ
الرطل	12، 16 أوقية = 468.75 غ و 150 درهما	12 أوقية = 144 درهما وكل أوقية = 12 درهما
القنطار	102، 105، 110 رطل ويساوي 150 رطل من الكتان	100 رطل ويساوي 45 كلغ القنطار الففلي

¹ - البرزلي، المصدر السابق، ج1، ص101.

² - القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص114.

³ - محمد عبد الرؤوف بن تاج، المصدر السابق، ص40.

⁴ - البرزلي، المصدر السابق، ج1، ص549، ج5، ص152/القلقشندي: المصدر السابق، ج6، ص114. قالتر هنتس:

المرجع السابق، ص37. روبرت برتشفيك: المرجع السابق، ج2، ص261. محمد بن ساعو: المرجع السابق، ص59. مسعود كربوع، المرجع السابق، ص133-136.

⁵ - المقرئزي: إغائة الأمة، المصدر السابق، ص35/السيوطي: حسن المعاصرة، المصدر السابق، ج2، ص321،

القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص440. محمد عوض الله: المرجع السابق، ص81-82، قالترهشس، المرجع السابق، ص12-13-19-40.

جدول رقم 2: الموازين الشائعة عند الحفصيين والمماليك.

وبناء على هذه المعطيات التي حصلنا عليها من بعض المصادر والمراجع فإن قيمة المتقال الحفصي متقاربة جدا مع قيمته عند المماليك فهي تساوي 72 حبة شعير متوسط لدى الحفصيين وفي المقابل تساوي 72.222 حبة شعير متوسطة لدى المماليك، أما بالنسبة للحساب بالغرام فإن المتقال الحفصي يساوي 4.25 غ إلى 4.53 غ في حين نجد أن وزن المتقال المصري يساوي 4.68 غ أي أن الفارق بين المتقالين يساوي 0.15 غ وهذا الفارق يبدو كبيرا بين الحفصيين والمماليك.

وذلك إذا أخذنا بعين الإعتبار بعض العوامل المؤثرة على معيار الوزن في حد ذاته كالتآكل والتلف وما تعلق به من الشوائب مما يؤثر سلبا على دقة الوزن.

أما بالنسبة للأوقية فتتراوح ما بين 10-12 درهما وتلثان وتساوي 37.776 غ بالنسبة للحفصيين.

وتقدر الأوقية لدى المماليك من 10-12 درهما هي أيضا وتساوي 37.44 غ إلى 37.5 غ، أي أن الفارق بين الأوقية الحفصية والمملوكية يقدر بحوالي 0.2 غ-0.3 غ، ويبدو أن مقدار الأوقية المملوكية لا يختلف كثيرا عن نظيرتها الحفصية.

في حين نجد أن الرطل الحفصي يقدر من 12 إلى 16 أوقية ويساوي 150 درهما ويزن 468.75 غ.

وبقائه الرطل المملوكي ب 12 أوقية ويساوي 144 درهما أي كل أوقية تساوي 12 درهما والفارق بين الرطل الحفصي والمملوكي 4 أوقيات، وللعلم أن الرطل المملوكي غير ثابت ويختلف من منطقة لأخرى وكذلك من سلعة لأخرى.

فالرطل الفيومي يساوي 150 درهما، والرطل الفلظي يساوي 150 درهما، والرطل الأسيوطي 1000 درهم، والرطل الدمياطي 330 درهما وغيرهم¹.

¹ - محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 82.

وقد عرف الحفصيين بدورهم العديد من أنواع الرطل حيث يوجد الرطل ذو 16 أوقية ويبلغ وزنه 504 غ وإسمه الرطل العطاري ويستعمل لوزن الذهب ومختلف المعادن، وهناك أيضا الرطل ذو 18 أوقية ويبلغ وزنه 567 غ ويستعمل لوزن الفضة، بالإضافة إلى الرطل السوقي ويستعمل لوزن المواد الغذائية¹.

أما بالنسبة للقنطار فهو يتراوح ما بين 102 إلى 105 إلى 110 رطل بالنسبة للفواكه الجافة عند الحفصيين، وكانت كل من تونس وبجاية تستعمل قنطار الكتان ذو 150 رطلا ويساوي 75.6 كلغ، أما عنابة فالقنطار بها يقدر ب 4 أرطال ووزنه 48.3 كلغ².

أما بالنسبة للقنطار في مصر فهناك خمسة أنواع منها القنطار الفلفلي ووزنه 100 رطل وكل رطل 144 درهما ويزن 45 كلغ، بالإضافة إلى القنطار الليبي يتألف من 100 رطل ويزن 62 كلغ، وكذلك القنطار الجروي ويتألف من 100 رطل ويزن 96.7 كلغ، وقنطار المن ويساوي 260 درهما وكل درهم 3.125 غم ويزن 81.25 كلغ، وقنطار جولزاليس ويتألف من 24 ربحا وكل ربع عشرة أرطال وكل رطل 160 درهم ويزن القنطار 120 كلغ³.

أي أن للقنطار أيضا عدة أنواع في كلا البلدين كما أنه يختلف أيضا باختلاف السلع والبضائع والمناطق، إلا أن هذه الموازين تعتبر مقارنة نوعا ما بين الجانبين وهو ما يشجع التجار لتبادل السلع والبضائع بحيث لا تكون الفوارق في الأوزان كبيرة مما يعيق أو يؤثر سلبا على المجال الإقتصادي بين الدولتين.

المقاييس: وتستخدم لقياس الأطوال في الأسواق كالأقمشة والحصر والحريز فقد استخدمت الذراع واليد والإصبع، ويقدر الذراع 58/187 سم ويزيد ذراع الفسطاط بعض الشيء عن ذراع القاهرة وربما زاد بعض الشيء في نواحي أخرى ويستعمل الذراع لقياس القماش وقد اختلف في طول الذراع القاهري وكان كل عشرة أذرع من ذراع طرابلس يقابلها أحد عشرة ذراعا مصرية⁴.

¹ - رويار برنشفيك: المرجع السابق، ج1، ص260

² - نفسه، ج1، ص261.

³ - قالترهنتس، المرجع السابق، ص40، 41، 42.

⁴ - حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص117.

وقد ورد أيضا أن الحفصيين كانوا يعتمدون على هذه الوسائل المتبعة في الأسواق¹. وما نخلص إليه من خلال هذه الوسائل المعتمد عليها في الأسواق الحفصية والمملوكية فإنه يدل على وجود تقارب في مقدار المكاييل والموازين المتعامل بها. كما أن هذا التقارب من شأنه أن يسهل المعاملات التجارية المتبادلة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يشير إلى نشاط هذه المعاملات بين الطرفين. بالإضافة إلى إعتقاد كل من المماليك والحفصيين على هذه الوسائل في الكثير من الأسواق مع أخذهم بعين الإعتبار المقاييس والموازين الشرعية.

¹ - الإدريسي، المصدر السابق، ص110، ص115.

المبحث الرابع: المبادلات التجارية

من الملاحظ أن النشاط التجاري والمبادلات بين الدولة الحفصية ودولة المماليك، قد شهد إزدهارا واضحا، وهذا ليس بغريب فهذا النشاط والازدهار هو نتيجة وحصيلة الصلات الوثيقة بين أهل المغرب وبلاد المشرق بصفة عامة، فالرحلات بين المشرق والمغرب لم تشهد انقطاع حتى في ظل الحروب الأوضاع الغير الآمنة.

وهو ما أثار دهشة ابن جبير حول حركة التبادل التجاري هذه بين المسلمين المشاركة والمغاربة بصفة عامة وبين الصليبيين رغم الحروب القائمة بينهم فقال "ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى... واختلاف القوافل من مصر الى دمشق الى عكا كذلك وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض".¹

ولعل الازدهار التجاري بين إفريقية وبلاد المشرق في العهدين الحفصي والمملوكي، راجع الى تمحور سبل التجارة بين الجانبين في المسلك المار بين كل من مدينتي تونس والإسكندرية.

فقد كانت كل من الإسكندرية وتونس مركزين مهمين فقد كانت كل من الإسكندرية وتونس مركزين مهمين ارتكزت عليهما التجارة العربية الشرقية.²

صحيح أنه لا يمكننا إنكار الكثير من التغيرات الحادثة في منطقة المغرب الإسلامي وأثرها على مختلف الأصعدة، وخاصة السياسية والاقتصادية منها وأثرها على طبيعة العلاقات بين المماليك والحفصيين في الفترة المتناولة بالدرس.

والكلام بطبيعة الحال موجه الى الاجتياح الغزو الهلالي على بلاد إفريقية وما أحدثه من تغير سياسي وأضرار على المستوى الاقتصادي، وهي تغيرات كبيرة ومؤثرة حيث وصفت بالضعف وزادت من أحوال التجارة سواء خاصة فيما يتعلق بالأنشطة الاقتصادية بصفة عامة، كالفلاحة والصناعة إضافة الى ما شهدته الطرق من أثر هذا الغزو من خراب ودمار.³

¹- ابن جبير: المصدر السابق، ص 260

²- مريم محمد عبد الله: المرجع السابق، ص 105

³- أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م): تر، أحمد محمد عيسى، مكتبة

النهضة المصرية، القاهرة، دت، ص 385-386

وعليه يمكن التسليم بأثر هذه الاحداث على الجانب الاقتصادي وحجم المبادلات التجارية دون التسليم والقضاء النهائي على الإرث الاقتصادي والتجاري الموروث منذ عهد تبعية المغاربة لبلاد مصر بوابة المشرق الإسلامي.

وليس الغزو الهلالي فحسب من كان له الأثر على هذا الجانب ، بل يضاف اليه احتلال النورمنديين لسواحل إفريقية، وما كان له الأثر على التجارة البحرية لبلاد المغرب ، فلقد أدى تغلب النومانديين على مالطة وصقلية وجنوب إيطاليا، وظهور قوة بيزا وجنوة البحرية والاقتصادية في شرق وغرب المتوسط ، وهو ما أدى الى سيطرة الغرب على المسالك المؤدية بين شرقي البحر المتوسط وغربه، وهذا ما أدى الى تضائل الوساطة المغربية التي كان يقوم بها تجار المغرب في التجارة الدولية بالبحر المتوسط، والتي انتقلت الى أيدي الأوروبيين الغربيين وعلى الأخص الإيطاليين.¹

وعليه يمكن القول بتأثير هذه المتغيرات على الفترات اللاحقة، ولا سيما عهدي المماليك والحفصيين، وأثر هذه الاحداث على مختلف الأصعدة، ولاسيما جانبها الاقتصادي خاصة فيما يتعلق بالمبادلات التجارية بين الطرفين.

وعلى الرغم من وجود بعض الاضطرابات السياسية بين المماليك والحفصيين في العهود الأولى من بدايات الدولتين، إلا أن العلاقات التجارية بين إفريقية وبلاد المشرق بقيت قوية لأسباب تم ذكرها.

فكثيرا ما تناولت بعض المصادر الجغرافية والمعاصرة للفترة المتناولة بالدرس حركة تنقل السلع المغربية الى بلاد المشرق، او وجود بعض السلع المشرقية ببلاد المغرب او تواجد تجار مشاركة ببلاد المغرب، ولعل هذه النقطة الأخيرة التي نريد إثارتها قبل التطرق الى المبادلات التجارية بين البلدين، فالسؤال المطروح هنا: هل هناك حضور مشرقي ببلاد المغرب بصفة عامة وإفريقية في العهد الحفصي؟

¹ - أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 384-386

فلا يدع مبادلات تجارية بين إفريقية وبلاد المشرق في العهد المملوكي مجالا للشك في تواجد تجار مشاركة في إفريقية خلال الفترة المدروسة، غير أنه لا تتوفر لنا معلومات دقيقة عن أسماء لتجار المشاركة وزمن نزولهم في إفريقية.

حيث يحدثنا ابن حوقل¹ عن ان برقة كانت "اول منبر ينزله القادم من مصر الى القيروان وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربين ومشرقين."

ويذكر البكري² أن المهديّة مدينة لم تزل ذات إقلاع وحط للسفن الحجازية القاصدة اليها من بلاد المشرق...واليها تجلب البضائع بقناطير الأموال."

ومن هنا يمكن القول إن وصول السفن المصرية والحجازية الى سواحل إفريقية دليل على أن التجار المشاركة كان لهم حضور تجاري في بلاد المغرب الأدنى.

وفي إشارة نادرة للتجاني³ أشار حول قدوم المسافرين من مصر الى إفريقية.

لكن لا ندري هل المقصود بهم مصريون؟ أم أهل إفريقية العائدين من السفر؟

كما تؤيد بعض الإشارات المتناثرة في ثنايا الكتب وصول التجار المصريين الى بلاد المغرب حيث يذكر ابن خلدون⁴ أنه حضر الى مصر في سفينة لتجار الإسكندرية كانت مشحونة بالبضائع واستغرقت رحلتها أربعين ليلة من ميناء تونس، وكانت مقلعة باتجاه الإسكندرية.

كما إننا نجد الوزان⁵ الشاهد على نهاية الفترة الحفصية يحدثنا عن جربة في نهاية القرن 9هـ/15م بأنه: **يختلف إليها كثير التجار الاسكندريون والأتراك والتونسيون** "

¹—صورة الأرض: منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص 96

²—المصدر السابق، ص 107-108

³—المصدر السابق، ص 94

⁴—التعريف. المصدر السابق، 262-264/الرحلة: المصدر السابق، ص 199

⁵—المصدر السابق. ج2، ص 95

وهذا ما يؤكد أن ما يتوفر لنا عن هؤلاء يبقى رهن الإشارة باعتبار المصادر التي تم ذكرها (ابن حوقل، البكري...) تعود الى الفترات المبكرة وبالضبط في للقرني الخامس والسادس للهجريين.

وبالتالي يختفي تماما الحديث عن حضور المشاركة في الفترة الحفصية في مصادرنا وتبقى فقط مجرد إشارات وشذرات متناثرة في بعض المصادر.

غير اننا نجد في بعض المراجع والأبحاث الحديثة إشارات عن وجود هؤلاء عن طريق القوافل البرية إذ يقول الأستاذ لطفي بن ميلاد¹: عن حسن معاملة مدينة تونس في العهد الحفصي للغرباء بأن البون شاسع بين معاملة النازحين الى المدينة والوافدين عليها من داخل مجال إفريقية وبين القوافل القادمة من المغرب والاندلس والمشرق.

وهذا ما يؤكد حضورا واضحا لهؤلاء في مدينة تونس خلال تلك الفترة ونرجح تواصله حتى نهاية القرن 9هـ/15م.

ويبقى مثال عبد الباسط بن خليل المثال الاوضح على هجرة هؤلاء الى إفريقية وبلاد المغرب في الفترة الوسيطة المتأخرة باعتباره قد سجل رحلته في مأثور سماه "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" واسمه الأصلي عبد الباسط بن خليل الملقى الظاهري وهو أحد الإداريين بدولة المماليك بمصر.²

إن عبد الباسط عقد العزم على السفر لتوسيع معارفه وإكمال دراسته وأن التجارة ليست إلا شعار غادر تحته الإسكندرية على ظهر سفينة جنوية سنة 865هـ/1460م فزار طرابلس وجربة وتونس ووهران وتلمسان.³

ولعل ما يمكن قوله على رحلة عبد الباسط الى بلاد المغرب الإسلامي أنها كانت رحلة علمية صرفه، رغم ظاهرها التجاري المرتبط بمهنة الشخص.

¹ - المشاركة في إفريقية خلال القرن الأخيرة من العصر الوسيط، مجلة الكراسات التونسية، العدد 205,206، جامعة تونس 2008، ص 105

² - أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون: دار البيان العربي، جدة، د ت ص 307

³ - نفسه، ص 309/بن ميلاد لطفي: المشاركة في إفريقية: المقال السابق، ص 100

وإن كان الوجود المشرقي لم يفصح عنه ولم يتم ذكره بصفة واضحة وإنما ورد ضمن إشارات متناثرة في بعض الكتب، إلا أن الوجود المغربي وخاصة التونسي كان له نصيب وحصّة الأسد، حيث لا تخلو النصوص من الإشارة الى تواجد التجار المغاربة ببلاد المشرق الإسلامي ومزاولتهم للنشاط التجاري بهذه المناطق.

ويتحدث ابن جبير¹ عن ممارسة التجارة المغاربة للتجارة بمدينة عكا زمن الحروب الصليبية كما نوه هذا الأخير بموقف التجار المغاربة المعارض لضريبة المكس المفروضة عليهم ويعزو ابن جبير أن سبب ذلك الى مشاركة المغاربة وبعض من أجنادهم مع نور الدين إذ يقول: "و قال الافرنج إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالهمهم ، ولا نرزأهم شيئا فلما تعرضوا لحرينا وتألّبوا مع إخوانهم المسلمين وجب علينا أن نضع هذه الضريبة عليهم ، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ، ويخفف عنهم عنهم".

كما تشير المصادر الى تواجد المغاربة في بلاد المشرق وعلى رأسها مصر، فقد كانت مدينة القاهرة محطة تجارية برية ضرورية، بدليل أن وكيل المغاربة كان يوجد بها.²

كما استقر العديد من الشخصيات المغربية ونذكر بالأخص فئة التجار، حيث كانت بلاد المشرق أرض خصبة لإستقرار المغاربة، ومثلت أقاليمه قبلة للمغاربة لاسيما بلاد الحجاز لأداء مناسك الحج، حيث كانوا يستغلون فرصة أداء هذه الفريضة لإستقرار ببعض مدن المشرق الإسلامي وإمتهان بعض الأعمال كالتجارة.

وتعتبر مصر من المناطق التي استقر فيها التجار المغاربة، وكانوا يقصدونها بالخصوص في فترات الاضطرابات التي تتعرض لها بلاد المغرب، نظرا للرخاء الذي كانت تعيشه في العهد

¹-المصدر السابق، ص 274

²-مريم جيوده: المرجع السابق ص 106

المملوكي، حيث كانت الإسكندرية محطة أساسية بالنسبة لهم، فهي تقع على طريق الحج والتجارة.¹

وكان التجار المغاربة إذا رافقوا قوافل الحج فانهم كانوا يمارسون نشاطهم على طول خط الرحلة ذهابا وإيابا بيعا وشراء في مختلف المراكز والمدن التي يعبرونها.²

ويتحدث ابن جبير³ عن المغاربة الغرباء في إحدى قرى ضواحي دمشق ويصفهم بالأمانة، وربما كان هناك هؤلاء المغاربة من التجار في بلاد المشرق.

كما كانت هناك العديد من الشخصيات التونسية الأصل والتي طاب لها الإستقرار والإتجار في بلاد المشرق، وخاصة مصر باعتبارها الأقرب الى بلاد المغرب.

ومنها على سبيل المثال: أبو محمد عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الله بن علي القيرواني الأصل المصري الدار، وكان يتاجر في التمر والبزر حتى عرف باسم الأبخاري والتمار، وتوفي بالفسطاط سنة (636هـ/1239م).⁴

بينما إختار ابو مدين شعيب بن يحيى بن أحمد بن محمد بن عطية القيرواني ثم الاسكندراني متابعة تجارة أبيه في العطور والنباتات الطبية، وبخاصة الزعفران حيث صار يعرف بابن الزعفراني.⁵

كما نجد عبد القوي بن محمد المالكي البجائي (ت 816هـ/1413م) النازل في مكة التي قضى بها مدة 46 سنة النشاط التجاري.⁶

¹-صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة والاندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1963، ص 57

²-الونشريسي: المصدر السابق، ج1 ص 387-388

³-المصدر السابق، ص 250-251

⁴-بن ميلاد لطفي: المشاركة في إفريقية، المقال السابق، ص 112

⁵-تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني الفاسي المكي (775-832هـ): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تح، فؤاد سيد،

مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1405هـ-1985م ج5، ص 12-13

⁶-بن ميلاد لطفي: المغاربة وتجارة الهند من البحر الأحمر الى المحيط الهندي والصين (نهاية القرن 5هـ/11م الى نهاية

القرن 9هـ/15م) 3 : p /3884 /anis /journals. Openedition .org

كما نجد مغربيا آخر وهو من ناحية طرابلس الغرب واسمه مساعد بن حامد المصراطي المغربي، كانت وفاته بالهند، فهذا التاجر انتقل الى مصر والحجاز، لكنه توفي بالهند.¹

ويبدو أن الرابطة التجارية بين المشرق في العهد المملوكي وبلاد المغرب الأدنى في العهد الحفصي قد تمت أو نشطت ضمن إطار العلاقات التجارية مع المدن الإيطالية التجارية، وذلك لأن بلاد المغرب قد لعبت دور الوسيط التجاري في نقل تجارة الغرب الأوروبي نحو بلاد المشرق.²

ولقد نشطت العلاقات التجارية بين إفريقية في العهد الحفصي وبلاد المشرق زمن المماليك، ويمكن أن نستنتج ذلك من خلال الرسائل المتبادلة بين سلاطين المماليك في مصر والحفصيين في تونس، بحيث قامت الدولة الحفصية بدور الوساطة لدى مصالح التجار الأجانب من أجل تحقيق مطالب تجارية للفرنج الفرنسيين في الموانئ المصرية أسوة بما حصل عليه البنادقة من إمتيازات.³

وبالتالي نلاحظ أن بلاد المغرب لعبت دور الوساطة التجارية بحكم موقعها المتوسط في العلاقات التجارية.

ونتيجة للإرتباط التجاري بين المغرب والمشرق نتج عنه حركة تجارية نشطة، مما أدى الى تنوع السلع التجارية المتبادلة بين الطرفين حيث إنتقلت المنتوجات الحفصية الى مصر وما والاها كما هو العكس بالمنتوجات المشرقية وورودها الى بلاد الغرب الإسلامي.

كما يجب الإشارة الى أن المادة التاريخية المعول عليها في هذا الجانب تتلخص في بعض ما ذكر حول المدن وأحوالها وأنشطتها الاقتصادية الموجودة في ثنايا بعض الكتب التي تهتم بالجانب الاقتصادي، ولاسيما في الجانب الذي يخص المبادلات التجارية بين الطرفين، ضف الى ذلك الى أن هذه المصادر في أغلبها لا تحدد لنا المناطق والأماكن التي تصدر أو ترد

¹-بن ميلاد: المغاربة وتجار الهند، المقال السابق، ص 4

²-ابن سمام مرعي: المرجع السابق، ص 271

³-مريم محمد جيوده: المرجع السابق، ص 108

إليها المنتجات الإقتصادية بصفة عامة، وتكتفي في بعض الأحيان بالتعميم لا التخصيص وتحديد الوجهة التي يصدر إليها ذلك المنتج المعين.

وبعد استقراء ما ورد وأتيح لنا من مادة علمية ثم تصنيف السلع المتبادلة بين الطرفين (المملوكي - الحفصي) على النحو الآتي:

أولاً: الصادرات: ونجد أن صادرات الدولة المملوكية تنوعت بتنوع إنتاجاتها الفلاحية والصناعية ومن أهم ما تم تصديره إلى بلاد المغرب نذكر:

1- الأقمشة والمواد الكتانية:

كان من أهم صادرات مصر إلى بلاد المغرب الكتان الخام والأقمشة الكتانية المصرية الشهيرة، أما الكتان الخام فكان يصدر إلى تونس حيث تم تصنيعه هناك، وكانت البلاد التونسية آنذاك تصنع المنسوجات الكتانية الفاخرة.¹

حيث ذاعت شهرة كتان مصر ومنسوجاته الرفيعة المعروفة باسم الديبقي.²

وكان يحمل من مدينتي دلاص³ وبوش⁴ الكتان والذي اشتهر بكثرة فيها إلى إفريقية حيث أقبلت إفريقية على الكتان المصري لجودته.⁵

وكان من السلع المعتاد شحنها إلى تونس حيث قال ابن بطوطة⁶ الذي كان شاهداً على ذلك بقوله: "... ثم سرت منها إلى مدينة بوش وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا، ومنها يجلب إلى

¹- أمين توفيق الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والاندلس، الدار العربية للكتاب، 1997، ج2، ص 141

²- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 143/المقريزي: الخطط، المصدر السابق، ج1، ص 176

³- دلاص: كورة بصعيد مصر على غربي النيل وتشمل على قرى وولاية واسعة، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 459

⁴- بوش: كورة ومدينة بمصر من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل بعيدة عن الشاطئ، الحموي: المصدر السابق، ج1، ص 508

⁵- أماني بنت سعيد الحربي: مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة في القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14هـ):

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1436هـ / 2015م، ص 218

⁶- ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص 65-66

سائر الدنيا المصرية والى إفريقية، ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص، وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا، كمثل التي ذكرنا قبلها، ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وإفريقية "

كما كان يصدر الى إفريقية كذلك الحرير الخام بما تشتمل قائمة الأقمشة التي كانت إفريقية تجلبه خلال العهد الحفصي على بعض الأقمشة الثمينة الحريرية والمخمل والدمشقي والساتان والنقطة وهي اقمشة رفيعة، كان التجار البندقيون يقومون بالتجارة فيما بين بلاد الشام وشمال إفريقيا وهذه الأقمشة كانت أساسا تستورد من العراق والإسكندرية بصفة نادرة في القرن 7/13م.¹

التوابل: لعبت التجار اليهود والايطاليين دورا في جلب التوابل الى موانئ إفريقية.²

وتشتمل عديد قوائم التوابل وجوز الهند مثل البهارات وجوز الهند، القرنفل، القرفة، الزنجبيل وجوز الطيب، الزعفران، الكافور وهي مواد كانت تستوردها إفريقية في العهد الحفصي، وقبله إذ يذكر القزويني³: "إن الفلفل كان يحمل من أقصى الشرق الى أقصى المغرب."

كما كانت تصدر مصر الى إفريقية العطور ومواد الصباغة والدباغة كالبقم واللاك والنيل والمواد الكيماوية.⁴

وكانت هذه السلع تأتي من أسواق عن طريق ميناء عيذاب ثم منها الى الفسطاط فالإسكندرية إلى شمال إفريقية وسائر بلاد الإسلام في الغرب.⁵

كما صدرت مصر الى بلاد المغرب أنواعا من إنتاجها الزراعي كالعقدس والبول واللوبيا، العلف، البرسيم، الجزر، الثوم، البصل.⁶

¹-برنشيوك: المرجع السابق، ج2، ص 270-271

²-بن جدلة إبراهيم: المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، منشورات وحدة البحث، قصة ، 2010 ص 85

³-المصدر السابق، ص 123

⁴-أمين توفيق الطيبي " المرجع السابق، ص 42/كريم عاتي: المرجع السابق، ص 109

⁵-ارشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 252

⁶-مريم محمد جيوده: المرجع السابق، ص 111

وأثناء الأزمات يحدث أن تصدر مصر الحبوب والمواد الغذائية الأساسية الى إفريقيا من ذلك يؤكد المقريري¹ أنه: «في رمضان 590 هـ / اوت 1194م أكثر حمل الغلة من البحيرة الى بلاد المغرب لشدة الغلاء بها.»

وكان الورق من صادرات مصر الى بلدان العالم الإسلامي ومن ضمنها الى بلاد المغرب بلا شك.²

ثانيا الواردات: أما عن أهم ما كانت تستورده بلاد المشرق من بلاد المغرب وبالضبط من إفريقيا فكان أهمها:

-المواد الغذائية: تعتبر من أهم المواد المستوردة لبلاد المشرق من إفريقيا ويأتي في طبيعتها

الزيوت: خاصة الزيت الصفاقي التي اشتهرت بكثرة أشجار الزيتون، كما يمتاز زيتها بالجودة على باقي أنواع الزيوت وفي ذلك يقول ابن حوقل³: "ومدينة صفاقس مدينة جل غلاتها الزيتون والزيت، ولها منه ما ليس لغيرها مثله، وكان سعره عندهم فيما سلف من الزمان يحال، غيرته الفتن في وقتنا هذا، ربما بلغ من ستين قفيزا بدينار الى مائة قفيز بدينار على حسب السنة وربعا، وزيت مصر في وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب لقلته بالشام."

أما البكري⁴ فيصف صفاقس: «صفاقس في وسط غابة زيتون، ومن زيتها يمتار أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم، وربما بيع الزيت منها أربعين ريعا قرطبية بمئقال واحد ... وهي محط للسفن، فإذا جزر الماء بقيت السفن في الحصة، وإذا مد رجعت السفن يقصدها التجارة من الآفاق بالأموال الجزيلة لإبتياح المتاع والزيت».

أما صاحب الاستبصار⁵ فيقول: «عليها غابة كبيرة من الزيتون، وزيتها أطيب من كل زيت إلا الشرقي، ومن الناس من يفضله عليه، ومنها يمتار أهل إفريقيا الزيت، وتحمله المراكب

¹-السلوك: المصدر السابق، ج1، ص 233

²-مريم محمد جيوده: المرجع السابق، ص 111

³-صورة الأرض: المصدر السابق، ص 73

⁴- المصدر السابق: ص 20

⁵-المصدر السابق، ص 116-117

الى بلاد الروم وعليه معول أهل صقلية وإيطالية وجميع سواحل الأرض الكبيرة لكثرتة وطيبه."

ويقول عنها الحميري¹ "ومن زيتها يمتار أهل مصر والمغرب وصقلية والروم، وربما بيع الزيت بها أربعين ربحا بمثقال واحد."

ولقيت هذه التجارة صدى ورواجا في بلاد المشرق حتى أواخر القرن 9هـ/15م إذ نجد أهم جغرافي في الشام هو ياقوت الحموي² (ت 626هـ/1225م) يصف صفاقس بأنها: «وسط غابة الزيوت ومن زيتها يمتار أكثر أهل المغرب، وكان يحمل الى مصر وصقلية والروم ويكون فيها رخيصة جدا، يقصدها التجار من الآفاق لإبتياح الزيت."

وننبه هنا الى ملاحظة الحموي حول إنخفاض سعر الزيت، وهو ما يجعلنا نرجح الى الفترة المستقرة لإفريقية بعد ما كان ثمنه مرتفعا من قبل نتيجة للأوضاع المضطربة خاصة بعد الغزو الهلالي والنورماندي للمنطقة لاسيما في عهد الزيريين ولربما نرجح أمرا آخر جعل من زيت صفاقس أقل ثمنا هو تراجع جودته.

كما أشار عبد الباسط في رحلته الى أنه شاهد سفينة تابعة للبنديقية تنقل الزيت من جربة الى الإسكندرية حيث قال: «في يوم الاحد 22 جمادى الثانية 867هـ ... ورد الى تونس شواني البنادقة برسم الإتجار وحمل التجار من تونس ببضائعهم الى ثغر الإسكندري»³.

وهذا ما يدل على أهمية ودوره في المبادلات التجارية المتوسطة.

ومن المواد الأخرى التي كانت ترد الى بلاد المشرق كذلك التمور، حيث أن مدينة برقة كانت مشهورة بالتمر الذي كان يحمل الى مصر⁴.

¹-المصدر السابق، ص 366

²-المصدر السابق، ج 3، ص 223

³-أحمد رمضان أحمد: المرجع السابق، ص 308

⁴-أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا: تح، عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط ،

1412هـ-1991م، ص 69

إضافة الى العسل والفسق واللوز، حيث ذاعت شهرة تونس باللوز الفريك والفسق في قصة، هذه الأخيرة التي كانت أكثر بلاد القيروان فسقا ومنها يؤخذ بإفريقية ويحمل الى مصر والأندلس وسلجاسة.¹

وهو ما يؤكد على أهمية هذه المادة في صادرات الفواكه الى مصر.

حيث كان الفسق كذلك يجلب من بلاد الشام إلا أنه اقل جودة من الفسق الذي تنتجه مدينة قفصة والذي يقارب حجمه حجم اللوز.²

الأسماك: كانت الأسماك من جملة ما تستورده مصر من إفريقية، وخاصة من مدينة صفاقس المشهورة بنوع جيد من السمك يسمى "سباريس"³.

المصنوعات النسيجية: تعددت أنواع المصنوعات النسيجية في بلاد المغرب في إفريقية في العهد الحفصي والتي صدرتها الى بلاد المشرق الإسلامي، ويأتي على رأسها المنسوجات الحريرية، والتي اشتهرت بها مدينة قابس، وذلك نظرا لتوفر شجر التوت حيث يقول البكري⁴: "وحريرها أطيب الحرير وأرقه وليس في عمل إفريقية حرير إلا في قابس".

وتواصلت هذه التجارة حتى القرن 9هـ / 15م إذ نجد نص للمقريزي شاهدا على ذلك حيث: أنه في سنة 837هـ / 1433م قدم جنيد أحد أمراء أخورية -وقد توجه الى ابي فارس عبد العزيز ملك المغرب، وعلى يده كتاب السلطان بمنع التجار من حمل الثياب المغربية المحشاة بالحرير من ملابس النساء، وأن يلزمهم بقود الخيول بدل ذلك.⁵

وهذا ما يدل على تواصل تجارة الثياب الحريرية بين إفريقية ومصر المملوكية في وقت، متأخر من العصر الوسيط.

¹-البكري: المصدر السابق، ص 41-747/صاحب الاستبصار: المصدر السابق، ص 121

²-صاحب الاستبصار: المصدر السابق، ص 153-154

³-التجاني: المصدر السابق، ص 68/حسن الوزان: المصدر السابق، ج2، ص 87

⁴-المصدر السابق، ص 17/الاستبصار: المصدر السابق، ص 113

⁵-المقريزي: السلوك، المصدر السابق، ج7، ص 270

وإشتهرت سوسة بصناعة الثياب، حيث تميزت هذه الثياب بالبياض الرائق، مما جعل منها الأفضل ولا يوجد في غيرها، ومنها تجلب الثياب الرفيعة مثل عمائم المعمور وغيرها، حيث تبلغ الواحدة منها مائة دينار وأزيد ويحمله التجار الى جميع البلاد شرقا وغربا، ويباع الغزل بها زنة المتقال بمتقالين¹، وقد كان للثياب السوسية (السوسيات) شهرة في المشرق.²

كما يرد الى مصر من قفصة نوع خاص من النسيج يسمى الكساء الطراقي وهو أساسا من قطع الصوف الكبيرة التي تنسج في تلك المنطقة.³

وهي تحمل اسم طراق وعنها يتحدث البكري⁴ قائلا: «ومن قصور قفصة مدينة طراق وهي في منتصف الطريق من قفصة الى فج الحمار، وأنت تريد القيروان، ومدينة طراق كبيرة آهلة بها جامع وسوق حافلة واليها ينسب الكساء الطراقي وهو من جهاز مصر».

الجوخ: إشتهرت به صفاقس وهو نوع من الثياب المصبوغة الذي عرف شهرة في صفاقس.⁵

ويصف ليون الإفريقي⁶ أهل صفاقس بقوله: «ومعظم الصفاقسيون نساجون ... يذهب بعضهم بسفنهم ليتجروا في مصر».

وهناك من يرجع أن هذه الصباغة نقلت أساسا الى الإسكندرية.⁷

كما كانت جربة تصدر القماش الى مصر، وكانت معدة في أغلبها للتصدير وقد شاهد عبد الباسط سفينة تنقل تلك الأنسجة الى الإسكندرية.⁸

¹ -صاحب الاستبصار: المصدر السابق، ص 119

² -البكري: المصدر السابق، ص 36

³ -نفسه، ص 47

⁴ -نفسه

⁵ -إبراهيم بن جدلة، المرجع السابق، ص 90

⁶ -المصدر السابق، ج1، ص 87

⁷ -بن جدلة: المرجع السابق، ص91

⁸ -جميلة مبطي السعودي: المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621هـ وحتى سنة 893هـ:

رسالة مقدمة لنيل الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1421هـ-2000م، ص 128

ومن أهم القماش نجد الزرابي التي كانت تصدر خلال القرنين 8-9 هـ / 14-15 م من مدينتي تونس وطرابلس الى المشرق بوساطة بندقية تقوم سفنها بنقل هذه البضائع الى المشرق.¹

كما إستوردت بلاد المشرق من إفريقية المنتوجات الصوفية، حيث ذكر ليون الافريقي² أن صوف جربة كان يحمل الى المشرق وذلك بقوله: «ويعيش معظم سكان جزيرة جربة من تجارة قماش الصوف الذي يصنع فيها، يحملونه الى تونس والإسكندرية».

حيث كانت السفن المنطلقة في إتجاه الإسكندرية تحمل صادرات المنتوجات الصوفية الرفيعة والزيت والجلود وغيرها من المواد الأخرى.³

كما كانت برقة مشهورة بمواشيتها وأكثر ذبائح أهالي مصر كانت من إقليم برقة ويستوردون منها كذلك الصوف والعسل والقطران.⁴

بالإضافة الى القطن والكتان اللذان من صادرات إفريقية الى مصر حيث يذكر الإدريسي⁵ عن مرسى طليثمة وما يقصده من مراكب محملة بمختلف البضائع إذ قال: "...وهو عامر بالناس والمراكب، تقصد اليه المتاع الحسن والقطن والكتان ويتجهز منه العسل والقطران والسمن في المراكب الواصلة إليها من الإسكندرية».

المصنوعات الجلدية: عرفت أقاليم الدولة الحفصية بتنوع ثروتها الحيوانية، حيث إشتهرت برقة بثروتها الحيوانية، ويعتبر خيل برقة من أجود الخيول في المنطقة، إذ قيل الخيل البرقية كفى.⁶ وهذا ما يدل على شهرتها في بلاد المغرب الإسلامي وبلاد المشرق كذلك.

¹-برنشيفك: المرجع السابق ج2، ص271

²-المصدر السابق، ج2، ص 94

³-جمال الدين دراويل: جربة: العمق التاريخي والثراء الحضاري، مجلة الحياة الثقافية، العدد 240، تونس، 2013، ص 86

⁴-البكري: المصدر السابق، ص 5

⁵-المصدر السابق، ص 136

⁶-العمرى: مسالك الابصار، المصدر السابق، ج4، 65/3، ص 347

ويتحدث ابن سعيد المغربي¹ عن غرام أهالي برقة قصر أحمد من قبيلة هواره بتصدير الخيل الى الإسكندرية، وهذا ما يؤكد على جودتها وقوتها.

ونفس هذا الحديث يؤكد لنا القلقشندي² بأن أهالي برقة كانت لهم دراية وغرام بتجارة الخيل وتصديرها الى الإسكندرية.

ولعل وفرة الثروة الحيوانية والإنتاج الحيواني ببرقة قد ساعد على وفرة إنتاج الجلود، بوأ لبرقة مكانة هامة في تصدير الخيول الى مصر.

حيث إستوردت مصر الجلد والصوف من منطقة برقة نتيجة لما كان تشتهر به هذه المدينة من توفر الإنتاج الحيواني.³

كما كانت تونس مركزا هاما لصناعة الجلود وتصدير المنتجات الجلدية، فكان يصدر منها الأحذية الجلدية الفاخرة وأغلفة الكتب الى الإسكندرية والى باقي الديار المصرية.⁴

مواد أخرى:

قامت إفريقية بتصدير المرجان الى دول المشرق⁵، وصدرت كذلك المعادن ومنها النحاس والحديد الخام، الرصاص والقصدير والزئبق والزنك وسبائك الفضة، وإزدهر تصديرها في القرن 5هـ/11م الى مصر وبلاد الشام من تونس ومنها الى الشرق، وتميزت مدينة بونة بمعادن حديد جيد.⁶

¹-المصدر السابق، ص 195

²-المصدر السابق، ج 5 ص 105

³-مروان عاطف الضلاعين: المرجع السابق، ص 75

⁴-محمد حسن: المرجع السابق، ص 485

⁵-محفوظ الغديقي: التجارة البحرية بين المغرب العربي المتوسطي من خلال كتب النوازل، قضايا تاريخية، العدد 1، تونس ،

1437هـ-2016م، ص 27

⁶-الادريسي: المصدر السابق، ص 117/أمين توفيق الطيبي: المرجع السابق، ص 142

أما العبيد: فيعتبر من السلع العابرة حيث صدر الرقيق الأبيض والأسود الى بلاد المشرق من طرابلس الواقعة على رأس الطريق المؤدية الى بلاد السودان، كما كان يجلب من مدينة زويلة ومن سلجماسة، حيث كان العبيد يدخل الى المغرب الأوسط وإفريقية منها.¹

إضافة الى ما تم ذكره فقد صدرت كذلك قابس الى مصر الروائح والعطور وبرع أهلها في تقطير الروائح ومن حسنها وجودتها كانت تصدر الى مصر.²

ولم تكن المبادلات قاصرة على المنتجات الزراعية والصناعية فقط بل تعداها الى الأخذ بأساليب الصناعة وطرائقها، فقد أخذت صفاقس عن الإسكندرية طريقة صناعة الأقمشة وتفوقت فيها.³

وفي ختام هذا المبحث يمكن أن نصنف نوعية البضائع التي تم تبادلها مع بلاد المشرق، يمكن أن نقول إنها تنوعت ما بين مواد حيوانية ونسجية وقطنية إضافة الى التوابل والمواد المصنعة مع وجود معادن وبعض المنتجات الطبيعية.

ويبدو لنا من خلال حركة هذه المبادلات التجارية بين الحفصيين والمماليك، إنها إرتبطت معظمها بالأوضاع الراهنة التي كانت تمر بها الدولتان، إضافة الى ارتباطها بقاعدة الأحداث التي عرفتهما منطقة المغرب والمشرق الإسلاميين فمثلا: نجد أن الغزو الهلالي ألقى بظلاله على طرق التجارة وحركة المبادلات بين المشرق والمغرب، وساهم في إضطراب الطرق البرية التقليدية بين مصر والمغرب.

كذلك نجد أن واقع التجارة البحرية الذي فرض خلال فترتنا المدروسة قد تزامن مع نشوء الحروب الصليبية في المشرق وأثر ذلك على واقع العالم الإسلامي، فلا نخفل بنتائج هذه الحروب على حركة المبادلات بين المشرق والمغرب.

¹-أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 330

²-إلهام حسين دحوح: مدينة قابس من الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية حوالي 442-625هـ/1051-1247م:

رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة، 2000، ص 137

³-لمى فائق أحمد: المرجع السابق، ص 47

والملاحظ من خلال دراستنا للعلاقات الاقتصادية بين إفريقية الحفصية ودولة المماليك أن إفريقية كان تعاملها مع مصر أكثر من الأقاليم الأخرى، ويمكن أن نعزو ذلك الى قرب مصر من بلاد المغرب جغرافيا إضافة الى أن مركز السلطة والنقل السياسي كان في مصر.

كما أن في الفترة المتناولة بالدراسة لعبت فيها الوساطة الإيطالية دورا مهما بين تجارة بلاد المغرب مع المشرق، حيث كانت أغلب السفن الإيطالية، وسيلة أساسية لتجار بلاد المغرب نحو بلاد المشرق.

وبالتالي كانت التجارة في هذه الفترة تخضع لموازين القوى البحرية خاصة في فترة العصر الوسيط المتأخر، وخاصة وأن الأحداث الذي سوف تنتهي معه هذه الفترة (الوسيطة) هو بروز وتنامي قوة الأتراك العثمانيين والذين سوف يكون لهم تأثير آخر على مجرى أحوال الطرق والمبادلات.

ومن خلال ما سبق يبدو لنا أن الحضور الاقتصادي بين المشرق والمغرب في هذه الفترة لم يكن له ذلك الإرتباط الوثيق الذي عهدناه في الفترات والعهود الأولى لتاريخ العلاقات بين المشرق والمغرب، وبالتالي سوف نتساءل عن مسارات العلاقات والمرجعية الثقافية بين المشرق والمغرب؟ وهل للأحداث والمتغيرات أثر في إحداث نوع من القطيعة والإنفصال عن المشرق؟

الفصل الثالث: التأثير الثقافي المملوكي الحفصي

المبحث الأول: الرحلة بين المغرب والمشرق

المبحث الثاني: إنتشار المذاهب والفرق الدينية

المبحث الثالث: المجال العلمي

المبحث الرابع: التأثيرات العمرانية الفنية

المبحث الأول: الرحلة بين المغرب والمشرق

إن المنتبع والمهتم بظاهرة الرحلة¹ وتنقل الأفراد والجماعات من إقليم الى آخر يتبين أنها لم تكن وليدة صدفة أو وليدة قرن من الزمن.

بل أن الرحلة وجدت مع الإنسان، وتعددت بذلك أهدافها ومراميها، فهي استمرار لوجود الانسان ومعرفته، وهي امتداد حضاري للأبعاد الثقافية والاجتماعية والجغرافية وهي تحمل صورة الآخر.²

وتكمن أهمية الرحلات في كونها تمثل مظهرا من مظاهر الحياة العربية الإسلامية التي فتحت الآفاق المعرفية، واقتحمت الحدود السياسية ورسمت حدود الخرائط الجغرافية بمختلف الأقطار الإسلامية.

ولم تقف الخلافات السياسية في أي وقت من الأوقات حائلا أمام مثل هذا التواصل والتفاعل لاسيما بين المشرق والمغرب الإسلاميين عبر التاريخ، إذ أن كلا منهما يشعر بحاجته للآخر ويحاول اكتشاف عالمه.

واتخذت الرحلة في العصر الوسيط مكانة كبيرة في حياة الناس، ولعبت دور مهم وكبير في الاطلاع على الثقافات الإنسانية، حيث قيل في شأن الرحلة بأنها: «أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراء لفكره وتأملاته عن نفسه وعن الآخرين».³

كما إنها وضعت الأسس لعلم الأنتوجرافيا التي تشكل بدورها قاعدة هامة للمقارنة بين النظم الاجتماعية لدى الفرد.⁴

¹ الرحلة: والرحلة: سم للارتحال للمسير، يقال دنت رحلتنا، ورحل فلان وارتحل وترحل، ابن منظور: المصدر السابق، ج 16 ص 1611

² -آمنة سليمان البدوي: الرحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من (ق3هـ-ق9هـ)، تقص وعرض، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 41، العدد 2، عمان، 2014 ص 399

³ -حسين فهمي: أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد 138، الكويت، 1978 ص 15

⁴ - نفسه، ص 18

ونتيجة لأهمية الرحلة أصبحت في نظر الكثيرين مسألة لا بد منها في طلب العلم والاستفادة من العلماء بزيارة الأمصار الإسلامية التي عرفت بتبحرها في العلوم المختلفة.¹

ولقد عبر ابن خلدون (ت808هـ/1406م) عن هذا الاتجاه بشكل صريح بقوله: «فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال».²

ومن هنا اختلفت دوافع الرحلة وأغراضها وذلك حسب هدف كل مرتحل لاسيما نحو المشرق فمنها ما هو سياسي له علاقة بالسلطة ومنها ما هو ديني تعبدي يتجلى من خلال رحلة الحج هذا فضلا عن الرحلات التي يغذيها الهاجس العلمي والمعرفي، وبين الجبر والإختيار وانقسمت لذلك أصناف الرحلة بين الرغبة والاضطرار.

1- الرحلة الاختيارية: يمكن القول بأن هذه الرحلة تنشأ عن إرادة سالكها ورغبته الخاصة المحضة وهذا الوجه من الرحلة ينطوي تحتها:

- الرحلة في طلب العلم: كان طلب العلم والاستزادة منه أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت العلماء الى الرحلة خاصة نحو المشرق.³

واعتبر محمد بن إبراهيم الأبلي أن الرحلة هي أصل العلم وإن بنيان المدارس هو من أذهب الرحلة.⁴

فكان طلاب بلاد المغرب لا يكتفون بما يحصلونه في مدنهم من المعارف والعلوم، بل كانوا يشدون الرحلة الى مختلف أقطار العالم الإسلامي، من أجل الإستزادة من العلوم والتعمق فيها.⁵

¹- عبد الواحد ذنون طه: أبحاث في تاريخ المغرب والأندلس وصور من التواصل الحضاري مع المشرق، دار الحامد، ط1، عمان، 1435هـ-2014م ص 333

²- ابن خلدون: المقدمة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2001م، ص294

³- عبد الواحد ذنون طه: الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، 2005 ص

⁴- ابن مريم: أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد: ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908ص

⁵- عبد الرحمن الاعرج: المرجع السابق ص 243

وكانت الرغبة الكامنة في نفوس الطلبة تدفعهم الى المزيد من الدرس والتحصيل على شيوخ والى مدينة فاس للإجازة على علماء القرويين، أو الأخذ من فقهاء غرناطة وبجاية ومدارس الإسكندرية والجامع الأزهر بالقاهرة والانتساب الى مراكز التعليم بمكة المكرمة والمدينة المنورة، ومعاهد الشام وبغداد للتعمق في دراسة الفقه وأصوله والتعرف على المدارس النحوية واللغوية.¹ كما كان لطلبة العلماء المغاربة الدور البارز في تحريك التواصل المعرفي وتنشيطه عبر الاتصال المباشر بالعلماء.²

كما عمل رحالة المغرب الإسلامي على نقل معارفهم وعلومهم الى بلاد المغرب وبدعم هذا القول الطاهر بن عاشور³ بقوله «وما صارت إفريقية دار علم الا بعد أن خرج من أهلها رجال الى المشرق في طلب العلم وقفلوا من المشرق يحملون علم الشريعة».

وبالتالي كانت بلاد المشرق بالنسبة لأهل المغرب عامة محط آمال الراغبين في العلم التواقين الى التبحر فيه.

فكثر الارتحال الى المشرق ولقاء علمائه في مختلف وجوه العلم وأضحى عنصرا مهما في تكوين الشخصية العلمية، وفي اكتساب الهيبة والاحترام في الأوساط المغربية وبنم في تحقيق النضج العلمي وترسيخ جذور الشخصية العلمية المتفوقة، حتى أن بعض العلماء من كان يفخر بكثرة شيوخه وأساتذته ويعاب العالم الذي ليس له رحلة ويوصف بالإنقباض عن أهل زمانه من العلماء وأهل المعرفة وهذا ما جعل طلاب العلم يحرصون كل الحرص على تحقيق هذه الرحلة، فقل من العلماء من لم يشد الرحال لتحصيل العلم.⁴

¹ -عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج2 ص 327

² -نوري أحمد عبيريد: التواصل المعرفي بين علماء الغرب الإسلامي وشرقه في العصر المملوكي دوافعه ومظاهره، بحث مقدم لأعمال المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية المنعقد بدبي (27 جمادى الآخر 1434هـ/10-7-2013م)، جامعة طرابلس، ليبيا ص 8

³ -أليس الصبح بقريب «دراسة تاريخية وأراء إصلاحية»، دار السلام، ط1، القاهرة، 1427هـ/2006م ص 58

⁴ -نوري أحمد عبيريد: المرجع السابق، ص 8

خاصة في هذه الفترة أصبحت بلاد المشرق لها المرجعية الثقافية والعلمية وظل العصر المملوكي عصر إزدهار من الناحية العلمية ولم يختلف عن سابقه وإنما ظل امتدادا له، حيث نسجوا على منوال سابقهم بل زادوا من دعمهم للعلم والعلماء.¹

-الحج والرحلة الروحية:

فإذا كانت الرحلة العلمية للطلبة والمتعلمين والمشايخ لأخذ العلوم هي بالأساس رحلة غرضها التزود والتبحر في فنون العلوم، فإن الرحلة الروحية والمتمثلة في الحج هي رحلة في الأساس تتحكم فيها رموز ومكونات تعبدية فيكون مرام وهدف سالك هذه الرحلة ديني تعبدية، وإحياء لهذا الركن باعتباره فريضة، وبالتالي كان هذا الركن هو الدافع الذي يجمع بين العلماء والعامّة.

فالحاجة الى أداء الركن الخامس من الإسلام وهو الحج كان من العوامل الأساسية لهذه الرحلة مصداقا لقوله: «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق».²

ليأتي الحج هنا محفزا لزيارة الأماكن المقدسة أيضا كقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجده النبوي، وبالتالي كان الحج دافعا رئيسيا لكثير من الرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين دفعهم الشوق الى ارتياد الآفاق وتقليص المسافات وزيادة البقاع المقدسة.³

حيث إتسع نطاق الصلات المتبادلة بين المغرب والمشرق منذ أن أصبح المغرب جزء من دار الإسلام، عبر تفعيل المغاربة لفريضة الحج، وهكذا استقطب هذا الهدف الديني أغلب الرحلات حتى ساد العرف لدى المغاربة بأن الرحلة الى المشرق تعنى الحج في الأساس.⁴

¹-حمزة حمادة: إسهامات المالكي في الحركة العلمية ودورهم الاجتماعي في المشرق العربي(648هـ/1249م)- 923هـ/1517م)، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، عدد 16، جامعة حمة لخضر الوادي، جوان 2016 ص64

²-سورة الحج: الآية 27

³-لبنى لوانسة: النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر، بانتة 1434-1435هـ/2013-2014م ص 55

⁴-عفت محمد الشرفاوي: الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد في حوار المشرق والمغرب، دار العلوم، ط1، القاهرة، 2007 ص

وظل المغاربة حريصين على هذه الفريضة رغم مشاقها ومصاعبها وبعد المسافة بين المغرب والمشرق أين توجد البقاع المقدسة بالحجاز مقصد المسلمين في العالم وهذا ما أكد عليه ابن عباد الرندي¹ في إحدى رسائله حيث يقول: «المشي الى الحج في هذه الأزمنة مما يعظم حرص الناس عليه وتميل نفوسهم اليه، ويوثرون المشقة والقلّة والغربة اللازمة له على الراحة والجدة والإقامة»².

كما مثل الحج لدى العديد من المنشغلين بعلوم القرآن فرصة للإلتصال والإلتقاء بالعلماء والمشايخ الذي كان الحج مناسبة للأخذ عنهم، لكن يبقى الحج في المقام الأول لدى العديد من الأعلام شعيرة دينية، أما العلم وإن بدا غاية الإرتحال فهو مقترن بالقداسة التي تلازم مناسك الحج وإطاره المكاني³.

وبذلك كانت رحلة الحج توفر فرصة ثمينة لأداء مناسك الحج من جهة والتقاء العلماء من جهة أخرى مما نتج عنه إمتزاج أفكار علماء المغرب والمشرق ليستمر بذلك التلاحم الفكري بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

-رحلة للتصوف: تزخر كتب التراجم والمناقب وكتب الرحلة بأسماء الزهاد الصوفية ومناقبهم سواء الذين شدوا الرحال الى المشرق الإسلامي أو حتى الى بلاد المغرب الإسلامي قاصدين من ذلك البحث عن شيوخ يوجهوهم في رحلتهم الروحية ليأخذوا عنهم الطريقة.

فكانت الرحلة الصوفية هدفها لقاء العلماء والمشايخ وتبادل الأفكار الصوفية وحمل المؤلفات والرجوع بها الى الغرب الإسلامي⁴.

¹-ابن عباد الرندي: هو الشيخ الصوفي أبو عبد الله محمد بن عباد النفري الحميري الرندي (733-792هـ/1332-1390م) من كبار علماء الأندلس، له كتاب التنبية الذي وضعه على حكم ابن عطاء الله السكندري(ت709هـ/1309م)، ابن عباد الرندي: الرسائل الصغرى، نشرها الأب بولس نوياليسوعي، كانون الثاني 1957، مقدمة المحقق، ص129

² -نفسه، ص46-47

³-لبنى لوانسة: المرجع السابق ص 58

⁴-عبد الواحد ذنون طه: أبحاث في تاريخ المغرب والأندلس، المرجع السابق ص 333

كما نجد من المتصوفة المغاربة من كان متفرغا للعبادة والنسك في بلده قبل أن يذهب الى الحج ليتزود من مناهل الشيوخ هناك، وهناك من متصوفة بلاد المغرب من كان كثير السياحة في طلب الصالحين وزيارتهم.¹

وغالبا ما تكون سياحتهم هذه طويلة قد تدوم عدة سنوات كما هو الشأن بالنسبة الى أبي مدين الغوث² وأبي الحسن الشاذلي³، وقد تكون الرحلة بهدف الإتصال بالصلحاء من أجل التبرك بلقائهم والفوز بدعواتهم الصالحة.⁴

وساهمت هذه الرحلة في نسج علاقات تأثر وتأثير فنجد أبا مدين تأثر بالإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي.⁵

كما كان أبو مدين كذلك مولعا بتدريس رسالة القشيري لتلاميذه.⁶

كما لا ننسى الدور البارز الذي لعبه الشاذلي والذي سوف يأتي الحدث حوله في المباحث القادمة.

ومن هنا يتبين الدور الذي لعبته رحلة التصوف وإسهاماتها في التواصل المعرفي في المجال الروحي بين أقطار العالم الإسلامي.

¹ - عبد الواحد ذنون طه: أبحاث في تاريخ المغرب، المرجع السابق، ص 340-342

² - أبو مدين الغوث: شعيب بن حسين الأندلسي شيخ أهل المغرب توفي سنة 593 هـ بتلمسان، وهو أحد أعظم أئمة الطريق المجمع وولايتهم الكبرى، جال وساح واستوطن بجاية مدة ثم تلمسان، ابن الملقن (723-804هـ) طبقات الأولياء تح: نور الدين شريفة، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1415هـ-1994م ص 437/النبهاني: جامع كرامات الأولياء، تح: إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل سنت بركات رضا، ط1، عجات، الهند، 2001، ج2 ص 117

³ - أبو الحسن الشاذلي: هو الشيخ القطب علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف أبو الحسن الهذلي الشاذلي نسبة الى شاذلة قرية بإفريقية نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، ابن الصباغ: درة الأسرار وتحفة الأبرار، مكتبة الأزهرية للتراث، 2001 ص 5

⁴ - نوري أحمد عبيد: المرجع السابق ص 7

⁵ - ابن الملقن: المصدر السابق، ص 138

⁶ - ابن قنفذ القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير، مكتب النشر الجامعي، الرباط، د.ت، ص 17/جمال الدين الشيبان: أعلام الإسكندرية في العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، مصر، 1421هـ/2001م ص 162

2- رحلة إضطرابية (الهجرة): ما يمكن قوله حول هذه النقطة أنه لم يكن العطش الى تحصيل العلوم وملاقة أهل العلم بالمشرق، وكذلك لوعة الإشتياق الى زيارة البقاع المقدسة سبب في خروج بعض العلماء المغاربة ومغادرتهم موطنهم وأرض منشأهم في اتجاه المشرق الإسلامي، بل ساهمت عوامل أخرى جبرية خارجية عن إرادة هؤلاء العلماء حتمت عليهم الرحيل والفرار نجاة بأنفسهم، سواء خشية من بطش أصحاب السلطة أو خوفا من الفتن السياسية أو من ويلات الحروب.

فنتيجة لتزايد مضايقات النصارى للمسلمين في الاندلس وتتابع سقوط المدن المشهورة في هذا الصقع إبان النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي في أيديهم قد دفع بلا شك الكثير من العلماء والطلاب لمغادرة هذا الإقليم.¹

كما نجد كذلك من العلماء من غادروا أوطانهم بسبب المؤامرات التي حيكت ضدهم ونجد في هذا السياق ابن خلدون ورحيله من بلاد المغرب، حيث بين في كتاب التعريف أن هجرته الى أرض المشرق كانت بسبب الدسائس والمؤامرات والوشايات التي حيكت ضده من قبل نظرائه مما دفعه الى الرحيل فإلتمس من السلطان تخلية سبيله ذريعة أداء فريضة الحج، فرحل وإستقر بمصر.²

وهناك الكثير من العلماء من رحلوا الى بلاد المشرق فرارا وإضطهادا سواء بسبب أفكارهم ومحنهم أو سبب الظروف الغير مستقرة في بلاد المغرب.

عكس ما كانت تعيشه بلاد المشرق من هدوء وإستقرار نسبي الذي كانت تشهدته أغلب مؤسسات الحكم المملوكي مما جعل السلاطين ينقرغون الى المنجزات الدينية والثقافية والاجتماعية، وإصلاح مقاطعاتهم التابعة لهم والمسالك المؤدية إليها خاصة للقاصدين الى الحجاز والبقاع المقدسة.³

¹- عبد العزيز بن راشد السندي: المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (570-660هـ/1174-1174م)، بحث مقدم الى ندوة مكة المكرمة، عاصمة الثقافة الإسلامية، 1326هـ، جامعة القصيم ص 18

²- ابن خلدون: التعريف، المصدر السابق ص 244

³- عبد الرحمن الاعرج: المرجع السابق ص 226

إضافة الى توفر المناخ المناسب لازدهار النشاط الحضاري بوجه عام والعلمي بوجه خاص في مصر على عصر سلاطين المماليك، بالإضافة الى إغراء المال أدى بعدد كبير من علماء المشرق والمغرب الى النزوح الى القاهرة حيث الثروة والحياة الرغدة، وحيث فرص التدريس في مدارسها العديدة ذات الأوقاف السخية.¹

وبالتالي يمكن القول بأن الرحلات العلمية كانت من الروافد الأساسية للحركة العلمية، فقد عمت صلة التواصل بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

مصاعب الرحلة:

كان المرتحلون يواجهون صعوبات ومشاق عدة سواء كانت الرحلة برا أو بحرا حيث كانوا يتغربون طوال أشهر وأحيانا سنوات عديدة محتجزين في البحر مواجهين مخاطر الملاحة، كما كانوا يجتازون طريقا بريا لا نهاية له متموجا بسبب تعرجات سواحل إفريقيا.²

حيث تحدث أحيانا غرق السفن في البحر مثلما حدث سنة 779هـ/1380م عندما غرقت سفينة كانت تحمل حجاجا مغاربة قرب ميناء الإسكندرية.³

ضف الى ذلك ما يتعرضون له من نهب وسرقة من قبل قطاع الطرق الذين يعترضون طريقهم من الأعراب التي كانت تملأ الطريق الرابط بين حواضر بلاد المغرب والمشرق.⁴

كما كان المرتحلون يلقون من مشقة المسافة والاحوال المضطربة للجو بين الحر والبرد والأمطار، والإصابة ببعض الأمراض كالحمى والتي تعرقل حركة السير.⁵

¹-سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، دار الأحد، بيروت، 1977 ص 415

²-سحر عبد العزيز سالم: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ج 1 ص 413

³-الونشريسي: المصدر السابق، ج 4 ص 490

⁴-ابن بطوطة: المصدر السابق، ج 1 ص 38

⁵-نفسه، ج 1 ص 35 / القلصادي: المصدر السابق، ص 124

مراكز استقطاب العلماء في المشرق:

مثلت العديد من الحواضر والمدن بالمشرق ببعديها السياسي والجغرافي مراكز جذب واستقطاب للعلماء المغاربة الذين هاجروا وارتحلوا إليها كل حسب غايته إضطرارا أو اختيارا على غرار مصر التي مثلت من أبرز حاضنات الفكر وعواصم الثقافة والحضارة في تلك الفترة.

مصر: لا شك أن إختيار مصر كقبة للعديد من العلماء المغاربة يعود الى عوامل مختلفة لعل أهمها وأكثرها تأثير العوامل الجغرافية، حيث أن مصر تحظى بموقع إستراتيجي، إذ تتوسط مجال العالم الإسلامي، كما إنها بوابة بلاد المشرق الإسلامي وصارت مصر هي مركز النقل السياسي بإنقال الخلافة الى العاصمة القاهرة، كما كانت تتمتع بإزدهار ثقافي حافل بمختلف العلوم والفنون وذلك لاهتمام المماليك بالمدارس والزوايا والربط.¹

حيث كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية إزدهارا بالبحث والدرس، وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية، وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن نوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية، خاصة بعد سقوط بغداد حيث إستقبلت مصر العلماء والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها.²

وأصبحت القاهرة زمن المماليك تعج بالمدارس وهي سلسلة من المدارس متوارثة من العهد الأيوبي.³

كما أن ابن خلدون⁴ أبدى إنبهاره الشديد لما رآه في القاهرة قائلا: «فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزخر الخوانق والمدارس بآفاقه، وتضيء البدر والكواكب من علمائه ... ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم ...»

¹-أحمد جيليلي: الحياة الثقافية في مصر المملوكية، الأثر مجلة الآداب واللغات، عدد 6، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ماي 2007، ص 147

²-محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1996 ص 292

³-أيمن فؤاد السيد: القاهرة خطتها وتطورها العمراني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015 ص 220

⁴-التعريف، المصدر السابق، ص 264-265

خاصة وأن القاهرة مثلت بالنسبة للمغاربة نقطة عبور وهم يقصدون البقاع المقدسة، فهي مكان تجمع مراكبهم البحرية والبرية، فكان حي ابن طولون من أهم مراكز إقامة المغاربة في عهد صلاح الدين حيث يقول ابن جبير¹: "وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب الى ابي العباس احمد بن طولون، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة ... جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر ... ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده، وتفرغوا لعبادة ربهم."

ولتصبح القاهرة زمن المماليك حامية دار الإسلام، إضافة الى كونها حامية الأدب والعلم والحضارة العربية مما جعل العلماء والأدباء يلجؤون الى القاهرة، حيث الأمن والرخاء ولم يدخر المماليك في إمداد هذه النهضة بالأموال والطائلة.²

ولم تكن القاهرة وحدها مركز العلم والثقافة فحسب بل كانت كذلك الإسكندرية لها مكانتها بسبب ما كانت تتمتع به من ازدهار ثقافي حيث كثرت فيها المؤسسات العلمية والدينية.³

حيث تمتعت الإسكندرية بنهضة علمية رائدة قبل عصر المماليك، الا أنها زادت في عصر المماليك بصورة أكبر وأشمل، ولعل من أحد أكبر العوامل التي أدت الى ذلك هو الإهتمام بالحركة العلمية من قبل كبار السياسيين وأصحاب الرأي بها، وقد وضع ذلك جليا من خلال إحتضان الدولة لعلماء المشرق والمغرب وحب الدولة للعلم والعلماء.⁴

مما كان له الأثر في إستقطاب علماء المغرب في الإسكندرية الذي أدى بدون شك الى التفاعل الثقافي والعلمي بين المشرق والمغرب، الذي كان له الدور الكبير والإيجابي في تنشيط الحركة العلمية بها، فأستقر الكثير من العلماء المغاربة بالإسكندرية وقد بلغ بعضهم مواقع مرموقة

¹-المصدر السابق، ص 26-27

²-شوقي ضيف: من المشرق والمغرب بحوث في الأدب، دار نويار للطباعة، ط1، القاهرة، 1419هـ/1998 ص 89

³-جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ص 87-88

⁴-آمال رمضان عبد الحميد صديق: الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م):

أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم الدراسات العليا التاريخية، جامعة أم القرى 1421هـ/2001م ص 176-177

أمثال ابن خلدون¹ الذي تولى قضاء الإسكندرية، وبقي بها مدة قبل أن يستقر به المقام في القاهرة.²

ونجد كذلك العديد من الأدباء الذين خرجوا من تونس قهرا كابن الحواجب المهدي الشاعر الهجاء قد نفاه أبو زكريا الأول الحفصي للمشرق لسلطة لسانه ويقدر أنه ارتحل الى مصر.³

كما اضطر أبو الحسن الشاذلي العدا الشديدي الذي لقيه من ابي القاسم بن البراء وجماعته الى الهجرة الى مصر بعد أن سجن إثر مجلس علمي عقده أبو زكريا.⁴

كما هاجر أبو الزهر الحميري الى الشام حيث التقى به أبو حيان النحوي ولا نعلم لماذا أثر الغربة وقد كان يشتغل بتونس بالخدم السلطانية.⁵

كذلك نجد من شاعت شهرته في مصر كالقلجاني التونسي المغربي المالكي، الذي قدم الى القاهرة فراج شأنه عند كثير من أربابها وحظي بإحترام السلطان.⁶

وبالتالي لا يمكننا إحصاء كل من ذهب وإرتحل الى القاهرة بصفة خاصة ومصر بصفة عامة، إلا أن ما يمكن قوله هو أن مصر كانت قبلة لعدد هام من العلماء المغاربة فمنهم من طاب له الاستقرار فيها، ومنهم من عاد الى وطنه، وبالتالي يتبين لنا أن مصر لم تكن مجرد محطة

¹- ابن خلدون: هو عبد الرحمن بن محمد قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد الحضرمي الإشبيلي المالكي ، قاضي قضاة الديار المصرية المعروف بابن خلدون ولد يوم الأربعاء أول شهر رمضان سنة إثنين وثلاثين وسبعمائة ، تولى القضاء وتقل في عدة وظائف بالمغرب ومصر الى أن توفي فجأة بالقاهرة سنة ثمان وثمانمائة ودفن بمقبرة الصوفية ، ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي ، تح: فهيم محمد شلتوت ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ص 404/السخاوي : المصدر السابق ، مجلد 4 ، ص 145/ ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر أبناء العمر (773-852هـ) ، تح: حسين حبشي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1415هـ-1994 ، ج2 ص 808.

²-آمال رمضان: المرجع السابق، ص 177-178

³-التجاني: المصدر السابق، ص 370

⁴-أحمد الطويلي: الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي (600-950هـ/1204-1543م)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2014، ص 353

⁵-نفسه.

⁶-السخاوي (ت906هـ): وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام: تح: بشار عواد معروف عصام، فارس الحرستاني، مؤسسة الرسالة ص 965

عبر تربط بين المغرب الإسلامي والحجاز وبلاد الشام فحسب، بل مثلت مقصدا وملاذا للعديد من العلماء المغاربة بشكل عام والتونسيين بشكل خاص.

ولربما ما ساعد مصر على أن تحظى بهذه المكانة هو تراجع الدور العلمي للعديد من الحواضر، خاصة بعد الاجتياح المغولي للعديد من المدن وما أنجز عنه من تخريب لدور العلم والكتاتيب والكتب والمخطوطات، بما انتهى بها الى إندثار العلم في تلك الحواضر وأقول نجمها وهو ما سارع في تشريد وتهجير العلماء الى أماكن أخرى أكثر أمانا لتصبح بذلك مصر قبلة ووجهة لكل عالم ومنتهى آمال القاصدين اليها من المغرب.

ومن أجل محاولة إعطاء دراسة إحصائية حول علماء المغرب المرتحلين الى بلاد المشرق، وخاصة علماء إفريقية لذلك قمنا بدراسة كتاب: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي¹.

يعد كتاب المنهل الصافي المادة الأولية والرئيسية التي تم الاعتماد عليها لإستخراج أبرز علماء المغرب المترجم لهم في هذا الكتاب، والذين عرفوا بترحالهم الى حواضر ومدن بلاد المشرق الإسلامي علما أن هذا الكتاب يضم ثلاثة عشر جزء به العديد من الشخصيات تم ترجمتها في هذا الكتاب.

حيث بلغ عدد العلماء المغاربة الذين إستقيناهم من كتاب المنهل الصافي ستون عالما²، من بين 2828 ترجمة وهو عدد قليل بالعدد الإجمالي للتراجم التي جمعها ابن تغري بردي في كتابه إذ لا تتجاوز نسبة العلماء المغاربة 2% من مجموع التراجم، وقد تدعو هذه النسبة القارئ

¹ - ابن تغري بردي: هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف تغري بردي ولد سنة 812هـ/1409م بالقاهرة كان ابوه من المماليك اشتراه السلطان الظاهر برقوق، ونشأ تحت رعايته، تولى قيادة الجيوش في عهد السلطان الناصر فرج وفي سنة 813هـ تولى والد المؤلف نيابة الحكم في الشام ثم توفي والده سنة 815هـ، حظي ابن تغري بردي بتكوين علمي غزير ومتنوع شمل مختلف العلوم وإهتم هذا العالم الناشئ بعلم التاريخ ولازم كبار المؤرخين ليصبح من أهم مؤرخي مصر في العهد المملوكي، وفي محصلة مسيرته العلمية ترك ابن تغري بردي مصنفات كثيرة يمكن القول بأن كتاب المنهل = الصافي والمستوفي بعد الوافي وهو موضوع الدراسة يبقى الاعم والأشمل، كذلك كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، حوادث الهور في مدى الأيام والشهور، ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج1، ص 6-8

² - ينظر جدول رقم 2 ص 222-227

للتساؤل عن مدى إنفتاح المؤلف عن الفضاء المغربي وعن مدى إطلاعه على الأوضاع والحياة الثقافية والفكرية من خلال تراجم هؤلاء الاعلام.

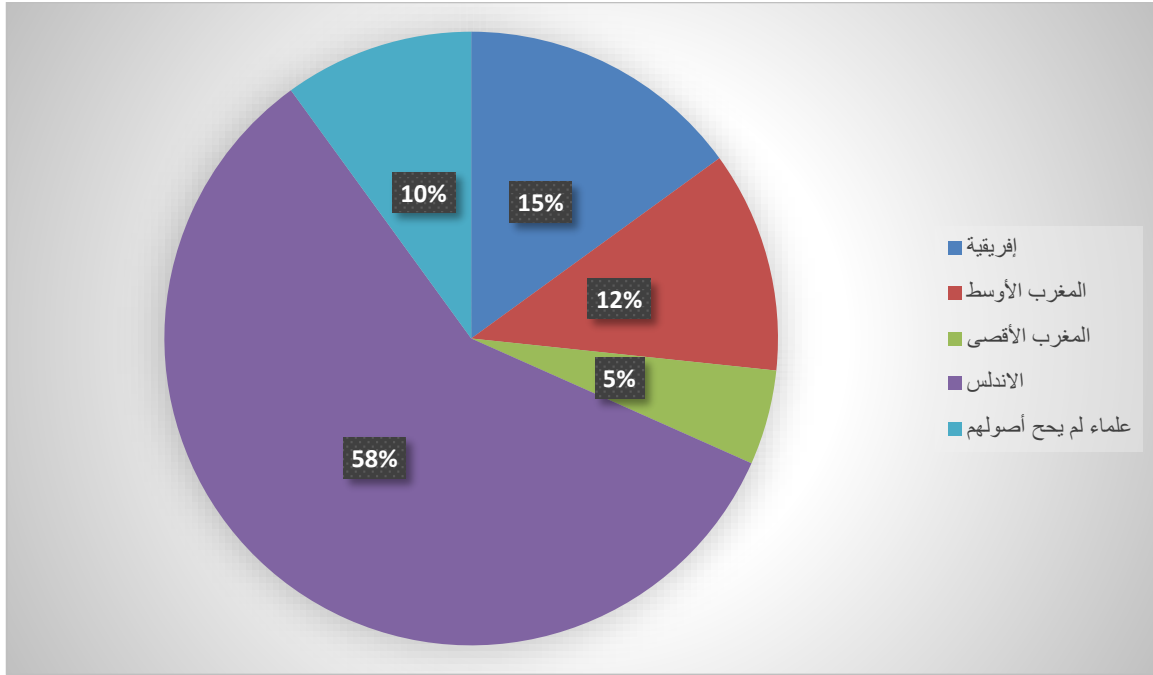
كما أنه يجب الإشارة الى أنه تم الإستعانة ببعض المصادر الأخرى المساعدة للتأكد من النسب الصحيح وأصولهم الجغرافية عبر مقاطعة النصوص فيما بينها.¹

ومن خلال إستخراج وإستيقاء التراجم المغربية من كتاب "المنهل" قمنا بتصنيف العلماء المغربية حسب أصولهم الجغرافية أي بحسب إنتشارهم على الخارطة المغربية وذلك على النحو التالي:

النسبة المئوية	عدد العلماء	الأصول
15%	9	إفريقية
12%	7	المغرب الاوسط
5%	3	المغرب الاقصى
58%	35	الأندلس
10%	6	علماء لم يحدد أصولهم
100%	60	المجموع

جدول رقم 3: التوزيع الجغرافي لعلماء المغرب من خلال كتاب المنهل الصافي

¹-لعل من أبرز المصادر نذكر: صلاح الدين خليل بن أبيك الصديقي: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1420هـ-2000م
-العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
-السخاوي: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع (مصدر سبق ذكره)



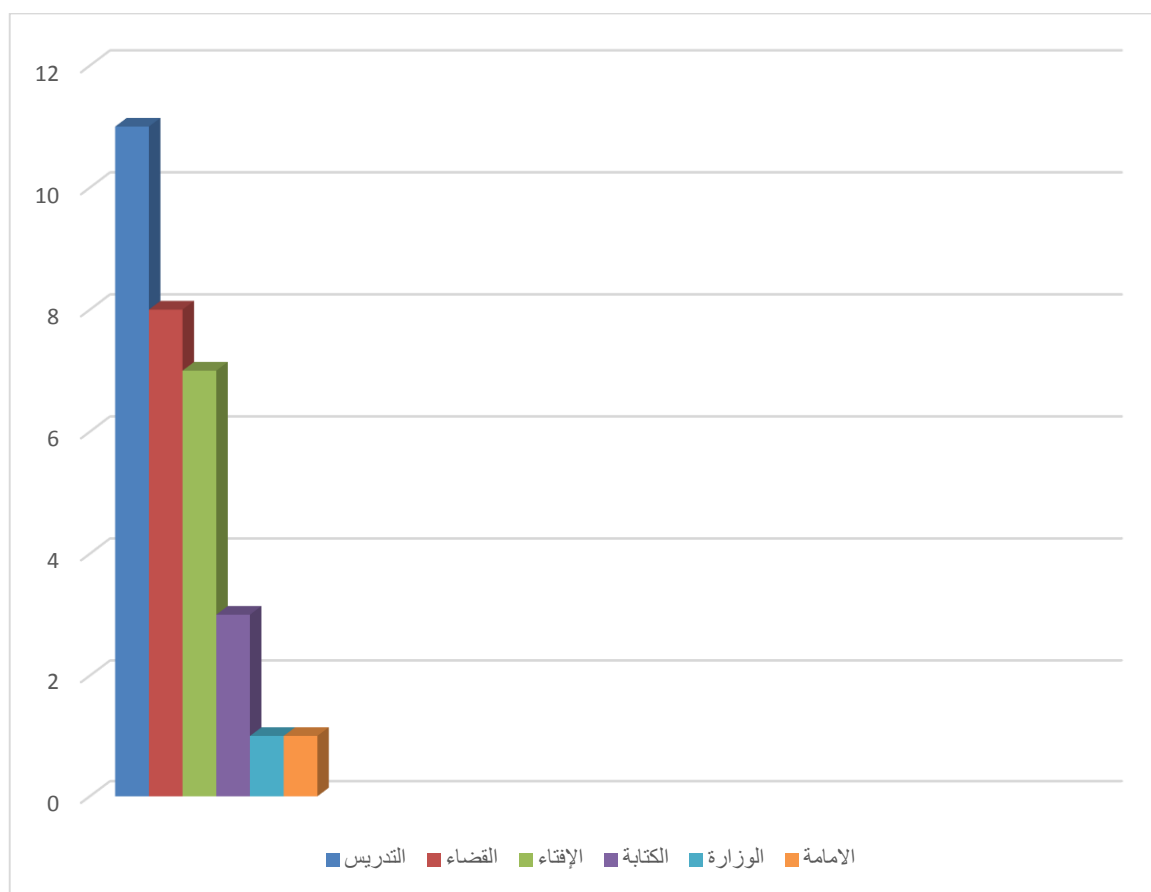
شكل رقم 1: يوضح التوزيع الجغرافي لعلماء المغرب

من خلال التمثيل البياني لتوزيع العلماء المذكورين في متاب المنهل الصافي يمكن ملاحظة أنه متفاوت بصفة واضحة من بلد لآخر، فكان نصيب الأندلس خمسة وثلاثين عالما إذ فاق نصف العدد الإجمالي بنسبة 58% تليها إفريقية فالمغرب الأوسط ، ليستقر العدد الأدنى من العلماء بالمغرب الأقصى، ولاشك فإن هذا التفاوت يعكس الى حد كبير تفاوت وتباين الوزن الثقافي بين هذه الأقطار ومدى إنتشار وإزدهار الحركة الثقافية بين هذه المجالات الجغرافية وقد يعكس كذلك مدى عناية إهتمام كل قطر من الأقطار بالحياة العلمية، وتوفير المناخ السياسي والاجتماعي الملائمين لإزدهار الحركة والحياة الثقافية ، ويبدو أن الأندلس عنيت بهذا الشأن أكثر من مثيلاتها بفارق واضح ، ولربما كان لإفريقية حظ كذلك بالاهتمام بهذا الجانب أكثر من نظيرتها في المغرب الأوسط والأقصى.

كما حاولنا كذلك من خلال هذا الكتاب رصد بعض الإحصائيات حول الوظائف التي تقلدها بعض العلماء المغاربة في حواضر بلاد المشرق، والتي قمنا برصدها في جدول يبين جميع المعطيات، وهي على النحو الآتي:

النسبة المئوية	عدد العلماء	الوظيفة
26%	8	القضاء
23%	7	الإفتاء
35%	11	التدريس
10%	3	الكتابة
3%	1	الوزارة
3%	1	الإمامة
100%	131	المجموع

جدول رقم 4: وظائف العلماء المغاربة التي تقلدوها ببلاد المشرق.



شكل رقم 2: يوضح وظائف العلماء المغاربة ببلاد المشرق

¹- هناك من العلماء من تقلدوا أكثر من وظيفة واحدة، وبالتالي ورد ذكرهم أكثر من مرة (أمثال ابن خلدون تولى القضاء والتدريس).

ويتضح من الجدول السابق الدور الوظيفي الذي لعبه العلماء المغاربة من خلال الخطط التي ولوا بها، لهذا نجد أن العلماء الذين تولوا وظيفة التدريس 11 عالما بنسبة 35% أما وظيفة القضاء فقد ضمت 8 علماء بنسبة 26% لينخفض عدد العلماء الذين مارسوا خطة الكتابة الى 3 علماء بنسبة مئوية تقدر ب 10% أما وظيفة الإمامة فقد إنفرد بها التوزري (ت 663هـ/1264م) والذي كان إمام المالكية بمكة المشرفة.

وبالتالي يمكن القول بأن العلماء المغاربة استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم مكانة ضمن خطط ووظائف مدن بلاد المشرق مما يؤكد على أهمية هؤلاء ومكانتهم العلمية المرموقة التي حظيت بالإحترام من طرف المشاركة.

نقد:

على الرغم من إقتصار هذا الكتاب على ظرفية تاريخية محددة تمتد على قرنين ونصف من الزمن إلا أنه يمكن القول إن ابن تغري بردي لم يستوعب جل تراجم العلماء المغاربة الذين عاشوا في تلك الفترة، وربما نجد ذلك مبررا لشساعة المجال الجغرافي المدروس، والذي يتسع الى أربعة أقاليم على غرار إفريقية والمغرب الأوسط، الأقصى والأندلس.

- كذلك نجد أن المغاربة الذين تم ذكرهم في كتاب المنهل الصافي والذين بلغ عددهم ستون عالما كانوا يدينون المذهب السني، وهو نفس المذهب الذي يتبعه المؤلف باستثناء عالما واحدا وهو ابن مسدي (ت 663هـ/1265م) الذي ذكر بأنه متشيعا.

كما أن ابن تغري بردي لم يلزم الحياد في كتابة تراجمه حول بعض العلماء بل جنح في عديد المرات الى إبداء آرائه ومواقفه الشخصية تجاه بعض العلماء تلك الآراء التي كان يحركها الوازع الديني والمذهبي ويظهر ذلك من خلال موقفه من ابن سبعين (ت 668هـ/1269م) أو شمس الدين الرركراكي (ت 793هـ/1391م)، وكذلك الشيخ الفرياني (ت 862هـ/1457م).

كذلك تبين لنا من دراسة هذا الكتاب إغفال أو عدم إستيعاب ابن تغري بردي لبعض العلماء كالمشدالي الذي أقام عشرين سنة بالمشرق، والصوفي ابن عرفة وغيرهما.

ونجد ابن تغري بردي إكتفى في بعض الأحيان في تحديد الأصول للعلماء المغاربة بكلمة مغربي، وهي كلمة عامة تطلق على كامل المجال الجغرافي لبلاد المغرب.

ويمكن أن نستخلص بعض الاستنتاجات من خلال ما تم دراسته من هذا الكتاب أنه:

- من خلال ما تم ذكره من معطيات يبقى نسبي للخلفيات الدينية والسياسية والمذهبية للمؤلف، ومن جهة أخرى فإن النتائج المتوصل إليها لا تتعلق بكل العلماء ولا تعكس حقيقة الحياة الثقافية خلال الفترة المدروسة.

كما أن التفاوت الكبير للعلماء الذين ارتحلوا الى بلاد المشرق وما أمدته أقطار الغرب الإسلامي لبلاد المشرق، نجد الأندلس حظيت بنسبة 58% من العدد الإجمالي للعلماء وربما يعود ذلك الى التراث العلمي المتراكم منذ العصر الأموي والذي أسس لحياة ثقافية ازدهرت طيلة قرون.

- كما نجد أن العلماء المغاربة كانوا يحظون بتكوين علمي غزير ومتنوع رغم هيمنة العلوم الدينية على ثقافة العلماء المغاربة، وذلك على حساب الحقول العلمية الأخرى، وهذا قد يعكس نمط الثقافة السائدة آنذاك في بلاد المغرب الإسلامي، لكن هذا لم يمنع بعض العلماء من الإلتفاف الى علوم أخرى كالطب، الفلسفة، الرياضيات، الفلك، كما نجد أن العلماء المغاربة الذين تم ذكرهم والترجمة لهم قد اتسعت ثقافتهم لأكثر من علم، وهو ما يؤكد على موسوعية العالم المغربي بإستثناء (ت 669هـ/1270م) الذي عني بعلوم العربية.

- تبقى الدراسة التي قمنا بها نسبية ومحدودة تظل دوما في حاجة الى النقد والإثراء لاسيما في دقة الإحصائيات والإلمام بأهم العلماء، فربما سهوا منا أغفلنا على بعض العلماء والشخصيات الفاعلة آنذاك.

ولعل ما يمكن أن نتساءل حوله كذلك هو: هل كان هناك حضور مشرقى ببلاد المغرب بصفة عامة وإفريقية بشكل خاص؟ وإن وجد هل هو بنفس ذلك التواجد المغربي في بلاد المشرق؟

إن الحديث عن حضور مشرقى في إفريقية خلال العهد الحفصي يندثر الحديث عن هؤلاء بإستثناء وجود عابر لبعض المتصوفة على غرار العراقي الرحيلي، وهو محمد بن أبي بكر بن رشد البغدادي، أبو عبد الله الرحيلي الواعظ صاحب القصائد المعروفة بالوترية، قدم مصر

والإسكندرية وأعاد بنظامية بغداد وجلس للوعظ بالإسكندرية بالجامع، وكان عارفاً بالفقه والخلاف ثم دخل إفريقية وأقام بها وتجول بالمغرب ودخل مراكش ورجع وحج وعاد إلى المغرب، فتوفي بتنيس (مصر) بعد قدومه من الحج في أواخر سنة 662هـ/1263م.¹

كما نجد فتح الله العجمي الخرساني نزيل تونس ويسمى أحمد كان أحد العلماء العارفين، دخل المغرب في سنة تسع عشرة وثمانمائة، فأقام بتونس وله بها مآثر من زوايا ونحوها بل بجبل المغرب، وصارت له شهرة حتى مات سنة 840هـ/1436م.²

والغبريني³ يذكر إثنين من الصوفية أصيلي الموصل تقي الدين الموصلية الذي استقر ببجاية في مدة الشيخ أبي الحسن الحرالي (ت 637هـ/1239م أو 638هـ/1240م)، وأبو زكريا المرجاني الموصلية الذي كان يجتمع إليه الأفاضل والصلحاء والمتعبدون في مسجده المعروف بمسجد المرجاني.

أما من مصر نجد ميمون الوفائي والمنتسب إلى الطريقة الوفائية، فقد أتى من مصر تقريبا خلال النصف الثاني من القرن 8هـ/14م، واستوطن إفريقية وبالضبط في صفاقس.⁴

وكان ابنه علي الكراي "أبو بغيلة" من أعيان فضلاء صفاقس أخذ الفقه من شيوخ صفاقس ثم إنتقل إلى القيروان، كان معاصرا للصوفي ابن عروس وينتسب إلى الطريقة الوفائية.⁵

ونجد أبا العباس الجدلي الشريف من إصبهان دخل بلاد المشرق والصين والهند وبلاد المغرب، فوصل إلى إفريقية في خلافة المستنصر بالله، كما قدم إلى بجاية وأقام بها مدة.⁶

¹-المقريزي: المقفى الكبير، تح: محمد البعلوي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1411هـ-1991، ج5 ص 437

²-السخاوي: الضوء اللامع، المصدر السابق، ج6، ص 167

³-عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديد، ط2، بيروت، 1979، ص178-180

⁴-بن ميلاد لطفي: أثر العامل المشرقي في الثقافة بإفريقية من قدوم الهلاليين إلى نهاية العصر الوسيط، مجلة المشكاة، مجلة علمية محكمة تصدر سنويا عن جامعة الزيتونة، عدد7، 2007، ص 435.

⁵-محمود مقديش: المرجع السابق، ج2 ص 330-331

⁶-الغبريني: المصدر السابق، ص 183-184

أما عن رحلة عبد الباسط¹ فلا يمكننا الجزم بأنها رحلة علمية أو ثقافية الى إفريقية الحفصية خاصة وأن صاحبها سافر الى بلاد المغرب للتجارة، وتعتبر رحلته من بين أهم الرحلات التي إتجهت من مصر الى بلاد المغرب والأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حيث غادر الى الإسكندرية وعلى ظهر سفينة جنوبية في عام 866هـ/1462م.²

فنزل طرابلس ثم قصد تونس التي وصلها في يوم الأربعاء 12 ذي القعدة 866هـ/ 8 اوت 1462م بعدما بقوا في البحر ثلاثا وثلاثين يوماً.³

وسوف نتناول البعد العلمي والثقافي في رحلة عبد الباسط كذلك دخوله ونزوله بتونس.

ففي ترجمته التي يوردها السخاوي نجد أن عبد الباسط بن خليل قبل وصوله الى إفريقية كان قد تنقل في حواضر المشرق طلباً للعلم ولأزم العديد من الشيوخ ودخل المغرب ومنه إفريقية فأخذ دروساً في النحو والكلام والطب، بل أتقنه بخصوصه مع جماعة.⁴

ويورد عبد الباسط نفسه بعض العلماء بحضور بعض الشيوخ في جامع الزيتونة ورافقه العديد من الشعراء والأدباء الذين كانوا موجودين في مدينة تونس.⁵

ويشير الأستاذ بن ميلاد على أن عبد الباسط أتم الربع الأخير من القرن 9هـ/15م (871هـ- 1475م/902هـ-1502م) تلميذاً عند السخاوي في القاهرة الذي كان أستاذاً له وشاهداً حياً

¹ -عبد الباسط: ولد عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشخي الأصل الملطي ثم القاهري الحنفي، ولد في رجب سنة أربع وأربعين وثمانمائة بمطية ونشأ بها وبحلب ودمشق، فقرأ في دمشق بعد بلوغه القرآن ببعض القراءات ثم حفظ منظومة النسفي والكنز، قدم القاهرة ولأزم شيوخها ليرحل بعدها الى بلاد المغرب. السخاوي: الضوء اللامع: المصدر السابق، ج4، ص 27/ السخاوي: وجيز الكلام، المصدر السابق، ج3، ص 928/ السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك، 1927، ص122

² -أغناطيوس يوليانيوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله الى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ج1، ص 445

³ -«Abada -Rebort brunchvig: Deux récit de voyage inédits en Afrique du nord au xv siècle» Larose éditeurs .paris1936 p 17

⁴ -السخاوي: الضوء اللامع، المصدر السابق، ج4 ص 27

⁵ -بن ميلاد لطفي: أثر العامل المشرقي، المقال السابق، ص 436

على ولع عبد الباسط بالعلم، فيذكر عنه أنه شارك في الفضائل وألف ونظم ونشر وأقبل على التاريخ وعلى دروسه.¹

ولعل هذا ما يؤكد بأن رحلة عبد الباسط بن خليل الى بلاد المغرب الإسلامي ومنه الى إفريقية كانت رحلة علمية رغم ظاهرها التجاري.

ويمكن أن نفسر هذا العزوف من قبل المشاركة الى الإضطرابات المتواصلة التي عرفتها إفريقية من أواسط القرن 5هـ/11م نتيجة قدوم الهلاليين ثم النورمان ومن بعدهم الموحدين على إستقرار المشاركة.

إضافة الى أن المشرق في ظل هذه الفترة قد أعاد واسترجع نهضته الفكرية والثقافية مقابل العزلة الفكرية لبلاد المغرب عن المشرق نتيجة للأوضاع السياسية المضطربة بين البلدين مما قلص من وجود رحلات مشرقية علمية نحو بلاد المغرب في حين كانت رحلات المغاربة الأكثر فاعلية ونشاطا نحو حواضر بلاد المشرق.

ومن هنا يتبين أن الرحلة كانت العنصر الأساسي في نقل العلوم والمعارف والأفكار بين المشرق والمغرب، وأسهمت في إستمرارية التواصل والتبعية الروحية لبلاد المغرب نحو المشرق في ظل الظروف المضطربة بين البلدين، لتشكل الرحلة بذلك إنفتاحا وإنطلاقا في المعرفة العربية وتبادلها بين الجانبين على إختلاف أنواعها.

¹ - بن ميلاد لطفي: أثر العامل المشرقي، المقال السابق، ص 436

المبحث الثاني: انتشار المذاهب والفرق الدينية.

1- إنتشار المذاهب السنية.

يعتبر المجال الجغرافي لإفريقية من أكثر المناطق الحضارية تأثيراً وانفعالا للتحويلات الثقافية والسياسية الحاصلة في المشرق الإسلامي.

وهذا التواصل المستمر يتم عن طريق العلماء وطلاب العلم والحجاج والتجار فمنذ القرون الأولى انتقلت حركات الأفكار والمذاهب والفرق الكلامية كالخوارج والاباضية والمعتزلة والشيعة والمرجئة وغيرهم من المشرق الإسلامي إلى المغرب.¹

أي أن حركة المذاهب السنية لم تكن وليدة العهد الحفصي بل كانت قد انتقلت عن طريق الرحلات الدؤوبة لطلاب العلم المغاربة إلى المشرق، الذين اخذوا عن أئمة هذه المذاهب أو تلاميذهم و عادوا بها الى المغرب و عملوا على نشرها كالمذهب المالكي، الذي مر بفترات عصبية كادت أن تعصف بوجوده في بلاد المغرب حيث سعى الاغالبية لنشر المذهب الحنفي بتونس معبرين بذلك عن ضمير الولاء للخلافة العباسية، أما الفاطميين فقد عملوا على حمل المالكية لاعتناق المذهب الشيعي، في حين اتخذ الموحدون المذهب الظاهري الذي حاولوا فرضه على المذهب المالكي.²

إلا أن هذه التيارات الفكرية لم تترسخ لدى المغاربة مقارنة بالمذهب المالكي على الرغم من مناهضته من طرف السلطة الحفصية في بداية انبعاثه في هذا العصر، حيث كانوا يعملون في اغلب الأحيان تحت غطاء الأصول التي لم يستطيع المذهب الموحي المتبع من طرف الحفصيين إنكارها.³

¹ - محمد الكحلوي: الفكر الصوفي بإفريقية في القرن التاسع الهجري الخمس عشر الميلادي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه موحدة في اللغة والآداب العربية، كلية الآداب والفنون والإنسانيات جامعة منوبة، 2005 - 2006 م، ص 64.

² عمر الجبدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، د ن، ط 1، 1993، ص 41.

³ - محمد لولو: القضاء بإفريقية في العهد الحفصي، المعهد العالي للعلوم الإنسانية بتونس قسم العربية، جامعة تونس، المنار، تونس، 2013 م، ص 183.

إلا أن هذه الأفكار المذهبية المالكية يبدو أنها استطاعت التأثير على السلطة وذلك من خلال تسلل هذه الأفكار لدى بعض موظفي البلاط كابن أبي الدنيا الصفدي¹ صاحب المدرسة المالكية بطرابلس وعهد له بقضاء الجماعة سنة (679 هـ - 680 هـ / م 1280-1281م) وقد ناد بالرجوع إلى مدرسة سحنون، وأحرز المالكية نجاحاً كبيراً.²

وأرجع البعض هذا الموقف اللين الذي تعامل به الحفصيون في تقبل المذهب المالكي خاصة من طرف السلطة الحفصية، إلى موقف المشرق الاسلامي لإعترافهم بخلافة الحفصيين للمسلمين³.

كما أنشأ الحفصيون المدارس لتكوين موظفين منسجمين مع السلطة القائمة، ولا شك أن تولي القضاة المالكية كان لهم دوراً بارزاً في التمكين لهذا المذهب بإفريقية، وقد عملوا على تخفيض أحكامه عبر مفاهيم ثابتة والتوفيق بينه وبين متطلبات العصر وعادات وأعراف البلاد.⁴

بالإضافة إلى ذلك فقد بذل العلماء الحفصيين أمثال ابن عرفة وغيره التعمق في هذا المذهب وتطويره بما يتناسب مع مستجدات العصر.⁵

و قد لعب شيوخ الموحدين دوراً فاعلاً في السلطة الثقافية في العصر الحفصي، غير أن المذهب المالكي كان متجذراً لدى المغاربة ، ومنذ القرن السابع الهجري والثالث عشر ميلادي نشطت المدرسة المازرية بالمهدية التي عرفت بتفتحها على الأدب و الشعر و معارضتها للتيار الصوفي وكان من ممثليها ابن الخباز و قاضي الجماعة ابن البراء و أبو العباس أحمد اللباني و بانتقال أعلام المالكية من هذه المدرسة إلى تونس عملوا على فرض المذهب المالكي، و بالتالي فقد إنتشرت حلقات الدروس في المساجد و المدارس لتدريس الفقه المالكي و المدونة

¹ - ابن أبي الدنيا الصفدي (ت 606-684 هـ / م 1210-1285م): عبد الحميد ابن أبي البركات ابن أبي الدنيا الصفدي الطرابلسي نزيل تونس، محدث وفقه ولد بطرابلس الغرب وتفقّه بها على يد ابن الصابون ورحل إلى المشرق مرتين سنة 624 هـ / 1227م والثنية سنة 633 هـ / 1237م. محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1982، ج 2، ص 309.

² - محمد لحلو: المرجع السابق، ص 184.

³ - عبد العزيز الدولاتي: أعلام ومعالم، المعهد الوطني للتراث، د ط، 1997 م، ص 79.

⁴ - محمد لحلو: المرجع السابق، ص 185.

⁵ - محمد الهادي الشريف: تاريخ تونس، دار سراسر للنشر، ط 3، تونس، 1993م، ص 60.

لابن سحنون (ت240 هـ/850م) ، وبعض المؤلفات التي تم جلبها من المشرق في المذهب المالكي "كمختصر ابن الحاجب"، و"مختصر الخليل" وغيرهم ، وقد إجتهد العلماء المغاربة في الفقه المالكي حتى قيل عن إسماعيل القاضي المالكي، لم يبلغ في هذه الملة أحد بعد الأئمة الأربعة رتبة الإجتهد غير إسماعيل القاضي.¹

ومنذ القرن الثامن الهجري /الرابع عشر ميلادي، وقبل تخلي ابن اللحياني عن مظاهر المذهب الموحدى أصبح الفقهاء السنيين يسيطرون دون منازع على كافة المؤسسات الدينية الرسمية وكانوا يدرسون المذهب المالكي ويحتلون مناصب القضاء والفتوى وقاضي الجماعة مثل: العالم إبراهيم بن عبد الرفيع أصيل الحاضرة تولى خطة القضاء، ثم تولى قضاء الجماعة بالعاصمة خمسة مرات على التوالي سنة 699 هـ -1300م إلى سنة 733 هـ -1333م وفرض الفقه المالكي من خلال منصبه.²

والجدير بالذكر هو انتقال ثلة من العلماء والفقهاء وطلبة العلم إلى المشرق الإسلامي، خاصة بعد سقوط الفاطميين بمصر سنة 567 هـ/1171م، وبعد استقرار الوضع تم نقل المذهب المالكي ونشره ببلاد المغرب في الفترة الممتدة ما بين القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع أمثال الرازي (543 هـ-606 هـ/1149م-1210م)، إلكيا الهراسي³ (ت 504 هـ/1110م) وأبو بكر الشاشي (ت507 هـ/1113م)، والمبارك بن عبد الجبار (ت 500 هـ/1106م)، والعز بن عبد السلام قاضي الشافعية بمصر والشام (ت577 هـ-660 هـ/1181م-1262م)، ابن تيمية (ت728 هـ/1327م)، وأبو علي الصديقي (ت514 هـ/1120م)، وأبو بكر بن العربي (ت 543 هـ/1148هـ).⁴ وهؤلاء الأعلام مهدوا لإنتشار المذهب المالكي وإحيائه ببلاد المغرب في العصور التي تلت ذلك.

1 - الونشريسي: المصدر السابق، ج 2، ص 170.

2 - محمد لحو: المرجع السابق، ص186.

3 - إلكيا الهراسي (450 هـ-504 هـ): هو علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري الملقب بعماد الدين المعروف بإلكيا الهراسي، فقيه شافعي، مفسر، أصولي ومتكلم تفقه على إمام الحرمين وهو أجل تلاميذه بعد الغزالي، حدث عن شيخه وأبي علي الحسن ابن الصفار وغيرهم ودرس بالنظامية ووعظ. من تصانيفه: "أحكام القرآن"، و "التعليق في أصول الفقه" وغيرهم من المؤلفات. يحي مراد: معجم تراجم أعلام الفقهاء، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1425 هـ -2004م، ص 26.

4 - لطفي بن ميلاد: أثر العامل المشرقي، المقال السابق، ص316.

وقد تواصل انتقال طلبة العلم والفقهاء والعلماء المالكية وغيرهم إلى المشرق الإسلامي سواءً لأداء فريضة الحج، أو الانتقال بين الحواضر العلمية خلال العهد المملوكي للأخذ عن الشيوخ والعلماء المالكية والمذاهب الأخرى، فقد وجدت أحياء خاصة بالمغاربة بالقرب من الجامع الأزهر وهو ما أدى إلى ربط علاقات وطيدة بين علماء إفريقية والمماليك، إذ أن هناك الكثير من العلماء الذين لجؤوا إلى سكنى المدارس والزوايا بالقاهرة أمثال: البرزلي الذي سكن غرفة بمدرسة شيحون عند الذهاب إلى الحجاز وفي العودة سكن المدرسة المنتصرية بالقصرين بالقاهرة.¹

ومن بين العلماء والفقهاء المالكية الذين ارتحلوا إلى المشرق أبو علي حسن بن أبي القاسم ولد سنة 701هـ/1301م وتوفي 787هـ/1385م من أسرة ابن باديس الصنهاجية كان قاضياً ومحدثاً وفقهياً مالكيًا، تعلم بقسنطينة ثم بجاية، وارتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج والاستزادة وتحصيل العلوم، فنزل بالقاهرة وغيرها من الحواضر العلمية وتولى قضاء الجماعة بتونس سنة 778هـ/1376م ثم أعفي منه فعاد إلى مدينة قسنطينة وشغل نفس الوظيفة وقام بشرح كتاب تقاليد.²

عبد السلام بن علي الزواوي ابن سيد الناس (ت589هـ-681هـ/1191م-1282م) ، الزواوي المالكي المقرئ شيخ القراء في زمانه بدمشق و شيخ المالكية ومفتيهم وقاضيهم، وهو بجائي المولد إنتقل إلى الإسكندرية و قرأ على أبي القاسم بن عيسى، وأخذ العربية عن أبي عمر و بن الحاجب ثم قدم دمشق فقرأ القراءات عند السخاوي، وسمع منه وبرع في الفقه وعلوم القرآن والزهد والتصوف، كان إماماً زاهداً ورعاً درس وأفتى وولي قضاء الشام، وقد قرأ عليه الشيخ برهان الدين الاسكندراني، والشيخ شهاب الدين الكغري، وتقي الدين أبو بكر الموصلي والشيخ محمد المصري وله مصنف في " الوقف و الابتداء".³

¹ - البرزلي: المصدر السابق، ج 11، ص112.

² - محمد قويسم: فقهاء مدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي 625 هـ-981 هـ /1227م-1573م، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة سكيكدة، الجزائر، 2015م، ص154.

³ - الغريبي: المصدر السابق، ص 178.

حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنذ القسنطيني، فقيه وخطيب ومحدث مالكي تعلم بقسنطينة ثم بجاية وهو والد احمد ابن قنذ القسنطيني، ارتحل إلى المشرق لطلب العلم وأداء فريضة الحج توفي سنة 750هـ/1349م بسبب الطاعون.¹

الإمام ابن عرفة:² أحد أعلام المذهب المالكي ولد بتونس سنة 716هـ/1316م، درس العلوم الدينية بجامع الزيتونة الأعظم فقرا على الشيخ محمد بن سلامة بن عبد السلام، كان بارعاً في اللغة العربية والفقه والأصول، والقراءات والفرائض، وكان ملازماً للشيخ ثم تولى إمامة جامع الزيتونة سنة 722هـ/1370م قلده السلطان أبو العباس، ثم ترقى إلى الإفتاء في السلطنة الحفصية وكان يفد عليه طلاب العلم من الشرق والمغرب، وله العديد من التأليف منها: "مختصر في الفقه المبسوط"، «ومختصر في علم الكلام»، ومن أعماله الجليلة إنشائه لخزانة الكتب بجامع الزيتونة وأوقف عليه آلاف المجلدات.

الأبي المالكي (ت 827هـ / 1424م):³ وهو محمد بن خليفة بن عمر أبو عبد الله التونسي محدثاً وفقهياً حافظاً ومفسراً، ولي قضاء الجزيرة سنة 808هـ/1405م، أخذ عن ابن عرفة ولازمه وكان من أعيان أصحابه ومحققهم، كما أخذ عن جماعة من الأئمة كالقاضي عمر القلشاني، وأبي القاسم ناجي وعبد الرحمن المجدولي ومن تصانيفه "شرح المدونة" في فروع الفقه المالكي و"إكمال الإكمال" في شرح صحيح مسلم وغيرهم من المؤلفات.⁴

ابن راشد القفصي:⁵ ففي الوقت الذي مال فيه العديد من العلماء الحفصيين إلى الإهتمام بطلب العلم من أجل المناصب السياسية كالقضاء، بالإضافة إلى عدم الإستقرار الذي كانت تعيشه الحضرة الحفصية حيث تحول هذا العالم للمشرق الاسلامي، و بالضبط إلى مصر بحثاً عن مناهل العلم، خاصة إن مصر في تلك الفترة كانت تمثل مركزاً للإشعاع الأدبي والفكري كما صرح بنفسه أن رحلته إلى مصر كانت لطلب العلم، وقد نزل في البداية بمصر ثم إنتقل إلى

1 - الغبريني: المصدر السابق، ص 180

2 - ابن مريم: المصدر السابق، ص 206

3 - يحي مراد: معجم تراجم الفقهاء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1425هـ، 2005 م، ص 8.

4 - أحمد بابا التتبيكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (963هـ-1036م)، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، ط2، طرابلس، 2000م، ص 287.

5 عبد الباسط فؤاد: ابن راشد القفصي وأثاره العلمية، الدار التونسية للكتاب، ط1، تونس، 2011 م، ص 77، 78.

السكندرية و منها توجه إلى القاهرة، ثم إنتقل إلى الحجاز لأداء مناسك الحج، وبعدها رجع إلى الإسكندرية و بقي بها مدة طويلة .

وظل ينتقل بين علمائها و فقائها لأخذ العلوم منهم، حيث يصف القاهرة والإسكندرية بأنها تفوقان الحجاز بكثرة الشيوخ البارزين من المذهب المالكي، ومن بين الشيوخ الذين أخذ عنهم بالإسكندرية نذكر منهم قاضي القضاة ناصر الدين بن منير، والكمال بن التنسي و يدعى مالك الصغير وغيرهم ثم إنتقل إلى القاهرة وأخذ عن القرافي، و كان يجمع بين المذهب المالكي و الشافعي، ويذكر انه عند عودته إلى إفريقية، كان محملا بعلم كثير و فوائد غزيرة نضجت بها ملكته وازدهرت بها شخصيته العلمية، كما ساهم في تكوين مجموعة من الطلبة بالحضرة التونسية ، بالإضافة إلى ما تركه من الآثار العلمية.¹

ومن المؤكد إن حركة العلماء وطلبة العلم والفقهاء الحفصيين وانتقالهم إلى المشرق الإسلامي خلال العهد المملوكي بصفة عامة أو إلى مصر بصفة خاصة أدى إلى حالة من التأثير والتأثر الذي مارسه هؤلاء العلماء سواءً كان ذلك بالمشرق أو المغرب.

أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الصالح محمد بن عرفة الورغمي التونسي: إمامها وخطيبها بجامعة الأعظم خمسين سنة، أخذ عن أكثر من الأئمة والشيوخ وحج سنة 792 هـ وأخذ عنه الكثير من المصريين والمدنين، وله العديد من التأليف في فنون العلم منها: "المختصر في الفقه" و "الحدود الفقهية" شرحها الرصاع وواختصر فرائض الحوفي وتأليف في الأصول عارض به طوابع البيضاوي و "مختصر في المنطق والتفسير" وتولى إمامة جامع الزيتونة سنة 756 هـ والخطابة به سنة 772 هـ والفتيا 733 هـ وتوفي سنة 803 هـ/1400 م ويتبرك به.²

فقد شاعت الكثير من أفكار علماء مشاركة معروفة لدى أهل إفريقية عن طريق مصنفات عديدة كتأليف ابن عرفة، والبرزلي، والأبي وغيرهم من شيوخ المدرسة المالكية خاصة لدى هؤلاء الذين لم تقتصر رحلتهم على الحج فقط، وإنما إستقروا بمصر لمدة طويلة للدراسة وطلب العلم أمثال

¹ - عبد الباسط فؤاد: المرجع السابق، ص 89-90-94

² - مخلوف: المصدر السابق، ج1، ص 327، 326.

أبا زكريا البرقي المهدي، وأبا يوسف يعقوب الدهماني¹، وأبا العباس أحمد التيفاشي، و ابن راشد القفصي².

وتجدر الإشارة إلى أن ما تعرضنا له من ذكر للعلماء والفقهاء الحفصيين المرتحلين إلى المشرق الإسلامي خلال العهد الحفصي ماهي إلا عينة قليلة من ثلة العلماء الذين عرفوا بإرتحالهم الى حواضر المشرق الإسلامي خلال العهد الحفصي بالإضافة إلى تنوع أهداف هذه الرحلات ومدتها وأماكن تنقلاتهم أو إستقراهم.

وفي المقابل نجد أن الحياة الدينية بمصر في عصر سلاطين المماليك شهدت نشاطاً دينياً خاصة أنها غدت قاعدة الخلافة العباسية ومقصداً للمسلمين من المشرق والمغرب، في الوقت الذي لا تزال فيه مصر تعرف أثر التشيع في أوائل عصر المماليك على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين وخلفاؤه في دعم المذهب السني عقب إسقاط الخلافة الفاطمية، إلا أن سلاطين المماليك قاموا بالقضاء على المذهب الشيعي، حيث قام السلطان الظاهر بيبرس سنة 665 هـ/1267م من منع أي مذهب من أي نشاط عدا المذاهب السنية الأربعة³.

فلا تقبل شهادة ولا يتولى أحد خطة القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس إلا من يعتنق أحد المذاهب الأربعة، كالمذهب المالكي والحنفي والحنبلي والشافعي⁴.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان لأئمة المذاهب الأربعة مشاركة في البلاط السلطاني ومكانة كبيرة حيث جرت العادة أنه عند جلوس السلطان بإيوانه الكبير المسمى بدار العدل يجلس على يمينه قاضي القضاة من المذاهب الأربعة ثم بقية موظفي الدولة ورجالها⁵.

¹ - أبو يوسف يعقوب ابن الخليفة الدهماني: صوفي من كبار الشيوخ سمع الفقه على الشيخ أبي زكريا ابن عوانة ولازم مجلسه، وسمع الحديث على أبي محمد عبد الله ابن حوط الله وغيره، رحل إلى بجاية للقاء أبي مدين شعيب ابن موسى، ثم رحل إلى الحج سنة 595 هـ، لقي العديد من الشيوخ الصوفية وله الكثير من الكرامات، نزل بمصر ولقي بعض شيوخها، ثم رجع إلى القيروان، ونشر به ما أكتسبه. ابن الدباغ: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الاسيدي الدباغ (605 هـ - 696 هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح: محمد ماضود، المكتبة العتيقة بتونس، د ط، دس، ج3، ص 213.

² - محمد حسن: المرجع السابق، ص 699.

³ - سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 320.

⁴ - ابن إياس: المصدر السابق، ج7، ص 134.

⁵ - القلقشندي: المصدر السابق، ج4، ص 44.

ولم يقتصر تولية أئمة المذاهب الأربعة في خطة القضاء بمصر بل كانوا يتوزعون في جميع أقاليم الدولة المملوكية وكان أعلاهم القاضي ذو المذهب الشافعي وكان يتولى الأوقاف وتولية النواب بجميع نواحي دمشق وحتى في غزة ويليه الحنفي ثم المالكي والحنبلي، كما كان هؤلاء الأئمة يتولون قضاء العسكر وإفتاء دار العدل وغيرها من المهام.¹

وقد برز بمصر الكثير من شيوخ المالكية أمثال القرافي، وابن دقيق العيد²، وناصر الدين بن منير والكمال التنسي وساهموا في نشر وترسيخ المذهب المالكي بالمشرق الإسلامي وكذلك العلوم النقلية والعقلية وتلقيها سواءً لطلبة المشرق أو المغرب حيث تفقه على أيديهم الكثير من طلبة العلم من مختلف أنحاء الدول الإسلامية.³

ونظراً لإنفتاح المماليك وتقبلهم للمذاهب الأربعة، حيث كان يعين لكل مذهب قاض خاص به يتولى رعاية شؤون معتقي هذا المذهب، وكان ذلك متبعاً في جميع الأقاليم المملوكية.⁴

وقد وجدت العديد من دور العلم والزوايا والمساجد بمصر، التي عكف فيها هؤلاء العلماء على تدريس المذاهب الأربعة والفقهاء وتفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.⁵

وتولى العديد من المغاربة قضاء المالكية بالمشرق أمثال زين الدين عبد السلام الزاوي (ت 664هـ/1266م) بجائي الأصل، وجمال الدين (ت 717هـ/1313م)، وقد ساهم هؤلاء الفقهاء والقضاة المالكية بالمشرق في تدريس المذهب الملكي، حيث قام محمد بن سليمان الزواوي (ت 717هـ/1313م) القاضي المالكي بدمشق بتدريس المذهب المالكي بمدرسة الصمصامية ثم بالمدرسة النورية، كما درس ابن عرفة بالإسكندرية الفقه المالكي سنة 803هـ/1401م بالإضافة إلى الدور البارز الذي قام به ابن زيتون (ت 691هـ/1291م) في التدريس بالمدرسة الفاضلية ومدرسة ابن شكر بالقاهرة، بالإضافة إلى ابن القوبع 738هـ/1340م الذي عمل بالتدريس في

1 - الفلقشندي: المصدر السابق، ج4 ص44.

2 - ابن مريم: المصدر السابق، ص189.

3 - عبد الباسط فؤاد: المرجع السابق، ص 88، 90.

4 - الفلقشندي: المصدر السابق، ج 4، ص35. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج 7، ص121. ابن

جبير: المصدر السابق، ص 220.

5 - المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج 3، ص201.

العديد من المدارس بالقاهرة و أصبح يلقب بمفتي المالكية، وأبو القاسم الزواوي الذي كان يدرس فقه المالكية بالجامع الأزهر (ت 864هـ/1461م).¹

بالإضافة إلى القلشاني (ت 890 هـ/1485م) الذي كان شيخاً في البلاط السلطان المملوكي الأشرف قايتباي²، ولعلّ خير من مثل العلاقة بين الحفصيين والمماليك سواءً في المجال الدبلوماسي أو الثقافي، العلامة ابن خلدون الذي تولى التدريس بالجامع الأزهر الفقه المالكي³ كما تولى قضاء المالكية سنة 786هـ/1384م، ثم تولى قضاء المالكية للمرة الثانية سنة 801هـ/1398م إلى غاية سنة 803هـ/1400م، حيث كان يقوم بالتدريس، ورجع إلى منصبه مرة ثالثة كقاضي المالكية، وآخرها كان قبل وفاته بأيام.⁴

ولم يقتصر نشاط المذاهب السنية على المالكي فحسب خاصة في مصر، التي كانت تتقبل نشاط المذاهب السنية الأخرى، على العكس من ذلك بالنسبة لبلاد المغرب إذ تكاد تقريبا تنعدم وجود التيارات المذهبية السنية الأخرى، إلا أنه شكل المذهب الظاهري نوعاً من التأثير الثقافي في المشرق والمغرب، وتمثل هذا الأثر في تبني بعض العلماء طريقة الظاهرية في تفكيرهم وأسلوب نقدهم كالمقريري، والفخر الرازي وعبد الوهاب الشعراني.⁵

حيث يستمد المقريري روح الظاهرية خاصة في كتابة الحوادث التاريخية ونقدها وفحصها كما يعتمد كثيراً على الظاهر والواضح منها، في حين يعتمد الفخر الرازي في مناقشته لمخالفه على الأسلوب الحزمي، ويكتب بالأسلوب الظاهري، ونجد أن عبد الوهاب الشعراني متأثر بالأسلوب الظاهري حيث يورد نماذج من فقه داود ويظهر الرضى عنه.⁶

1 - ابن مريم: المصدر السابق، ص 129.

2 - الطويلي: الحياة الأدبية بتونس، المرجع السابق، ص 354.

3 - ابن خلدون: الرحلة، المصدر السابق، ص 304، 324، 329، 383.

4 - ناصيف ناصر: ابن خلدون ومنابع الحداثة، ج2، فعاليات الندوة العلمية التي أقامتها بيت الحكمة بمناسبة المئوية السادسة لوفاته، بيت الحكمة، تونس، 2008، ص 555

5 - أحمد بكير محمود: المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، دار قتيبية للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1411هـ-1990م،

ص 28

6 - نفسه

وانتقل الفكر الظاهري إلى بلاد المغرب منذ القرن الخامس للهجرة الحادي عشر ميلادي مع أفكار ابن حزم على الرغم من نشأته الشافعية.¹

ومن بين العلماء الحفصيين الذين كانوا متبحرين في الفقه نذكر محمد التركي التونسي (ت 894 هـ/1489م) وكان يسمى معجون الفقهاء لسعة علمه وكانت له مكانة مرموقة بمصر وكاد أن يلي القضاء.²

الشريف النعماني³: أحمد بن حسن بن علي الشريف شهاب أبو العباس الحسيني القسنطيني الأصل مصري المولد شافعي يعرف بالنعمان نسبة إلى أستاذه أبي عبد الله النعمان ولد سنة 754 هـ/1353م وأقام بزواوية أستاذه وقد إنتفع به طلبة العلم.

بالإضافة إلى قاضي الجماعة الشافعي في العهد الحفصي، وهو أبو فهد بن عيسى بن الشيخ الصالح أبي السبع يعقوب، وذلك من خلال ما ورد على نقيشة بحسب ما ذكره أحد المؤرخين.⁴

ومن بين العلماء الحفصيين الذين تحولوا إلى المذهب الشافعي وتولوا منصب قضاء الشافعية، لسان الدين ابن منظور إفريقي الأصل (711 هـ/1311م)، وكذلك العنابي الذي تحول من المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي بدمشق.⁵

وأما من الأحناف بمصر فقد كانت لهم أهمية كبيرة كغيرهم من أهل المذاهب السنية الأخرى، فقد كانوا يتولون المناصب العليا في الدولة كالقضاء، ولهم قاضي خاصاً بأصحاب هذا المذهب.⁶

¹-عبد الحليم عويسي: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، دار الزهراء للإعلام العربي، ط2، القاهرة 1409 هـ/1988م، ص89

²-أحمد الطويلي: الحياة الأدبية، المرجع السابق، ص 354

³-السخاوي: الضوء اللامع: المصدر السابق، ج1، ص 269

⁴-ابن عقيل: المختار المصون من أعلام القرون، دار الأندلس الخضراء، جدة، د.ت، ص344

⁵-نفسه، ص 186

⁶-لطفي بن ميلاد: أثر العامل المشرقي، المقال السابق، ص 336

ويعتبر المذهب الحنفي من بين أكثر المذاهب الأربعة إنتشاراً في بلاد المشرق، خاصة المناطق التابعة للخلافة، وقد دخل في صراع مع المذاهب الأخرى مما أدى إلى إنحصارها وإنقراض بعضها ليس بالمشرق فقط وإنما حتى بالمغرب.¹

ويعود انتقال هذا المذهب بالمغرب الإسلامي إلى القرن الثاني للهجرة /الثامن الميلادي وقد تمركز بصورة محدودة بالقيروان² وكان إنتقال المذهب الحنفي إلى بلاد المغرب بصفة عامة وإفريقية بصفة خاصة على يد أسد ابن الفرات، لكن هناك من يذكر أن هذا المذهب إنتشر قبل ذلك.³

وقد إستمرت آثار هذا المذهب إلى غاية العهد الزييري، وكانت منطقة المنستير بإفريقية مقراً للعديد من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الدين القادمين من المهدية والقيروان، ومن بينهم الشاعر والأديب والفقير أبا عبد الله بن إبراهيم بن عثمان الزناتي الحنفي، سكن المنستير بعد أن عاد من المشرق وقد تفقه في المذهب الحنفي ووضع له أبي زكريا الحفصي جراية وكان يحضر مجالسه بالمنستير.⁴

وقد برز من المنستير العديد من العلماء، منهم أبي عبد الله محمد الزناتي الحنفي الذي أنشأ مركزاً للتعليم المذهب الحنفي لأول مرة في تاريخ إفريقية، وعرف الزناتي الحنفي أنه الوحيد بإفريقية المشتغل بهذا المذهب.⁵

والملاحظ أن المذهب الحنبلي لم يكن له أتباع كثر بإفريقية أو أنهم قليلون جداً، فلم يصادفنا في هذه الدراسة انتقال للعلماء الحنابلة من المشرق إلى المغرب، أو أخذ المغاربة عن الفقهاء

¹ - ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح، مأمون نب محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت 1417هـ/1996م، ص 37

² - المقدسي: المصدر السابق، ص 337

³ - عبد المجيد بن حميدة: المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، ط1، تونس ، 1406هـ/1986م، ص 30

⁴ - أحمد الطويلي: في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة، ط1، تونس، دس، ص73.

⁵ - نفسه، ص74، 75.

الحنابلة بالمشرق، ولعل إن وجدوا فقد إستقروا بالمشرق وهو ما أدى إلى عدم إنتقال المذهب الحنبلي إلى بلاد المغرب.

إنتشار التصوف والفرق الصوفية:

لم تقتصر الحياة المذهبية بإفريقية أو بمصر على نشاط المذاهب السنية فحسب، بل تميزت هذه الفترة بظهور الطرق الصوفية واصطبغها بالصبغة الاجتماعية، وهي من أهم المظاهر التي ربطت بين الدولتين.

وترجع التأثيرات الصوفية المشرقية لبلاد المغرب إلى القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي ومن أهم العوامل التي أدت إلى هذه التأثيرات هي رحلات الحج وكذلك انتقال طلبة العلم والفقهاء والعلماء المغاربة إلى المشرق الإسلامي، ولعل من أكثر المدارس تأثيرا للتصوف على إفريقية في القرون الأولى من خلال أبي مالك الدباغ الصوفي (361هـ/971 م) الذي تتلمذ على يد الخراز من أقران الجنيد، بالإضافة إلى مدرسة الشام التي كان يقصدها العديد من صوفية القيروان.¹

وقد أدى ذلك بدوره إلى إطلاع المغاربة على المؤلفات الصوفية المشرقية كإحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي² ورسالة القشيري³ وقد كانت آخر تطورات الفكر الصوفي ظهور الطرق الصوفية بالمشرق وإنتقالها إلى المغرب. ولعل ذلك يعود إلى ازدهار الفكر الصوفي في العالم الإسلامي من جهة، وإلى كثرة شيوخه وأتباعهم من جهة أخرى، بالإضافة إلى الاختلاف الفكري بين أقطاب الصوفية، وبالتالي أدى ذلك إلى الانقسام والتفرع وظهور ما يعرف بالطرق الصوفية.

1 - نللي سلامة عامري: التصوف في إفريقية في العهد الحفصي من القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي إلى نهاية القرن التاسع /الخامس عشر ميلادي، أطروحة لنيل شهادة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1996م، ص96.

2 - الغزالي: وهو أبو حامد الغزالي نسبة إلى الغزال بالتشديد، وكان أبوه غزالا نسبة إلى " غزالة " قرية من طوس فقيه شافعي أصلي متكلم، متصوف رحل إلى بغداد فالحجاز والشام ثم مصر وعاد إلى طوس، من مصنفاته "البيسط"، " الوسيط " أو الخلاصة"، تهافت الفلاسفة " وكلها في الفقه وإحياء علوم الدين. يحي مراد: المرجع السابق، ص256.

3 - القشيري: أبو سعيد عبد الله بن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري وله أربعة وستون عاماً روى عن القاضي أبي بكر الجبيري. ابن مريم: المصدر السابق. ص112.

ومن بين هذه الطرق الصوفية، الطريقة القادرية¹ في بغداد أنشأها عبد القادر الجيلالي سنة 561هـ/1166م² والطريقة الرفاعية³ وقد أسسها الشيخ أحمد بن أبي الحسن بن العباس 587هـ/1191م وكانت نشأتها بالعراق ثم إنتقلت إلى مصر⁴، وكذلك الطريقة السهروردية التي أنشأها السهروردي (ت 631 هـ/1234م) وإنتشرت بمصر⁵، وغيرهم من الطرق الصوفية التي عرفت في العالم الإسلامي.

أما الطريقة الشاذلية⁶ التي أنشأها أبي الحسن الشاذلي سنة 656هـ/1258م، وهي أولى الطرق الصوفية المغربية، و قد عرفت انتشاراً كبيراً في الغرب و المشرق، وعلى الرغم من عدم تقبل أهل السنة لمعالم الفكر الصوفي ، لكن برز الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) الذي لم يتقبل الفكر الصوفي فقط بل أصبح من المدافعين عليه ، و يعتبر ابن عربي من كبار أعلام الصوفية (560هـ/1165م) وقد قضى عشرين سنة أو يزيد من حياته بدمشق و كان فقيها ثم انظم إلى المتصوفة في تونس، وأرتحل إلى المشرق وتولى التدريس بالحجاز و التأليف كذلك ثم إنتقل إلى دمشق وأستقر بها حتى وفاته 638هـ/1240م، وخلف الكثير من أتباعه و يعتبر من أهم حلقات الفكر الصوفي التي ربطت بين المغرب والمشرق⁷.

ومن بين أعلام التصوف الذين انتقلوا إلى المشرق في وقت مبكر شعيب بن أحمد بن جعفر بن شعيب أبو مدين⁸، وكذلك ابن أبو مدين شعيب بن الحسن الاشبيلي الذي إرتحل إلى الحجاز ثم

-
- 1 - ابن العماد: المصدر السابق، ج6، ص274، 273.
 - 2 - عبد الله بن دجين السهلي: الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وأثارها، كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، السعودية، 1426هـ، 2005م، ص12.
 - 3 - إحسان إلهي ظهيري: دراسات في التصوف، دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع، ط1، 1426هـ-2005م، ص229.
 - 4 - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج 6، ص 92.
 - 5 - نفسه، ج6، ص273. ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج6، ص334.
 - 6 - الحميري: المعروف بإبن الصباغ: درة الأسرار وتحفة الأبرار في أقوال وأفعال وأحوال ومقامات ونسب وكرامات وأذكار ودعوات سيد أبو الحسن الشاذلي، المكتبة الأزهرية للتراث، د ط، القاهرة، 2005 م، ص7.
 - 7 - نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين للطباعة، د ط، بيروت، نيويورك، ص190.
 - 8 - ابن مريم: المصدر السابق، ص 115. ابن الشماخ: المصدر السابق، ص56.

رجع إلى بجاية وتفرغ للعلم والزهد إلى غاية وفاته سنة 594 هـ/1198م ومن تلاميذه أبو يوسف يعقوب الدهماني وأبو علي النفطي والظاهر المزوعي¹.

ويتضح أن ارتحال هؤلاء الأعلام الصوفية المغاربة إلى المشرق ورجوعهم إلى إفريقية قد أدى إلى نشر الفكر الصوفي المشرقي وإتساعه في العالم الإسلامي مشرقه ومغربيه.

ومن أهم العوامل المساعدة على إنتشار الحركة الصوفية بالمغرب والمشرق هو تحول الكثير من الرباطات التي كانت مهمتها المراقبة البحرية إلى زوايا ينعزل فيها الصوفية لممارسة شعائهم وعباداتهم وقد كانت هذه الربط تمتد من الإسكندرية شرقاً إلى طنجة غرباً.²

وذلك دون شك أدى إلى تسهيل الاتصال والتواصل المستمر وإنتشار الفكر الصوفي في العالم الإسلامي.

وهو ما حدث بالقصر الكبير بالمنستير والرباطات بصفاقس³، كما أنشأت العديد من الزوايا التي عوضت وظائف الرباطات بمناطق أخرى بإفريقية⁴.

ونتيجة للتأثيرات المشرقية على الفكر الصوفي المغربي فقد أدى إلى ظهور بعض الفرق التي تتبع سلوكيات متشابهة في المشرق وإفريقية.⁵

كما عرفت مصر في هذه الفترة إنتشاراً لظاهرة التصوف حيث كان يفد عليها الكثير من المشايخ الصوفية وأغلب هؤلاء من المغرب والأندلس أمثال أبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري، والسيد أحمد البدوي الذين وجدو تربة صالحة لنشر أفكارهم ومذاهبهم.⁶

1 - محمد حسن: المرجع السابق، ص741.

2 - نفسه، ص735.

3 - نفسه، ص741.

4 - البزلي: المصدر السابق، ج1، ص 16.

5 - محمد حسن المرجع السابق، ص 742.

6 - سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص321.

كما وجدت هذه الظاهرة الاهتمام من سلاطين المماليك الذين عملوا على إنشاء أماكن خاصة بالمتصوفين، ووضعت لهم مراتب خاصة بهم حيث تم إنشاء المدرسة التي تقع بين القصرين وكان دوام الصوفية بها بعد العصر كل يوم وجعلوا بها سبعة دروس لطلبة العلم على المذاهب الأربعة.¹

وقد كان للتيار الصوفي الأثر البالغ على الحياة العامة وذلك من خلال لجوئهم إلى شيوخ الصوفية لقضاء حوائجهم كما آمنوا بهم وعملوا على مشاركتهم في عباداتهم وأذكارهم، إلا أن هناك من يرى أن هذا التوجه للعامة قد شكل ذلك خطراً على الحياة الفكرية والثقافية بمصر في تلك الفترة.²

ولم يختلف الوضع بالنسبة للحياة العامة بإفريقية، على الرغم من سيطرة المذهب المالكي المتجذر في المجتمع الحفصي إلا أنه وجد طريقاً لإنتشار والاعتقاد في الأولياء والصالحين من خلال تلك التيارات الصوفية التي انتقلت إلى المشرق وعادت إلى إفريقية فلم تتمركز الصوفية المرابطية إلا على يد أبي الحسن الشاذلي الذي ذاع صيته بين العامة و إلتف حوله أهل إفريقية وكان له دوراً في توجيه الحياة المذهبية و الاجتماعية³، بالإضافة إلى التأثير الذي مارسه أبو العباس أحمد بن عروس، الذي وجد السند في البداية من السلطة و نتيجة سلوكه و تجاوزهاته الشرعية فقد نفر منه الكثيرين، إلا أن ظاهرة التصوف بإفريقية تغلغت في المجتمع الريفي كما كانت الزوايا تقوم بالعديد من الوظائف كإيواء المسافرين والمساكين، ولها مشاركة في الحياة الاقتصادية مما أدى بالحكام للتقرب من هؤلاء الأولياء الصالحين، نتيجة للتأثير العميق الذي أصبح الصوفيون يمارسونه في الحياة الاجتماعية، فعمل السلاطين الحفصيين على جلبهم وتزويدهم بالا قطاعات وإعنائهم من الجبايات.⁴

وليس ذلك فحسب بل كان للصوفية دوراً بارزاً خلال الحملة الصليبية على تونس 668هـ/1270م حيث أعلن الصوفية والأولياء الجهاد ضد الصليبيين، وعلى الرغم من ذلك فقد

1 - ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج 1، ص 113.

2 - سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص 322.

3 - عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي، دار سراسر للنشر، تونس، 1961م، ص 81، 82.

4 - محمد الكحلوي: المرجع السابق، ص 78. الدولاتي: المرجع السابق، ص 82.

إتسمت ظاهرة التصوف بإفريقية في العهد الحفصي بخاصتين بارزتين، وهي علاقتها بالسلطة والمجتمع فكانت العلاقة الأولى تتميز بالتوتر خاصة مع أبي الحسن الشاذلي وذلك من خلال التفنيس في حقيقة عقيدته ومؤلفاته واتهامه بالباطنية وقد كان لسلطة الفقهاء دوراً كبيراً في ذلك.¹

ولعل هذا من بين الأسباب التي أدت إلى إرتحاله إلى المشرق وبالتحديد إلى مصر، وإثراء التصوف الإسلامي من خلال مساهمته في التدريس والتعليم وتربية المريدين.²

إلا أن هناك من يذكر أن رحلة أبي الحسن الشاذلي سنة 615 هـ/1219 م كانت بهدف تلقي العلم من العلماء بالمشرق كمصر والحجاز والشام ثم عاد إلى تونس، وارتحل من جديد إلى الإسكندرية وفكر في الإستقرار بها رفقة أبو العباس المرسي في رحلته الثالثة 642 هـ/1645م، وكان يحج سنوياً منذ أن قطن بالإسكندرية.³

وهو ما يدل على إستقطاب الإسكندرية لفرقة الشاذلية ومدى تأثيرها في العصر الوسيط كقطب للتدريس، بإعتبار أنها تشكل حلقة وصل بين القاهرة والحجاز وكذا القادمين من إفريقية والأندلس في حين هناك من يذكر أن إرتحال أبا الحسن الشاذلي إلى المشرق كان بحثاً عن القطب، حيث أشار عليه أبو الفتح الواسطي بالعودة إلى بلده وأن القطب موجود به.⁴

ومن أشهر أعلام الشاذلية أبي العباس أحمد بن عمر علي الأنصاري المرسي (ت686هـ/1287م)، وأحمد بن عطاء الله الإسكندرية الشاذلي الذي له عدة مؤلفات منها " الحكم " وتعتبر هذه الطريقة من أكثر الطرق إنتشاراً في المغرب والمشرق ومن فروعها الحصافية، والفيضية، والسالمية.⁵

1 - الكحلوي: المرجع السابق، ص79.

2 - نللي العامري: المرجع السابق، ص421.

3 - رشيدة بالسورور: المرجع السابق، ص389.

4 - نفسه، ص390.

5 - عبد الله دجين: المرجع السابق، ص88.

وقد كانت الطريقة الشاذلية قريبة في تعاليمها ومنهجها في التصوف من مذهب الإمام أبي حامد الغزالي وهو تصوف سني ويعتبر إمتداد لتصوف أبي مدين شعيب.¹

ومن بين الصوفية المرتحلين إلى المشرق نذكر أحمد التباسي (ت 928 هـ/1521م) حيث ورد عن تلميذه ومدون مناقبه أبو الحسن علي بن ميمون المغربي أن سياحته دامت ثمانية عشر سنة منذ 862هـ/1457م، واتصل ببلاد السند والهند وأخذ عن أهل الورع والزهد، ثم قصد بغداد ثم الشام ولقي العديد من المشايخ وأخذ عنهم، ثم إنتقل إلى تركيا وتوجه إلى الحجاز حيث أشير عليه بوجود الغوث، ثم زار المدينة واليمن وتوجه إلى العراق، وعاد إلى مكة ولزم شيخه عبد الكبير اليمني وألبسه الخرقة بعد المصافحة ولقنه ذكر الكلمة الراجعة.²

وكذلك إرتحل أبا سعيد الباجي (ت 628هـ/1231م) وقد جاور بمكة ثلاثة سنين، ثم إرتحل إلى الشام وقد عاد إلى تونس 606هـ/1209م وكذلك أبو عمران موسى الغفاري (ت 634هـ/1236م) الذي إرتحل إلى المشرق وعمره ثلاثون سنة، وأخذ العلم والفرائض والعبادات والعقائد على مذهب أهل السنة ثم عاد إلى تونس، كما إرتحل السلاوي جامع كرامات الغزالي ومناقبه، إلى المشرق وسمع عن جماعة من الصوفية وخدمهم، وله قائمة من الشيوخ ولقي ابن عربي بدمشق (ت 637هـ/1239م) وأخذ عنه المشابكة وأجاز له.³

والملاحظ أن تحول الصوفية إلى الشرق الإسلامي كان طوال العهد الحفصي، كما أدت هذه الحركة إلى نشر الفكر الصوفي المشرقي ببلاد المغرب وذلك من خلال أخذ هؤلاء المتصوفة عن شيوخ الصوفية المشاركة.

كما أن أعداد المتصوفين المرتحلين إلى المشرق تبدو كثيرة نوعاً ما، ويعود السبب في ذلك إلى ذكر كتب التراجم وبعض المصادر لرحلة هؤلاء الأعلام إلى المشرق، بالإضافة إلى الطريقة الشاذلية التي كان لها الأثر الكبير في مصر وبلاد المشرق وكذلك بإفريقية، وبالتالي فقد وطدت هذه الطريقة العلاقة في هذا المجال بين أعلام الصوفية في العالم الإسلامي، كما

1 - أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: محل إلى علم التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط3، القاهرة، د.ت، ص241.

2 - نللي العامري: المرجع السابق، ص98.

3 - نفسه، ص 99.

أنها أعطت صورة واضحة عن طبيعة تلك العلاقات بين الأقطاب و المريرين في كل من دولة المماليك و الحفصين و نقل تلك الطرق و معتقداتها بين الطرفين، وذلك الأثر الفكري والثقافي والإجتماعي لهذه الطرق سواءً على السلطة أو المجتمع .

المبحث الثالث: المجال العلمي

1/1 مناهج التعليم وطرق التدريس.

كانت الحياة العلمية سواءً بالمشرق أو بالمغرب تخضع للظروف السياسية، ومدى إهتمام السلاطين بهذا الجانب، بالإضافة إلى التيارات المذهبية السائدة وحيوية وازدهار هذا المجال وتجده، وذلك من خلال حركية العلماء بين المشرق والمغرب حيث كان الجانب الديني يسيطر على عملية التعليم وأحياناً تعين المدرسين ومواد التدريس التي تكاد تكتسي صبغة دينية خالصة.¹

فقد عرف المشرق الإسلامي تقدماً في مجال التعليم وذلك بظهور المدرسة التي امتدت إلى كل من بلاد الشام ومصر والمغرب، بعد أن كان التعليم يتم في المساجد والخانقاه والزوايا، فكانت المدرسة عبارة عن دار العلوم الدينية خاصة الفقه، وكانت تعمل على تكوين موظفين متعلمين وقضاة وأعاون للسلاطين.²

كما لعبت الربط والخانقاوات دوراً بارزاً في الحياة العلمية في العصور الوسطى.³ حيث لم تكن تقتصر على وظيفة الدفاع فحسب بل كانت تعقد بها حلقات للدروس الصوفية والفقراء والدرأويش.⁴

بالإضافة إلى المسجد الذي كان يمثل المكان الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، وقد كانت تتم فيه حلقات التدريس منذ نشأته، ويعد الحفصيون بتونس أول من أخذ عن المشرق فكرة إنشاء المدارس بالمغرب الإسلامي، وتأسست أول مدرسة بإفريقية وهي المدرسة الشماعية التي أنشأها أبو زكريا يحي الأول (643 هـ/1236م) وكانت هي بدورها مخصصة لتدريس الحديث وتلتها العديد من المدارس كالمدرسة التوفيقية التي أسستها الأميرة عطف زوجة أبي زكريا الحفصي وتولى التدريس بها عبد الله محمد الشريف (ت 666 هـ/1267 م) من أصحاب أبي الحسن

1 - محمد لحو: المرجع السابق، ص185.

2 - جورج مارسيه: المرجع السابق، ص332، 333.

3 - أحمد خالد جيهده: المدارس ونظام التعلم في بلاد الشام في العصر المملوكي (ت648هـ-923هـ/1250م-1517م)، مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك، ط1، بيروت، 1422هـ-2001م، ص64.

4 - ابن دقماق: المصدر السابق، ص102.

الشاذلي ومحمد بن عرفة (ت800هـ/1400م) وكانت الدروس بها تبدأ بالتفسير¹، وكذلك المدرسة المعروضية وتعتبر من أقدم المدارس في العهد الحفصي وبنها الأمير أبو زكريا يحيى بن السلطان أبي إسحاق إبراهيم (ت680هـ/1281م).²

وقد عرفت إفريقية بداية التعليم في المساجد أيضا كجامع الزيتونة الأعظم، الذي درس به الكثير من الأعلام الحفصيين أمثال ابن عرفة على يد الشيخ محمد بن عبد السلام، وبرع في الفقه والعربية والأصول والقراءات وله العديد من التأليف منها "مختصر في الفقه" المبسوط "ومختصر علم الكلام" كما عرفت قسنطينة نهضة علمية وذلك من خلال إنتشار التعليم بواسطة الكتاتيب والمدارس والجوامع والزوايا والبيوتات وكذلك الرحلات إلى المشرق.³

ونظراً لازدهار الحياة العلمية بمصر خلال العصر المملوكي بفضل اهتمام السلاطين بتوفير المؤسسات العلمية، حيث فتحت المجال أمام طلبة العلم المغاربة للتوجه نحو المشرق كمصر والشام والحجاز.

ويذكر المقرئبي⁴ انه بسنة 818 هـ/1415م بلغ عدد طلاب العلم 750 رجلا من مختلف بلاد المسلمين، ويصف ابن جبير⁵ المؤسسات الدينية بالإسكندرية بأنها أكثر بلاد الله مساجد.

وقد كان أقدم الجوامع بمصر الجامع الأزهر، الذي بني في العهد الفاطمي سنة 361هـ وعمل على إعمار الظاهر بيبرس، وزاد شأنه حتى أصبح أرفع جوامع القاهرة و كثرت عمارة المساجد والجوامع بالقاهرة خاصة على عهد دولة المماليك أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون، ومن بين هذه الجوامع، جامع المار ديني وجامع قوصون و غيرهم من المساجد، إلا أن العديد من المدارس بمصر كانت تقام بها صلاة الجمع و ذلك لضيق الجوامع⁶، وهو ما يفسر إنكباب

1 - الزركشي: المصدر السابق، ص123.

2- إبراهيم بن جدلة: المرجع السابق، ص253.

3 - نعيمة بو كرديمي: البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي وإسهامها الثقافي، مجلة العصور الجديدة، عدد 18، قسنطينة، 1436هـ-1437هـ/2015م-2016م، ص80.

4 - السلوك: المصدر السابق، ج6، ص382.

5 - الرحلة: المصدر السابق، ص43.

6 - القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص366.

السلطين على إقامة المنشآت الدينية والعلمية، ويشير ذلك أيضا أن المدارس هي بدورها لم تقتصر على عملية التدريس فحسب بل استعملت في بعض الأحيان لإقامة صلاة الجمع.

ويذكر أن الأحناف كانوا يجتمعون في مقصورة للتدريس بالقرب من المدرسة الشافعية بالإضافة إلى وجود زوايا بالمسجد يتخذها الطلبة للتدريس والنسخ¹.

ومن بين ما كان يدرس في هذه المساجد دروس في الطب، والتفسير والحديث والفقہ على المذهب الأربعة والقراءات²، ويعود ظهور المدارس في العالم الإسلامي إلى عهد السلاجقة على يد نظام الملك³.

ومن أسباب إنشاء المدارس هي مناهضة المذهب الشيعي⁴ بالإضافة إلى تكوين موظفين للدولة وانتقلت هذه الظاهرة من المشرق إلى المغرب⁵.

وقد أرجع البعض نشأة المدارس إلى إزدهار مجال التعليم ونشاط الحركة الفكرية واتساع حلقات الدروس وازدياد عدد طلبة العلم وبالتالي كثرة المناقشات، وظهور الحوار والجدل كعلم الكلام والفلسفة التي تتنافى وطبيعة تدريسها مع دور المسجد الروحي باعتباره محل العبادة، وهي أيضا من أهم الأسباب التي أدت إلى فصل التعليم عن المسجد لأول مرة ببغداد على يد نظام الملك⁶.

1 - ابن جبير: المصدر السابق، ص273.

2- أحمد خالد جيهده: المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك، ط1، بيروت، 1422هـ/2001م، ص56

3 - نظام الملك: وهو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الشافعي من أهل نوقان إحدى مدن طوس تعلم بنيسابور، عمل كاتباً لعلي بن شاذان والي بلخ وكان وزيراً لداود بن ميكائيل السلجوقي 455هـ-1062م. ابن خلكان: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت680هـ-681هـ/1281م-1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، ط1، بيروت، 1398هـ-1978م، ج2، ص128.

4 - محمد العناقرة: المدارس في مصر في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250م-1517م)، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2015م، ص27.

5 - أحمد خالد جيهده: المرجع السابق، ص56

6- السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، القاهرة، 1387/1996هـ، ج2، ص232

ونتيجة لتطور نظام التعليم بلغ عدد الطلبة بالمدرسة المستصيرية ثلاثمائة طالب واعتمدت على تدريس المذاهب الأربعة فكان لكل رواق مذهب، وقد كان لهذا التطور الأثر الكبير في شهرتها وانتقالها إلى المغرب الإسلامي.¹

كما إهتم المماليك بإقامة المدارس حيث أبتى الظاهر بيبرس " المدرسة الظاهرية " بجوار المدرسة الصالحية² ثم أبتى المنصور قلاوون "المدرسة المنصورية " وأبتى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون "المدرسة العظمى " التي لم يكن لها مثل وأبتى الظاهر برقوق " المدرسة الظاهرية" وكان يتم بها دروس للصوفية³.

ومن بين مناهج وطرق التعليم المعتمد من طرف المماليك وكذلك الحفصيين نجد أن علوم القرآن كانت تمثل النظام الشامل للتربية والتعليم، وتوضع في المراتب الأولى للعلوم الشرعية والفقه والحديث بالإضافة للغة العربية، وذلك لارتباطها الوثيق بالقرآن وكانت هذه المناهج تنقسم إلى مرحلتين⁴.

أ/ **مرحلة التعليم الابتدائي:** حيث يتلقى التلاميذ في سن مبكر ينتقلون إلى المساجد أو الكتاتيب وتنتهي هذه المرحلة عند البلوغ، أما بالنسبة للمناهج المعتمد في هذه المرحلة و الموروثة منذ العصور السابقة فتقوم على حفظ القرآن و تعاليمه وآدابه والحساب والهجاء والشكل والخط، والقراءة والشعر و فقه الصلاة وتعليم الخطابة، وقد كان لتعليم الخط أهمية كبيرة ويتولاها المكتب الذي كان ينال إجازة تسمح له بممارسة هذه المهنة⁵.

ب/ **مرحلة التعليم العالي:** ويعود المنهج المتبع في هذه المرحلة إلى الواقفين على المدارس بالإضافة إلى تعيينهم للمدرسين، وتوضع لهم أجور ورواتب⁶.

¹- عمارة فاطمة الزهراء: المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنين 8-9هـ/14-15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في

التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران ، 1430هـ-1431هـ/2009-2010م، ص 3

²-القلقشندي: المصدر السابق، ج3، ص 368

³-أيمن فؤاد السيد: القاهرة وخطتها، المرجع السابق، ص117

⁴-أحمد خالد جيدة: المرجع السابق، ص 57

⁵-القلقشندي: المصدر السابق، ج2، ص 440، ج5، ص205-222/ ابن جبير: المصدر السابق، ص218

⁶-المقرئزي: الخطط، ج3، ص 476

وكانت مجالس العلماء تتناول إضافة إلى التفسير والبلاغة والفقه وأصوله، تدريس العلوم العقلية كالرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرهم¹.

ج/ طرق التدريس: فمن واجب المدرس ترويض الطلاب في العلم والتذكير بقيمته مع الأخذ بعين إعتبار القدرات الذهنية للطلاب وتلقينهم ما يتناسب معهم، مع الاعتماد على التبسيط دون الإكثار وإعطاء الأمثلة مع الأدلة والإشارة إلى المآخذ، وتبيان ما يتعلق بالمسائل من أصول وفروع وعلل وأحكام².

وللطلاب الحرية في اختيار شيخه حتى وإن تباعدت المسافات وروي عن محي الدين النووي الشافعي أنه كان يأخذ أثني عشرة درساً في اليوم واللييلة³.

ولم يختلف الوضع كثيراً بإفريقية حيث كانت المناهج المتبعة تعتمد على علوم الدين والفقه واللغة والتفسير لتعليم الصبيان في المدن والقرى، وأما عن طرق التدريس فكان المدرسون يعكفون على تعليم الخط واللغة العربية للصبيان، بالإضافة إلى حفظ القرآن والحديث والوقوف على الروايات والقراءات⁴ كما أن التعليم في العهد الحفصي مر بمرحلتين أيضاً.

د/ مرحلة المكاتبة أو الكتاب.

وهي أولى المراحل التي يتلقى فيها الطفل تعلم الخط والكتابة والحفظ خاصة القرآن الكريم وبعدها مرحلة التعليم بالمساجد والمدارس، ويحصل المؤدب على قيمة مالية مقابل قيامة بالتدريس وتتراوح من دينار إلى دينارين، وربما بعض الهدايا من أولياء الصبيان، ويعطى يومين للراحة كالخميس والجمعة مع عرض لما تم حفظه من طرف الصبيان⁵.

¹ - حسام الدين الحزوري: الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية (648-1250م/784هـ -

1383م) الهيئة العامة السورية للكتاب ، 2010 ، ص 212

² - إيناس حسن البهيجي: دولة المماليك البداية والنهاية، دار التعليم الجامعي، د.ط، الإسكندرية ، 2015 ، ص 227-228.

³ - أحمد خالد جوده: المرجع السابق، ص 228.

⁴ - محمد حسن: المرجع السابق، ص 705.

⁵ - إبراهيم جدلة: المرجع السابق، ص 252.

كما أن تلقين علوم الدين بالمشرق أو بإفريقية فإنهم ظلوا يحافظون في تدريسهم على نوع من التوازن بين اللغة والدين.¹

حيث تميزت هذه الطريقة بحيوية التدريس السائدة وذلك بإلقاء الأسئلة بين الطلبة والأستاذ واستفساراتهم وكثيراً ما كانت الأجوبة تدور بين الطلبة أنفسهم بحضور الأستاذ، وأحياناً تقع مشادات بين الأستاذ وشيخ آخر حضر الدرس، كما كان الشيخ يعتبر أن الفهم والتفكير والحفظ وجهان ضروريان لنجاح العالم في حياته، ويتضح أن الدروس كانت مشاركة حقيقة بين الأستاذ والطلبة وينحصر دور الأستاذ في الشرح والتبسيط والتوضيح والتصحيح والتدقيق.²

وقد انتقلت هذه المناهج من المشرق إلى إفريقية عن طريق العديد من الأعلام كالإمام المازري وكذلك ابن زيتون الذي انتقل إلى المشرق لأداء مناسك الحج 648هـ-1250م ، وقد توقف في العديد من الحواضر الإسلامية ببلاد الشام ومصر وحضر دروساً لبعض الشيوخ أمثال عز الدين بن عبد السلام (ت660هـ/1262م)، بالإضافة إلى أخذه عن تلاميذ فخر الدين الرازي (ت606هـ/1209م) ثم عاد إلى إفريقية ونشر أفكار الرازي ومناهجه، حيث أدخل حركية جديدة في المذهب المالكي من خلال حذق الأصول والمزج بين النقليات والعقليات وأنعش به الدراسات الفقهية.³

ويذكر أيضاً أن ابن زيتون ممن أقام بالقاهرة ودرس بمدارسها فقد ارتحل إليها مرتين في سنتي (648هـ-656هـ/1250م-1258م) وكانت المرة الأولى لطلب العلم، والثانية إنتصب للتدريس بالمدرسة الفاطمية ومدرسة الصاحب بن شكر.⁴

والملاحظ مما سبق أن ابن زيتون قد لعب دوراً هاماً في نقل المناهج وطرق التعليم المعتمد في مصر إلى إفريقية وعمل على مزج هذه الطرق والمناهج.

1 - مختار العياشي: في تاريخ المدرسة التونسية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2000م، ص68.

2 - أحمد الطويلي: مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس في العهد الحفصي، دط، تونس 2000م، ص68.

3 - رويار برنشفيك: المرجع السابق، ج2، ص302. عبد الباسط فؤاد، المرجع السابق، ص76.

4 - أحمد الطويلي: مراكز الثقافة، المرجع السابق، ص353

بالإضافة إلى محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي الزواوي البجائي المغربي المالكي ويعرف بابي الفضل بالمشرق وأبي القاسم في المغرب الذي تفقه و حذق العلوم ببلاد المغرب ثم أرتحل إلى تونس و منها إلى مصر، ثم توجه إلى قبرص وحصلت له مناظرات مع أساقفتهم ثم توجه إلى بيروت ومنها إلى دمشق، ثم طاف ببلاد المشرق وتوجه إلى الحجاز وحج وجاور ثم أنتقل إلى القاهرة، وقيل عنه من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب، و كان له دروس بجامع الأزهر، والتقى بالكثير من المشايخ في رحلته واستفاد من مناهجهم في التعليم ورجع إلى بلاد المغرب ونزل بجاية ونشر هذه المناهج في التعليم¹.

وكذلك ممن أرتحل إلى المشرق لطلب العلم ابن راشد القفصي الذي أحرز كماً هائلاً من العلوم الشرعية من فقه واصول وعلم تعبير الرؤيا وقد كانت رحلته للتعمق في العلوم النقلية والعقلية وقد أخذ عن العديد من الشيوخ بمصر ثم عاد إلى إفريقية².

وقد إنتقل أحمد بن عثمان بن عبد الجبار التونسي الملتاني أبو العباس إلى المشرق ولقي الكثير من الفضلاء، ثم رجع وسكن بجاية ودرس بها العربية والفقه وأصول الدين واستدعي من طرف أبي زكريا إلى الحضرة وألق بها بعض المسائل والمبادئ³.

كما إرتحل احمد بن عيسى بن عبد الرحمان العماري الفقيه الجديد القاضي، إلى بلاد المشرق وقرأ وجد واجتهد وحصل ولقي جملة من المشايخ وحضي بأصولي الدين والمشاركة في العلم والأدب وكان يبدأ بالرقائق ثم الفقه وأصول التهذيب والبحث والتعمق ثم عاد إلى تونس⁴.

بالإضافة إلى الدور الذي قام به محمد بن قاسم بن محمد بن عبد العزيز القرشي المخزومي القفصي أبو عبد الله (776هـ-843هـ/1375م-1440م) فقيه ومحدث أخذ العلم عن العديد من العلماء بقفصة، وأرتحل إلى الحجاز ثم عاد إلى مصر ومنها إلى تونس سنة

1 - السخاوي: الضوء اللامع، المصدر السابق، ج9، ص188، 180.

2 - ابن فرحون: المصدر السابق، ج4، ص33. التنبكتي: المصدر السابق، ص235.

3 - التنبكتي: المصدر السابق، ص78.

4-- نفسه، ص 79.

1443م/815هـ ثم عاد إلى الحجاز بأهله وبقي سبع سنين، ومنها رجع إلى مصر وانقطع للتدريس بمدرسة نظام الدين.¹

وهو يدل على الدور الذي لعبه علماء إفريقية في نقل العلوم والمناهج إلى مصر وذلك من خلال تلقينها وتدريسها لطلبة العلم بالمشرق، ومن ناحية أخرى فإن ذلك يبرز تلك العلاقة الوطيدة التي ربطت بين إفريقية ودولة المماليك في المجال العلمي والثقافي، من خلال جهود هؤلاء العلماء في نقل مختلف العلوم سواءً من المغرب إلى المشرق أو عكس ذلك، أمثال ابن خلدون وغيره من العلماء الذين مارسوا مهنة التدريس وبعض الوظائف التي كان من شأنها أن تنقل مختلف العلوم والأفكار وحتى بعض العادات والتقاليد ومزجها ببعضها البعض.

ومن بين المناهج التي انتقلت من المشرق إلى المغرب في مجال التدريس هي طريقة السؤال والجواب والحوار التي إنتشرت من إبنى الإمام عمران المشدالي ومنها انتقلت إلى بلاد المغرب ويبدو أنها وجدت إستحساناً كبيراً من طرف الطلبة.²

وقد تأثرت المساجد بظهور المدارس في القرن 7هـ/13م، وكانت مصاريفها من خلال الأحباس، ووقفت الخزانات العلمية على الطلاب وإحداث الكراسي الدراسية على المساجد للتدريس سنة 651هـ/1253م وقد أحدثت هذه الكراسي لتدريس مواد معينة أو كتب معينة في بعض الأحيان، كما كان المدرس يتقاضى راتباً من الاحباس، إلا أن المغاربة لم يتقبلوا جلوس الأئمة على الكراسي واعتبروا ذلك بدعة لأنها تشغل أماكن المصلين بالمسجد.³

وكانت هناك كراسي للوعظ والتذكير، وهذا النوع من الكراسي موجهة لتعليم الراشدين من العامة وإعطاء دروس للوعظ من خلال كتب يتم اختيارها وقد تزايد عددها خاصة خلال القرن 8هـ/14م.⁴

¹ - محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1405هـ، 1985م، ج4، ص98.

² - عبد الرحمن الأعرج: المرجع السابق، ص282

³ - الونشريسي: المصدر السابق، ج2، ص486.

⁴ - ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ج1، ص322. حسن الوزان، المصدر السابق، ج1، ص224.

أما الكراسي العلمية فكانت تحبس لتدريس أحد العلوم للطلاب في المساجد من خلال كتب معينة ومنها ما يستعمل لتدريس الفقه والحديث والقراءات والنحو.¹

ومن بين الأنظمة التعليمية التي كانت سائدة في العصور الوسطى:

2/ **الإجازة العلمية:** وهي بمثابة الشهادة العلمية في تاريخ التربية الإسلامية منذ أوائل القرن 10هـ/م وتمنح هذه الإجازات لرواية الحديث في بادئ الأمر ثم عممت على بقية العلوم الأخرى.²

ويقوم الشيخ أو العالم منحها لطالب العلم وذلك لتمكنه من قراءة مؤلف أو أكثر عليه بفهم وتدبير ومعرفة حتى يصبح كفى لرواية الكتاب، والهدف من الإجازة بأنواعها هو ضبط الرواية ونشر الحقائق العلمية دون تزيف أو تحريف، إلا أنها في العصر المملوكي إتخذت شكلاً آخرًا وأصبحت لها أهمية بالغة، فهي بمثابة الرخصة لتولي بعض المناصب العلمية كالفتيا والتدريس والقضاء وغيرها من الوظائف الرسمية.³

وغالبا ما تكتب الإجازة على الكتب المجاز بها، ويبدو أنها أنواع عديدة من الإجازات منها الإجازة بالسماعات، والإجازة بعراضة الكتب والإجازات العامة، والإجازة الفخرية الإجازة في الطب.⁴

وكان طلبة العلم المغاربة ينتقلون إلى الحواضر العلمية بالمشرق، فلا يكتفون بتلك الإجازات التي تمنح لهم من طرف شيوخهم، بل يرتحلون إلى منابع العلم لنهل العلوم ونيل الإجازات التي تعتبر من أهم الوسائل لتجديد مناهج العلم ومزج ومزج بعضها البعض ومن ثمة توحيد طرق البحث في العالم الإسلامي.⁵

1 - الحسن اسكاة: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1هـ-9هـ/7م-15م)، المعهد المالكي للثقافة الامازيغية، الرباط، 2004م، ص82.

2 - الونشريسي: المصدر السابق، ج11، ص15، 16.

3 - حسام الدين عباس الحزوري: المرجع السابق، ص234.

4 - نفسه، ص238.

5 - عيسى بويوزان: فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس إلى القرن التاسع الهجريين، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426هـ، ص307.

ومن مميزات العلماء والطلبة المرتحلين حصولهم على العديد من الإجازات مما يكسبهم مصداقية علمية كما، أنها تدل على مستواهم العلمي وقد حصل قاسم بن سعيد العقباني أثناء إرتحاله إلى مصر على إملاء ابن حجر العسقلاني فأجازه.¹

بالإضافة إلى إجازة ابن مرزوق الخطيب لقاضي المدينة المنورة برهان الدين فرحون المدني² وكذلك إجازة الشيخ شمس الدين الكريمين السمرقندي في البلاغة والعلوم العقلية للقلصادي (815هـ-891هـ/1412م-1486م) نزيل باجة من تونس.³

وكذلك إجازة النابلسي شهاب الدين أبو العباس مفسر المنامات والمقرئ والفقير العارف بالمذهب الحنبلي وأخذ عنه علم العبارة ابن راشد القفصي وأجازه فيه⁴ وقد هاجر محمد بن أحمد الوانوعي (819 هـ-1416م) إلى مكة ودرس فيها وأجاز كثيرا من العلماء.⁵

وكانت هذه الإجازات عادة تكتب في آخر المؤلفات التي يريد الطالب أخذ الإجازة فيها وقد تكون مستقلة أو مسطرة على الكتاب الذي تمت دراسته.⁶

3/ المناظرات العلمية: وهي من أهم الوسائل التي ربطت بين المشرق والمغرب الإسلامي في المجال التعليم.

فالمناظرة هي لون من القياس بين جانبيين إثنين يعتمد البصيرة لترجيح الصواب، وقد عرفه ابن خلدون⁷ يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المنحرفين.

1 - ابن مريم: المصدر السابق، ص250.

2- عبد الرحمن الأعرج: العلاقات الثقافية بين دولة بين زيان والمماليك، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان ، 1428-1429هـ/2007-2008م، ص159

3 - محمود محفوظ: المرجع السابق، ص109.

4 - عبد الباسط فؤاد: المرجع السابق، ص93.

5 - أحمد الطويلي: الحياة الأدبية، المرجع السابق، ص351.

6 - حسام الدين الحزوري: المرجع السابق، ص237.

7 - المقدمة: المصدر السابق، ص458.

فقد كانت الوفود من المشاركة الذين انتقلوا إلى بلاد المغرب قد حملوا معهم أفكارهم المذهبية التي انتقلت بدورها إلى المغرب بالإضافة إلى ارتحال المغاربة إلى المشرق وهو ما أدى إلى حدوث العديد من المناظرات بين العلماء والفقهاء على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم.¹

وقد عرفت مكة المكرمة العديد من المناظرات بين العلماء والفقهاء وذلك لكونها مقصداً لجميع طلبة العلم من العالم الإسلامي، وفي الغالب كانت هذه المناظرات تتم لمناقشة مسائل عقدية.

كما أن السلاطين المغاربة كانوا يهتمون بعقد المجالس العلمية كأبو السلطان أبو تاشفين عبد الرحمان الأول الذي كان يحضر مجالس المناظرات كمنظرات الشيخ أبي زيد عبد الرحمان وأبي موسى المشدالي في مسألة التقليد والاجتهاد، بالإضافة إلى مناظرة الشيخ ابن رشيد السبتي للشيخ الأصفهاني في علوم اللغة، ويصفه بأنه من النظار المتأخرين، ويذكر ابن رشيد السبتي أنه عرض عليه كتابه المسمى "بالقواعد الكلية" في خمس من العلوم مثل: علم اللغة و المنطق والخلائق والأصول والفقه وأجازه، كما يذكر أنه جرت بينهم مناظرة حول الحرف و معناه.²

بالإضافة إلى مناظرة الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي العبدري لأخذ شيوخ الشافعية وكانت هذه المناظرة حول مسألة البيع بالإشارة.³

وجرت أيضاً مناظرة بين محمد بن عبد الكريم المغيلي لجلال الدين السيوطي في علم المنطق وهذا الأخير كان له مؤلف في المنطق ومضمونه تحريم هذا العلم، ويعتبر المغيلي من المدافعين عن هذا العلم معتبراً إياه وسيلة مهمة للإدراك.⁴

4/ الكتب المتبادلة بين العلماء المغاربة والمشاركة.

¹ - المصطفى الوظيفي: المناظرة في أصول التشريع الإسلامي (دراسة في تناظر ابن حزم و الباجي)، د.ط، 1419هـ - 1998م، ص68.

² - ابن رشيد السبتي: المصدر السابق، ص370.

³ - العبدري: المصدر السابق، ص473.

⁴ - ابن مريم: المصدر السابق، ص250. السخاوي: الضوء اللامع، المصدر السابق، ج4، ص65، 66

إهتم المماليك وكذلك الحفصيون بالجانب العلمي ومن ثمة عمل السلاطين في الكثير من الأحيان على إنشاء المكتبات وإثرائها بأمهات الكتب كمكتبة الجامع الزيتونة التي تعتبر واحدة من أكبر المكتبات بإفريقية، فقد احتوت على 36 ألف كتابا في عهد أبي زكريا الأول بالإضافة إلى المكتبة العبدلية التي أنشأها الأمير الحفصي أبو عبد الله محمد بن الحسن.¹

كما ألحق سلاطين المماليك المكتبات بالمدارس والمساجد التي كان يتم فيها التدريس، كمكتبة الأزهر وخزانة الكتب التي ألحقت بالمدرسة المنكوتيرية² وجعل عليها وقفاً ببلاد الشام³، وغيرها من المكتبات الملحقة بالمؤسسات التعليمية التي عكف المماليك على إنجازها.⁴

إلا أن التوجه العلمي في هذا العصر أصبح العلماء والفقهاء يعتمدون على المختصرات في مجال التدريس والتعليم.

ويذكر ابن خلدون⁵ أن مجال التعليم في هذا العصر أصبح المعلمون المتأخرين من أصحاب المذاهب يميلون إلى الاعتماد على المختصرات وذلك تسهيلا للإستعاب واقتصارهم على المبادئ للمتعلمين، وهو ما فعله الزمخشري في المفصل، وابن الحاجب في المقدمة، وكذلك ما نظمه ابن مالك في الأرجوزتين الكبرى والصغرى، وابن معطي في الأرجوزة الألفية.

ومن بين الكتب التي قام علماء إفريقية والمغاربة بصفة عامة بنقلها من المشرق إلى المغرب والاعتماد عليها في مجال التعليم والتدريس مثل، "موسوعة القواعد الكبرى" في أصول الفقه لصاحبها العز بن عبد السلام (577هـ-660هـ/1181م-1262م)، من فقهاء الأصول حيث لزمه أبو علي منصور الزواوي المشدالي (632هـ-731هـ/1235م-1330م) وانتفع به

1 - محمد حسن: المرجع السابق، ص 707.

2 - المدرسة المنكوتيرية: نسبة إلى مؤسسها الأمير سيف الدين منكوتر نائب السلطنة بمصر وكان يقام بها درسا للمالكية، وقرر فيها الشيخ شمس الدين محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام بن جميل التونسي المالكي ودرسا للحنفية. المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج3، ص498.

3 - المقرئزي: الخطط، المصدر السابق، ج3، ص498.

4 - سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق، ص322.

5 - المقدمة: المصدر السابق، ص 755.

وأستجلب كذلك "المختصر الفقهي" الذي شرحه البعض كإبن عبد السلام الهوا ري وابن راشد الحفصي، بالإضافة إلى "مختصر ابن الجلاب" و"الذخيرة للقرافي".¹

وفي التفسير إعتد الحفصين على "تفسير ابن بزيمة" وهو عبارة عن مجموع بين مختصر الزمخشري وتفسير ابن عطية، بالإضافة إلى تفسير الفخر الرازي.²

والموطأ، و"الموازنة" لمحمد بن إبراهيم الإسكندري المعروف بابن المواز (269هـ- 281هـ/882م-910م)³ وكتاب "المختصر" لأبن عبد السلام الشافعي (660هـ-1262م) وكذلك كتاب "المختصر في فقه الفروع المالكي لخليل بن إسحاق الجنيد (ت776هـ-1374م)، وشرحها الزلديوي التتوخي (ت874هـ-1469م).⁴

بالإضافة إلى "شرح البرزوليتي (875هـ-1870م) على "المختصر" في ستة أسفار، وشرح مختصر إبن الحاجب لقاضي القضاة محمد بن عبد السلام التونسي المالكي (ت749هـ- 1350م).⁵

و"المختصر في الفقه المالكي" للشيخ خليل ابن إسحاق المالكي وله "شروح ومواهب الجليل لشرح مختصر الخليل" لأبي عبد الرحمان المعروف بالحطاب (ت954هـ-1547م) و"المجموع الفقهي في مذهب الإمام مالك" لمحمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر ابن العزيز النيسابوري المعروف بالأمير (ت630هـ-1232م).⁶

كما ورد في العديد من المصنفات لعلماء مشاركة كتب عديدة حول بلاد المغرب و ذلك إستناداً إلى الروايات أو بعض المصنفات وما حمله العلماء والفقهاء وطلبة العلم المغاربة من أخبار بلادهم إلى المشرق؛ وبالتالي فقد ألفت العديد من الكتب بهذا الشأن ونذكر منها "مسالك

¹ - مانع بن حماد الجهني: موسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، 1420هـ، ص77. أحمد الطويلي، الحياة الأدبية، المرجع السابق، ص120.

² - مانع بن حماد الجهني: المرجع السابق، ص346.

³ - لطفي بن ميلاد: إفريقية والمشرق المتوسطي، المرجع السابق، ص347.

⁴ - إبن فرحون: المصدر السابق، ج1، ص315.

⁵ - السخاوي: الذيل، المصدر السابق، ص99.

⁶ - مانع بن حماد الجهني: المرجع السابق، ص120.

الأبصار" على رواية محمد بن عبد الرحمان القرشي المعروف بابن القوبع (ت638هـ- 1240م) لصاحبه العمري، وكذلك خصص النويري في نهاية الإرب فصلاً عن أخبار بلاد المغرب، بالإضافة إلى القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، وابن حجر في مصنفه الدرر الكامنة، والسخاوي في الضوء اللامع فقد خصص فصلاً مطولة عن إفريقية فضلاً عن زيارة البلاد مثل عبد الباسط الذي نقل العديد من أخبار إفريقية إلى بلاد المشرق في هذه الرحلة دون شك.¹

إلا أن هناك من عاب على المسلمين في هذا العصر لإعتمادهم على الشروح والمختصرات في نظمهم التعليمية وهو ما أدى إلى تضاؤل الاجتهاد الفكري.²

وما نخلص إليه من رحلات المغاربة إلى بلاد المشرق أنها كان لها الأثر الكبير على الحياة العلمية والدينية والثقافية، وذلك من خلال ما تم نقله من مناهج مشرقية وطبقت في إفريقية وبلاد المغرب بصفة عامة، أو تلك الأفكار المذهبية والمكتسبات العلمية التي أخذها طلبة العلم عن المشاركة وعملوا على نشرها بإفريقية من خلال جلوسهم للتدريس أو توليهم لمناصب عليا في الدولة.

كما لا يمكن إنكار ما تم نقله من مؤلفات تعتبر أمهات الكتب بالمشرق وهو ما ساعد على إثراء الحياة العلمية والمذهبية ببلاد المغرب.

إلا أن ذلك ساهم أيضا في توحيد علوم المسلمين بالمشرق والمغرب وتوجهاتهم العلمية والفكرية والمذهبية.

في حين كان لعلماء المغرب والحفصيين بصفة خاصة دون شك أثر في الجانب العلمي بالمشرق، خاصة بالنسبة لهؤلاء العلماء الذين إستقروا به وعملوا على نقل العلوم، وجلوسهم للتدريس وتوليهم مناصب عليا، ومساهماتهم في التأثير على الحياة العلمية والمذهبية، ومزج ما حملوه من أفكار من بلدهم الأصلي وما أخذوه من شيوخهم بالمشرق لينتج عن ذلك علاقة تأثير وتأثر بين الطرفين.

والملاحظ أيضا أن المجال العلمي كان من أقوى المجالات حيوية وثراء ونشاطاً وتأثيراً بين إفريقية وبلاد المشرق، ويتجسد ذلك خاصة من خلال رحلات علماء إفريقية إلى مصر أو

1 - محمد حسن: المرجع السابق، ص702.

2- نفسه، ص701.

العكس، وكذلك تلك المصنفات التي مزجت بين أخبار وأفكار وعلوم ومناهج المسلمين بصفة عامة في هذا العصر.

المبحث الرابع: التأثيرات العمرانية الفنية

يعتبر التراث الثقافي والحضاري الإسلامي سجلا لإبداع الأمة، ورمزا من رموز إبداعها وذاكرة حافظة لقيمها وهويتها ومن مقومات هويتها الحضارية التي تعبر عن خصوصية كل حضارة وأمة.

وبعد التراث المعماري الفني الإسلامي التي عنيت به الحضارة الإسلامية في مختلف أقطار العالم الإسلامي، والذي ظل شاهدا على تراثها وبقي ثمرة مشعة لهذا الإبداع التي أسهمت به الحضارة الإسلامية بما حملته من مظاهر جمالية وفنية دالا على تطور هذه الحضارة وتقدم بناتها وصناعاتها وعلمائها، هذا الإبداع الذي لم يكن وليدة عصر أو زمن محدد وإنما كان نتيجة وثمره تراكم وتتابع العصور المختلفة.

وتمثل هذا الإبداع في المآثر التي أضحت شامخة في مختلف أقاليم العالم الإسلامي الذي شهد بعبرية ونبوغ مهندسيها في مؤسساتها الدينية والثقافية من مساجد وجوامع ورباطات وقلاع وحصون وقصور ومدارس.

حيث عني المسلمون بتشديد عدد كبير من الأبنية، والتي عكست لنا مظاهر الرقي العمراني التي حظيت به الحضارة الإسلامية في مختلف أقطارها.

ولعل من العصور الذي عرف رواجاً وإزدهارا عمرانيا وحضاريا نجد العصر المملوكي هذا الأخير الذي ورث تراثا حضاريا وعمرانيا ممن سبقه من العصور المختلفة مثل بذلك عصرا ذهبيا لفنون العمارة والعمران.

حيث عرفت دولة المماليك ثراء كبيرا إنعكس بشكل كبير على الفنون في ذلك العصر، فالحقيقة الواضحة التي يخرج بها دارس تاريخ مصر في العصور الوسطى، هي أن الحياة الفنية بلغت في عصر المماليك أسمى درجات الرقي، حيث مازالت التحف الفنية تزخر بها دور الآثار والتي ترجع الى عصر المماليك فضلا عن العمائر المملوكية من مساجد وقصور ومدارس، تشهد برقي الحياة الفنية في عصر المماليك.¹

¹ -سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي، المرجع السابق، ص384

لهذا يعتبر عصر المماليك العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية، فقد زادت الرغبة في تشييد عدد كبير من الأبنية وذاع بناء المدفن الكبير في عصر المماليك، ولعل أبدعها مدفن وخانقاه برقوق ومدفن قايتباي، ومدفن برسباي بصحراء المماليك (الصحراء الشرقية في القاهرة).¹

حيث تعددت المباني من مساجد ومدارس، خانقوات، خانات، وكالات، حمامات وبعض القصور في مدينة القاهرة على العهد المملوكي.²

وقد بلغ من عمائر ما تركه المماليك نحو 230 أثرا في العاصمة وحدها، كما شيد في هذا العصر كذلك الكثير من الحمامات العامة ولكن لم يبق الا القليل منها.³

ولعل هذا الإزدهار لم يكن مقتصرًا على بلاد المشرق زمن المماليك، وإنما إمتد كذلك ليشمل بلاد المغرب ولاسيما إفريقية أثناء حكم الحفصيين.

حيث شهدت تونس خلال العهد الحفصي من أوائل القرن السابع الهجري الى العاشر ومن القرن الثاني عشر الميلادي الى الخامس عشر إزدهارا ثقافيا ونهضة عمرانية، مما جعلها مركز إشعاع حضاري عظيم، كان مبعث إعجاب كبير في نفوس من زارها من الرحالة المغاربة والأندلسيين والغربيين والمشاركة بروعة مبانيها وتعدد جوامعها ومساجدها ومدارسها والتفنن في بناء القصور وتنضيد البساتين من جهة أخرى.⁴

وهو ما جعل من مدينة تونس مركز إشعاع عمراني وعاصمة دولة رificة الشأن، نتيجة لإزدياد عمرانها وآثارها وإعتناء أمراء بني حفص بال عمران.⁵

¹-كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 78/أحمد عبد الرزاق أحمد: العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي (621-923هـ/641-1517م)، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1430هـ/2009م، ص 223

²-شوكت محمد لطفي عبد الرحمن قاضي: العمارة الإسلامية في مصر (النظرية والتطبيق): رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في العمارة (التصميم المعماري)، كلية الهندسة، جامعة أسيوط، 1998، ص 70

³-فريد محمود شافعي: العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عمادة شؤون المكتبات، ط1، الرياض، 1401هـ/1982م، ص 122-129

⁴-أحمد الطويلي: في الحضارة العربية، المرجع السابق، ص 7

⁵-محمد العزيز ابن عاشور: جامع الزيتونة " المعلم ورجاله «، دار سراس للنشر، تونس، 1991، ص 29

وكان من نتائج الحركة المعمارية التي شهدتها تونس منذ القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي إنها جعلت منها مدينة وعاصمة مساوية للمدن الكبرى، حيث أنشئت المدارس وهي معاهد معدة في آن واحد لإسكان الطلبة وتعليمهم وأولى هذه المدارس نجد المدرسة الشماعية.¹ كما أقيمت الزوايا والكتاتيب وغيرها من المنشآت التي تشهد بالحركة العمرانية الدولة الحفصية.² وبالتالي نجد هذه المعالم كلها تشهد بالنهضة الحضارية الكبرى وبالتجديد المستمر في الطابع المعماري الحفصي.

كما ظهرت بإفريقية كذلك نموذج العمارة الحربية، حيث جاء هذا النمط كرد فعل على الاخطار الخارجية التي كانت تحرق بالعالم الإسلامي في ذلك الوقت الا وهي الحروب الصليبية، فظهر الرباط الذي إنتشر في شتى أنحاء الأقطار الإسلامية وانتشر بكثرة على طول الشواطئ الساحلية.³

ليتعدد بذلك النمط العمراني بإفريقية من قصور وحصون وعمائر دينية وغيرها تترجم لنا المعالم الحضارية التي كانت يشهدها العهد الحفصي.

أما بالنسبة للحديث عن مسألة التأثيرات العمرانية والفنية بين البلدين تبقى دراسة تحتاج الى معطيات ودراسات أكثر دقة، خاصة والذي يتوفر لدينا لا يفي بالغرض نظرا لندرة المعلومات والدراسات المتعلقة بهذا الموضوع.

كما أن المشرق رغم تأثيره العميق على إفريقية على عالم المعمار والفنون، وعلى جميع المجالات في الفترات الإسلامية الأولى، فإن تأثيره هذا بدأ يتناقص تدريجيا وبصفة ملحوظة في الفترة المدروسة أي العهد الحفصي.

ولكن الشيء المؤكد هو أنه رغم عدم وجود أي إرتباط سياسي لاسيما بمصر بإعتبارها هي مركز الثقل السياسي في هذه الفترة، وعدم تنقل الأشخاص من المشرق للاستقرار بإفريقية، فإن

¹- عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس تاريخها ومعالمها "أعلام ومعالم"، الوكالة القومية للتراث، المعهد الوطني للتراث، مارس 1997، ص 186

²- نفسه، ص 187

³- جورج مارسية: الفن الإسلامي، تر: عبلة عبد الرزاق، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016، ص 84

التأثيرات العمرانية - الفنية، وإن كانت تضاءلت على مر الزمان، فإنها بقيت موجودة نتيجة العلاقات الاقتصادية والثقافية التي ضلت متواصلة ومستمرة حتى في ظل فترات الإنقسام والإضطرابات، وبقت هذه العلاقات تحركها هجرات الأفراد والجماعات ذات الطابع الشعبي بعيدا عن الطابع الدبلوماسي.

ومن خلال بعض الدراسات التي إستقيناها حول هذا الجانب يمكن أن نستخلص جملة من المؤثرات والتأثيرات المشتركة بين الجانبين المملوكي والحفصي في هذا الجانب.

لقد عرفت المدرسة التونسية خلال العهد الحفصي تأثيرات مشرقية أتت عن طريق مصر من ذلك مدرسة ابن تافارجين التي دفن فيها مؤسسها، إذ عاش الحاجب ابن تافارجين مدة من الزمن في مصر.¹

كما نجد تأثيرات مشرقية في هندسة المدرسة العنقرية، وكذلك الشماعية والعنقية.²

فالمدرسة العنقية والتي كانت أول مدرسة شيدت في القرن 8هـ/14م وانتهى من بنائها سنة 742هـ/1341م وقد أسسها الأمير أبو يحيى أبي بكر (718-747هـ/1318-1346م) ويمكن القول بأنها خضعت في معمارها لتأثيرات مشرقية من ذلك أنها تحتوي على إيوانين يطلان على الصحن من ناحيته الشرقية والغربية، ويوجدان في نفس المكان الذي وجدا فيه بالشماعية وبالتالي تواجد تأثيرات مصرية دخلت البلاد إنطلاقا من أواخر القرن 8هـ/14م.³

كما ظهر بهذه المدرسة نموذج الأضرحة وهو المقتبس أيضا من المشرق.⁴

أما عن مدرسة ابن تافارجين نسبة الى الحاجب ابن تافارجين (ت766هـ/1364م) هذا الأخير قضى مدة من الزمن في الإسكندرية، تمكن خلال هذه المدة سنة 749-751هـ/1348-1350م من التعرف على العادات المشرقية وتقاليدها، ولذلك جلب بعض البنائين معه الى

¹- أحمد الطويلي: مراكز الثقافة والتعليم، المرجع السابق، ص 45

²- نفسه، ص 44

³- برنثيفك، المرجع السابق، ج1، ص 382

⁴- رشيد بورويبة: الطراز الموحد ومشتقاته " الحفصي، المريني، الزياني " ضمن كتاب العمارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1995، ج2، ص 228

مدينة تونس وهو ما يدل على أن التأثيرات المشرقية لم تتقطع بصفة مطلقة، رغم الغزو الهلالي.¹

أما بالنسبة للتأثيرات الموجودة في المدرسة المنتصرية، والتي أسسها أبو عبد الله محمد المنتصر بالله الحفصي (ت 839هـ/1435م) في إحتوائها على ثلاثة أوابين تطل على صحن المدرسة وتتقسم هذه الأوابين الى نوعين: يمثل النوع الأول، الإيوان الواقع في شمال الصحن، إذ أن إطاره بسيط يتوسطه عقد نصف دائري، كما يحتوي المدخل الذي يحتويه هذا الإيوان يحيط به إطار يبلغ عرض كل من عضادتيه 46 سم تعلوه أسكفة وتحتوي على كتابة كوفية ثرية بالأشكال ومزدهرة.²

والنوع الثاني من الأوابين تتمثل في الإيوانين الشرقي والجنوبي، ولهما نفس نوعية الإطار إذ يتوسط كل منهما عقد متكون من فقرات حجرية متتالية الألوان، متمثلة في قطع حجارة بيضاء كبيرات الحجم تتناوب مع فقرات سوداء صغيرة الحجم، ويمتاز هذا الإيوان بنوع من خط النسخي الذي إنتشر بإفريقية ابتداء من القرن 4هـ/10م، خصوصا في الكتابات الدينية وشواهد القبور، وقد إنتشر هذا الخط أيضا في مصر في العهد المملوكي، أما عن طريقة البناء والإطار فإنها بقيت محافظة على الطابع المعماري الإفريقي.³

كما لا ننسى المدرسة الشماعية التي تأسست سنة (634هـ/1236م) والتي تميزت بعنصر مشرقي واضح وهما الإيوانين والذي يتوسط كل منهما الجدار الشرقي والغربي، وأهم ما يمتاز به صحن هذه المدرسة هو إحتواؤه على واجهة هذين الإيوانين.⁴

وهكذا نلاحظ أن العنصر المشرقي المشترك لهذه المدارس هو الإيوان، وقد عرف لأول في إيران وإنتشر في أنحاء المشرق بصفة عامة، ودخل هذا التأثير الى البلاد العربية عن طريق

¹ - عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي، المرجع السابق، ص 185

² - نفسه، ص 197-198

³ - عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس في العهد الحفصي، المرجع السابق، ص 198

⁴ - حسين علي قيس: العمارة الحفصية في المغرب الأدنى، دراسات في آثار الوطن العربي، الجامعة المستنصرية، بغداد، ص

سامراء ثم إنتقل الى مصر ومنها الى إفريقية الفاطمية، وهكذا فقد وجد الإيوان بقيادة قبل أن يوجد في العهد الحفصي.¹

كما يجب الإشارة الى أن مصطلح المدرسة في العهد الحفصي جاء كذلك عن تأثيرات مشرقية، فالمصطلح كان رائجا في المشرق التي ظهرت في الشام ومنها في مصر قبل أن تصل الى إفريقية زمن أبي زكريا الحفصي ونجد نفس العبارة في قصبة تونس.²

أما بالنسبة لعنصر السبيل فقد ظهر في عهد السلطان الحفصي أبي عمر وعثمان (ت 893هـ/1487م) حيث شيد هذا الأخير مدرسة سيدي محرز لوقوعها قرب زاوية الولي محرز بن يخلف وتميزت بعنصر السبيل إضافة الى الإيوانين لعنصر السبيل.³

كما يظهر التأثير المشرقي أيضا في السبيل الذي شيده أبي العباس الحفصي، حيث كان سيلا عموميا وضخم تقليدا للسبيل المصري.⁴

وكان ظهور المارستان في العهد الحفصي شبيها بمارستانات المشرق لإيواء المرضى والعجز.⁵

أما على مستوى العماير نجد القصور على الرغم من أن ما وصلنا منها قليل، ولكن يبدو من خلال الأمثلة التي لدينا أن التأثير المعماري ظل متواصلا بين البلدين فنجد بعض القصور الحفصية شيدت على منوال القصور المملوكية بالمشرق.⁶

وعلى مستوى العماير الدينية نجد أن تونس أخذت من سوريا المآذن، ثم القباب من بلاد ما بين النهرين.⁷

¹-برنشيفك: المرجع السابق، ج2، ص 433

²-نفسه، ج1، ص 375/فوزي محفوظ: مظاهر من تاريخ الفنون والعمارة بإفريقية، ضمن كتاب " تونس عبر التاريخ «، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، 2007، ج2، ص 150

³-رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص 230

⁴-برنشيفك: المرجع السابق، ج1، ص 385

⁵-نفسه ج1 ص 384

⁶-فوزي محفوظ: المرجع السابق، ص 178

⁷-جورج مارسيه: المرجع السابق، ص 82

ولعل طريقة البناء الشائعة في تونس في أواخر العصر الوسيط والمتمثلة في تناوب الحجارة الداكنة والفاتحة تعود الى تأثير مصري متأخر، أكثر مما تعود الى تقاليد محلية قديمة حسب ما يعتقد برنثيفك¹ الذي يذهب الى أن الهندسة المعمارية العسكرية الرائجة في العهد الحفصي ذات تأثير سوري واضح في الأروقة الامامية لبابين من أبواب المنستير، يرجع عهدهما الى القرن الثالث عشر.

أما على مستوى الزخرفة الهندسية نجد تتكاثر الأطباق النجمية في وقت إنتشر فيه إستعمال الرسوم الهندسية وإزدهر فن العمارة الحفصية بشكل بداية من القرنين 8-9هـ / 14 و15م، وقد إستخدمت في تكوين سرر مؤلفة من حشوات متعددة الأضلاع.²

وهو ما نجده في أكواش العقود بميضاة السلطان، كما تواجدت لوحات فسيفسائية من المرمر الأبيض والأسود، وهي تراكيب هندسية بسيطة مكونة من مثلثات متعكسة ومربعات متقاطعة وأشكال نجمية ودوائر متداخلة وغيرها من النماذج المتعددة، تتداخل فيما بينها لكي تشكل نسيجاً من المشبكات متعددة الزوايا أو أشكالاً من الأطباق الأسطوانية.³

وقد إستعملت هذه الألواح في كسوة الجدران وهو ما نجده في ميضاة السلطان، وكذلك في زخرفية الأرضية مثل أرضية زاوية سيدي قاسم الجليزي، ويعود أصل هذا النوع من النماذج الزخرفية الهندسية الى الطراز الأموي، حيث إزدهر في قصر خربة المفجر في أريحا، وقد إستمرت هذه التقنية الزخرفية في العصر الأموي.⁴

ثم إنتشرت في الفن العباسي والسلجوقي والتركي في آواسط آسيا، كما حظيت بمكانة خاصة في فنون العمارة المملوكية بمصر، والراجح أنها وصلت الى إفريقيا عبر المعماريين المصريين في العمارة الحفصية، خاصة بداية من القرن 9هـ / 15م، كما تواصلت في العهد الحفصي

¹ -المرجع السابق، ج2، ص 436

² -توفيق عيساوي: تطور الزخرفة النقائشية الإسلامية بإفريقية خلال العصر الوسيط، شهادة الماجستير في الدراسة المعمقة، إختصاص: آثار وفنون إسلامية، كلية الفنون والإنسانيات، منوبة، 2010-2011م، ص 198

³ -الدولاتي: المرجع السابق، ص 171

⁴ -نفسه، ص 172-173

إستعمال الرسوم الهندسية سواء في تكوين أشكال من العقود المختلفة، كالتى نجدها في ميضة السلطان أو في رسم أشكال هندسية بسيطة كالزخارف الكسائية وكذلك الأشرطة المشابكة.¹

كما نجد كذلك التأثيرات المشرقية على مستوى الزخرفة الكتابية فنجد الخط الكوفي الذي تطور عبر مراحل، ومن ذلك نجد النقائش المعمارية وجميع المصاحف التي نسخت قبل الرابع الهجري بالخط الكوفي السائد في تلك الفترة، حيث جاد فيه خطاطو الكوفة، وهو خط ذو طابع هندسي ظهر في البداية دون أي تنقيط أو تشكيل وتطور فيما بعد بشكل كبير، فأصبح هناك الخط الكوفي المربع الهندسي، والمورق المزخرف ثم إنتشر في العراق كله.²

كما إستخدم في نقش جدران المعالم الدينية وغيرها من خوالد الدفن العمارة الإسلامية وهو من أجود الخطوط شكلا ومنظرا وتنسيقا وتنظيما، وأبتكر الإيرانيون الخط الكوفي الإيراني، وهو نوع من الخط العباسي تظهر فيه المدات أكثر وضوحا ثم ظهر الخط الكوفي المزهر وفيه تزدان الحروف بمراوح نخيلية، تشبه زخارف التوريق.³

ونجد هذا الخط شاع واستعمل في مصر الفاطمية، وعرف كذلك تطورا عما كان عليه وأصبح لنا مقورا، وهم الفنان المسلم هنا تحقيق والتماثل وملء الفراغات، وفيه تدخل زخارف هندسية ونباتية.⁴

ولم يقتصر تطور هذه الزخرفة الخطية في المشرق فحسب، بل شمل كذلك مغربه، ومن بينها إفريقية، فتاريخ الخط العربي بتونس يكاد لا ينفصل عن تطور تاريخ تطور الكتابة العربية الإسلامية ذاتها نظرا للإرتباط العضوي بين تحسين شكل الحروف العربية عند الكتابة وتطويرها وزخرفتها، ويتجلى هذا الارتباط والتطور في النقائش المعمارية والشواهد القبرية التي عرفت في تونس.⁵

¹ -الدولاتي: المرجع السابق، ص 185

² -توفيق عيساوي: المرجع السابق، ص 200

³ - نفسه، ص 200-201

⁴ -رشيد بورويبة: المرجع السابق، ص 225-226

⁵ -توفيق عيساوي: المرجع السابق، ص 201

ونتيجة للعلاقات النشيطة بين السلاطين الحفصيين وممالك مصر ساهمت في غرس أساليب فنية مشرقية خلال القرن 9 هـ/15م، وذلك عن طريق الصناع الذين إستقروا بتونس، وكفوا بأعمال معمارية ساهموا من خلالها في تجسيم تقاليد زخرفية مملوكية، حتى أن بعضهم وجد إسمه فوق النقائش مثل أبي زياد عبد الرحمن المصري الذي نقش إسمه سنة 896هـ/1491م ويلاحظ ذلك في الجزء السفلي من لوحة زخرفية على مدخل زاوية سيدي أحمد بن عروس.¹

ويخلص ابن خلدون التأثيرات الفنية والمعمارية المملوكية في نص نجده في المقدمة حيث يقول: «وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس، إلا أنه متضاعف برسوم تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما، وترد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة، وربما سكن أهلها هناك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر.»²

إن حديثنا عن هذه التأثيرات المعمارية والمميزة لجوانب من مدينة تونس خلال العهد الحفصي خلال القرنين 7-9 هـ/13-15م أساسا يجرنا إلى التساؤل عن تأثيرات من الجانب الآخر.

وإن لم تبرز بشكل واضح تأثيرات إفريقية على المعمار في مصر وبلاد الشام فإنه نكتفي بالإشارة إلى بعض المعلومات المقتضبة، حيث هناك من يذهب إلى وجود قطع خزفية أصيلة بجاية وصلت ووجدت في الإسكندرية بين القرنين 5-8 هـ/11-14م.³

كما نجد أن العمائر المملوكية تميزت بكونها نتاج عدة مؤثرات محلية، طولونية فاطمية وأيوبية أو وافدة من أقصى الشرق وبلاد الروم والشام والمغرب والأندلس.⁴

ولا نستعد أن يكون لإفريقية تأثير في هذا المجال على عالم العمارة المملوكية حتى وإن كان للمشرق له تأثير عميق على بلاد المغرب بصفة عامة وإفريقية بشكل خاص.

¹ - توفيق عيساوي: المرجع السابق، ص 201

² - ابن خلدون: المقدمة، المصدر السابق، ص 203

³ - لطف بن ميلاد: إفريقية وشرق المتوسط: المرجع السابق، ص 384

⁴ - طلعت رشاد البلور: العمارة الإسلامية في مصر العصر المملوكي «، ضمن كتاب العمارة»، المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم، تونس، 1995، ص 211

ولعل من الميزات والعوامل المشتركة التي تميزت به العمارة والفنون بالبلدين هو طابعها الإسلامي في طور نشأتها وتطورها، إقتبست من جميع المؤثرات الثقافية للشعوب التي إعتنقت الإسلام، ثم أخذت طابعا مستقلا، وإبتكر المهندسون نماذج جديدة، كما نجد هذه المدن سواء في المشرق أو المغرب، تتشابه تقريبا في تحديد عناصر وجودها وذلك للوحدة الجغرافية والتاريخية والبشرية والعقائدية القائمة فيما بينها.¹

كما تميزت العمارة الإسلامية بصفات مشتركة منها: وحدتها، سبب وحدة العقيدة والمكونات الثقافية الإسلامية، وقد أسهم في تحقيق هذه الوحدة بما فيها وحدة الجانب الفني تنقلات المغاربة والمشاركة بين الأقاليم والأقطار ولقاءاتهم في مواسم الحج والرحلات العلمية والتجارية.²

كما عرفت العمارة في البلدين بالبساطة من حيث التصميم والإنشاء والزخرفة بإستثناء بعض المنشآت المملوكية التي كانت في غاية الفخامة، بالمقابل كانت إفريقية تتميز بإقامة بعض المساجد الثانوية والبسيطة والمدارس أو الزوايا الخالية من الزخرف.³

أما المماليك فقد عرفوا ببناء المساجد الفخمة والمدارس والأضرحة المنقوشة جدرانها من الداخل والخارج بالزخارف الغنية التي إستمدت جمالها من المهارة الفائقة التي إمتاز بها فن المعمار المملوكي.⁴

الإعتماد في تغطية المباني على القباب، حيث كانت القبة العنصر الأكثر شيوعا ونجد أحسن القباب الإسلامية في مصر التي إمتازت بإرتفاعها وتناسق أبعادها وبالزخارف التي تزين سطحها الخارجي.⁵

¹-عفيف بهنسي: جمالية الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1979، ص 111

²-عبد الرحمن الأعرج: العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك: المرجع السابق، ص 174

³-برنشيوك: المرجع السابق، ج2، ص 437

⁴-ديماند: الفنون الإسلامية، تر: أحمد أحمد عيسى، دار المعارف، مصر، ص 109

⁵-زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ص 50

أما في إفريقية فقد كانت القباب على شكل نصف دائرية تقريبا، ولم تكن لها زخارف زجاجية.¹ إستعمال المآذن حيث كانت المساجد الأولى في الإسلام لا منارات لها حتى أواخر القرن السابع الميلادي، وقد عرف المسلمون من المآذن أنواعا شتى، منها نوع على شكل برج مربع، وقد إنتشر في شمالي إفريقية والأندلس ومن أمثلة ذلك مئذنة المسجد الجامع في القيروان، ونجد أمثلتها في مصر التي غلبت عليها نظام المآذن ذات الأدوار الثلاثة، الأول مربع، والثاني مثنى والأعلى أسطواني.²

إستخدام الصحن أو الفناء المحاط بالأولوين والأروقة كعنصر أساسي في تخطيط المباني بجميع أنواعها.³

العناية بالواجهات وأسوار المباني وخاصة البوابات، فقد كان بتونس عدة أبواب أهمها باب العلوم إضافة الى باب القصبة وهي أبواب مخصصة لعبور الحكام وحاشيتهم ووزرائهم وليست للعامّة إضافة الى العديد من الأبواب الأخرى، كما إشتهرت كذلك القاهرة بأبوابها مثل باب زويلة.⁴

مراعاة التقاليد الإجتماعية والدينية والهندسية وإيجاد الحلول للتكيف مع البيئة المناخية، وإستخدام الماء كمكيف وعنصر تجميل، وإشتهرت تونس بكثرة العيون، كما إشتهرت كذلك القاهرة بأسبيلتها الكبيرة.⁵

تجنب تمثيل الكائنات الحية إلا نادرا والزخرفة والتجميل إستخدام الأشكال النباتية والهندسية وتسخير الخط العربي في الأغراض الفنية.⁶

¹ - زكي محمد حسن: المرجع السابق , ص50

² - أحمد عبد المعطي الجليلي: عمارة المسجد وتطورها في العالم الإسلامي، دار الحكيم للطباعة، القاهرة، 1990، ص 251-252

³ - عفيف بهنسي: المرجع السابق، ص 120

⁴ - توفيق عيساوي: المرجع السابق، ص 213

⁵ - عبد الرحمن الأعرج: العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والمماليك، المرجع السابق، ص 174

⁶ - سعاد ماهر محمد: الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص 52

كما كان للتأثير الأندلسي الميزة البارزة والواضحة التي إشتكرت فيهما العمارة المملوكية والحفصية، حيث كان لهجرة الأندلسيين الى إفريقيا الذين هاجروا اليها كراهية أو طوعا، أن شاركوا أهلها العمران وصارت خطوط أهل إفريقيا كلها على الرسوم الهندسية الأندلسية.¹

كما تسرت كذلك التأثيرات الأندلسية الى مصر زمن المماليك، إما عن طريق التجار الذين تربطهم بمصر علاقات تجارية عبرت عنها المعاهدات التجارية المعقودة بين أرغونة وقشتالة وبين مصر، أو عن طريق المهاجرين الأندلسيين الذين خرجوا من الأندلس على إثر إستيلاء النصارى على مدنهم، وتتجلى هذه التأثيرات في العقود المنفوخة المتجاوزة والعقود التوأمية في الواجهات والمآذن.²

كما تميزت العمائر المملوكية خصوصا بكونها كذلك نتاج مؤثرات محلية ومؤثرات وافدة اليها من المغرب والأندلس كما تمت الإشارة اليه سابقا.

ولعل ما يمكن قوله في ختام هذا المبحث حول التأثيرات العمرانية والفنية المتبادلة بين البلدين هو أن:

فنون العمارة والعمران التي ميزت البلدين إتسمت بالوحدة العامة بين المشرق والمغرب ذات الطابع الإسلامي، كما أن المؤثرات المشرقية المعمارية المملوكية على إفريقيا لم تكن لولا إنتقال أفارقة الى هناك لجلب هذه المؤثرات.

إن التأثيرات المشرقية المعمارية دليل على تواصل الترابط الروحي والتاريخي والعقدي الذي شمل الأقطار الإسلامية منذ الفتح الإسلامي.

لهذا نجد أن العامل الثقافي قد تغلب على عوامل لم تكن مساهمة في صنع علاقة مستمرة مع إفريقيا كالتبعية السياسية، ليمثل بذلك العامل الثقافي العامل المحدد والرئيسي لعودة إفريقيا مجددا والى حظيرة التبعية لبلاد المشرق، ولعل ما ساعد ذلك وعلى توطيد العلاقات بشكل أكبر هي الرحلة بين البلدين.

¹ - عبد العزيز سالم قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، مؤسسة

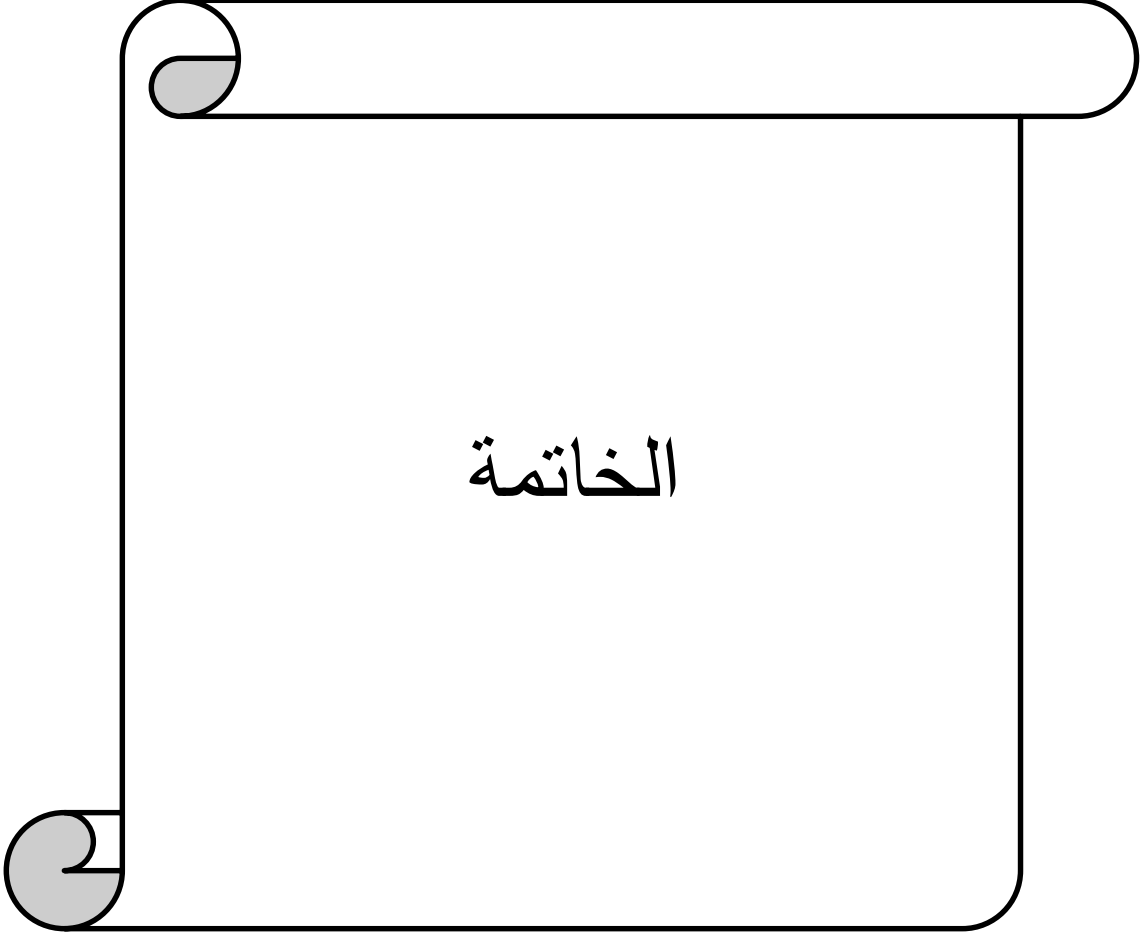
شباب الجامعة، مجلد الثاني، ص 85

² - نفسه، مج 2، ص 62

-فقد كانت الرحلة في طلب العلم ورحلة الحج من الفرص الثمينة التي توفر لطلاب والعلماء المغاربة عامة وإفريقية بشكل خاص التي مكنتهم من لقاء المشايخ والعلماء، ونسج العلاقات فيما بينهم، وأتاحت لهم فرصة الاطلاع على الحياة الفكرية ومظاهرها في بلاد المشرق عامة.

لينتج عن هذا الإتصال الثقافي بين المغاربة والمشاركة عدة مظاهر وآثار في الجوانب الدينية والروحية والعلمية والفنية بين البلدين، مما يترتب عن هذا التفاعل والإتصال الثقافي وإستيعاب التأثيرات الثقافية المتبادلة، وهذا كله أدى الى إمتداد ثقافة كل بلد في البلد الآخر.

كما يتبين أنه خلال هذه الفترة نجد أن نسبة توافد العلماء المغاربة على شرقه أكبر من نسبة توافد علماء المشرق على المغرب، ويمكن تعليل ذلك بأن بلاد المشرق عموما كانت الوجهة والمقصد الأول لعلماء المغرب وإفريقية بشكل خاص بسبب مكانته العلمية وإزدهار الحياة الثقافية به خاصة في مصر، لتظهر بها كبريات الحواضر، لاسيما بعدما أصبحت القاهرة عاصمة الخلافة بعد سقوط بغداد وتحول العلوم والمعارف بها لتصبح بذلك ملاذا لكل عالم ومطلب كل طالب علم.



الخاتمة

قائمة الملاحق

ملحق رقم 1¹

متخذ اللقب من سلاطين بني حفص	متخذ اللقب من الخلفاء العباسيين في القاهرة
-أبو عبد الله محمد الأول المستنصر (649- 675هـ/1249-1277م) -أبو حفص عمر بن ابي زكريا(683- 694هـ/1284-1285م) -أبو ضربة محمد الثالث المستنصر (717- 718هـ/1317-1318م) -أبو إسحاق إبراهيم الثاني المستنصر (751- 770هـ/1350-1369م) -أبو العباس محمد الثاني المستنصر (772- 796هـ/1370-1394م)	أبو القاسم احمد المستنصر بالله (659- 660هـ/1261م)
أبو زكريا يحيى الثاني الواثق (675- 678هـ/1277-1279م)	الواثق بالله إبراهيم بن المستمسك بالله (740- 743هـ/1340-1341م) -الواثق الثاني أبو حفص عمر الثاني (785- 788هـ/1383-1386م)
-أبو عبد الله محمد الثاني المنتصر (694- 709هـ/1295-1309م) -أبو عبد الله محمد الرابع المنتصر(837- 839هـ/1434-1438م)	//
-أبو يحيى بن اللحياني القائم بالله (711- 717هـ/1311-1317م)	//
-أبو البقاء خالد الأول الناصر لدين الله (709- 712هـ/1309-1312 م)	//

¹ -ين ميلاد لظفي: إفريقية والمشرق المتوسطي، المرجع السابق، ص99-100

<p>-المتوكل على الله محمد أبو عبد الله (763- 779هـ/1362-1377م) (791- 808هـ/1388-1405م) للمرة الثانية -المتوكل على الله عبد العزيز الثاني (884- 903هـ/1479-1497م) -المتوكل على الله الثالث بن المستمسك (914هـ-1508م) (923هـ-1517م) للمرة الثانية.</p>	<p>-أبو يحيى أبو بكر الثاني المتوكل (718- 747هـ/1317-1318م) -أبو العباس احمد الأول الفضل المتوكل (750- 751هـ/1349-1350م) أبو فارس عبد العزيز المتوكل (796- 837هـ/1394-1433م)</p>
--	--

جدول ألقاب سلاطين العباسيين في القاهرة والسلاطين الحفصيين

ملحق رقم 4

إسم العالم	تاريخ الوفاة	الأصل	الإختصاصات	المصدر
عبادة بن عبد الله الأندلسي الأديب	422هـ/1032م	الاندلس	الشعر	ج 7 ص 50-52
إبراهيم بن سهل	646هـ/1248م	إشبيلية	الادب والشعر	ج 1 ص 67-74
أبو الحسن الغافقي	649هـ/1251م	الاندلس	علوم الحديث - الاصول	ج 8 ص 152
أبو العباس الأنصاري القرطبي	656هـ/1258م	قرطبة	الحديث -الفقه- العربية	ج 2 ص 44-45
أبو عبد الله الفاسي	656هـ/1258م	فاس	القراءات -الحديث- العربية-الفقه	ج 10 ص 30-31
أبو الحسن الشاذلي	656هـ/1258م	افريقية	الفقه -التصوف	ج 8 ص 89-91
ابن الآبار	658هـ/1260م	آبار (الاندلس)	الحديث-الادب - التاريخ	ج 10 ص 140- 141
عبد السلام القليبي	658هـ/1260م	المغرب	الفقه -التصوف	ج 7 ص 262- 263
ابن سيد الناس	659هـ/1261م	إشبيلية	الحديث -الفقه	ج 9 ص 260
علم الدين الأندلسي	661هـ/1261م	مرسيه(الأندلس)	القراءات -العربية	ج 9 ص 254- 255
محي الدين بن سراقه	662هـ/1263م	شاطبة(الأندلس)	الفقه -الحديث - الشعر	ج 11 ص 51-52

ج10ص252-253	الفقه - الحديث - الشعر	توزر (تونس)	1264هـ/م	التوزري
ج1 ص 186	الفقه-الإفتاء - القراءات	تلمسان	1264هـ/م	أبو إسحاق النجيبى التلمساني
ج11ص170-171	الفقه - الحديث - القراءات - الشعر	وادآشي (الأندلس)	1265هـ/م	ابن مسدي
ج7 ص 144-147	التصوف - الفلسفة	الأندلس	1269هـ/م	ابن سبعين
ج8 ص 230-232	الأدب-الشعر - العربية	إشبيلية	1270هـ/م	ابن عصفور النحوي
ج7 ص 68-69	الأدب - النحو - الشعر	المغرب	1271هـ/م	ابن الأخرس
ج8ص210-211	الفقه-التصوف	سبته	1271هـ/م	أبو الحسن المغربي(المتيوني)
ج9ص255-256	الفقه-التفسير - الإفتاء	قرطبة	1272هـ/م	محمد بن أبي بكر القرطبي
ج8ص 228-229	الأدب-الشعر - النثر	المغرب	1274هـ/م	علي بن موسى الغماري
ج11ص139	الحساب-الهندسة- الطب-علم الكلام - الاصول	قرطبة	1274هـ/م	محمد بن يحيى اليماني القرطبي
ج7ص265-266	القراءات-الإفتاء - الفقه	بجاية	1282هـ/م	عبد السلام بن علي الزواوي
ج5 ص 55	اللغة-النثر-الأدب	قرطاجنة(الاندلس)	1285هـ/م	هني الدين المقرئ
ج2ص 43-44	التصوف	مرسيه	1287هـ/م	أبو العباس المرسي

ج10ص 69	الشعر-الحديث	تلمسان	1289هـ/م	ابن العفيف التلمساني
ج6ص38-43	الأدب-الشعر- التصوف-الحديث	تلمسان	1291هـ/م	العفيف التلمساني
ج10ص148- 149	النحو-القراءات- الحديث-الشعر	تلمسان	1294هـ/م	عبد الله بن عمر الملقب "حافي رأسه"
ج4ص203	الفقه-القراءات	واد آشي	1295هـ/م	أبو محمد الأندلسي
ج9ص187	القراءات-الأدب- النحو-الشعر- العربية	الأندلس	1299هـ/م	ابن المرحل المالقي
ج7ص117-118	التفسير-التصوف	تونس	1299هـ/م	عبد الله محمد المرجاني
ج1ص135	الفقه-علوم الحديث- العربية	الأندلس	1297هـ/م	أبو إسحاق الأندلسي
ج2ص59-60	الفقه-الحديث- الأدب-الشعر	إشبيلية	1299هـ/م	أبو العباس اللخمي الإشبيلي
ج11ص156	النحو-القراءات	إشبيلية	1299هـ/م	البرزالي الإشبيلي
ج10ص111	القراءات	الأندلس	1304هـ/م	أبو القاسم الأندلسي المقرئ
ج8ص184	الحديث-الفقه-النثر	المغرب	1304هـ/م	علاء الدين الباجي
ج10ص14-15	الفقه-الحديث- العربية	إشبيلية	1307هـ/م	ابن مطرف الإشبيلي

ج1ص212-215	القراءات-الحديث- الفقه-اللغة-علم الكلام-التاريخ	الأندلس	708هـ/1308م	ابن الزبير المقرئ
ج1ص32-33	القراءات-الفقه- الحديث-العربية- الإفتاء	إشبيلية ¹	710هـ/1310م	أبو إسحاق الإشبيلي الغافقي
ج10ص251- 252	الأدب-الحديث- القراءات-الفقه- النحو-الشعر	غرناطة ²	721هـ/1321م	ابن رشيد السبتي
ج11ص65	الفقه-القراءات- الفلك(الإسطرديات)- الحديث	غرناطة	730هـ/1330م	ابن سهل الغرناطي
ج8ص223	التاريخ-الحديث	القيروان	732هـ/1331م	أبو زيد الأنصاري الاسدي القيرواني
ج1ص60-61	الفقه-الحديث	تونس	734هـ/1333م	إبراهيم بن الحسن المالكي
ج8ص306	الفقه	تونس	736هـ/1335م	أبو علي الهواري
ج11ص66-69	الفقه-الحديث- النحو-التاريخ- العروض-الطب- الأدب	تونس	738هـ/1338م	ركن الدين الجعفري التونسي

¹-استقينا مكان ولادته من كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج1ص13

²- العسقلاني: المصدر السابق، ج6ص112

ج 1 ص 161-169	الحديث-اللغة- النحو-التفسير- الفقه-الشعر- الأدب-التاريخ- القراءات	غرناطة	745هـ/1344م	أثير الدين أبو حيان
ج 1 ص 86-87	الأدب-الشعر	غرناطة	765هـ/1363م	أبو إسحاق النميري
ج 5 ص 342	الحديث-الأدب- الشعر	الأندلس	767هـ/1365م	ربيع بن يحيى القرطبي
ج 10 ص 63	الفقه-العربية- الأدب-الشعر- النثر	شاطبة(الأندلس)	675هـ/1276م	أبو الوليد الاندلسي الشاطبي المعروف بابن الخبار
ج 2 ص 259-260	الفقه-الأدب-الشعر	تلمسان	776هـ/1375م	ابن أبي حجلة
ج 10 ص 132-140	الفلسفة-الأدب- الفقه-التاريخ-الطب	غرناطة	776هـ/1374م	لسان الدين ابن الخطيب
ج 2 ص 270	الفقه-الأدب-الشعر	غرناطة	779هـ/1377م	أحمد ابو جعفر الرعييني
ج 11 ص 154-155	الفقه-العلوم العقلية- الإفتاء	المغرب	793هـ/1391م	شمس الدين الركراكي
ج 7 ص 205-209	الفقه-الحديث- القراءات-التاريخ- الأدب-العربية- الشعر	تونس	808هـ/1405م	ابن خلدون

عبد القوي بن محمد البجائي	816هـ/1413م	بجاية	الفقه-الحديث-الأدب	ج7ص328-329
خليفة المعتقد المغربي	829هـ/1425م	المغرب	التصوف	ج5ص231-232
محي الدين الحيجاني	842هـ/1438م	حيجانة (المغرب الأقصى)	الفقه	ج12ص74
محمد الفرياني	862هـ/1457م	تونس	الفقه-التاريخ	ج9ص308-309
أبو جعفر القيسي المغربي	1؟	الأندلس	الحديث-الأدب - الشعر	ج1ص317
محمد النجيبى البلشي	623 هـ /1226م ²	بلش (الأندلس)	الأدب-الشعر	ج9ص257
أبو حبيب المغربي	3؟	المحمدية(الأندلس)	الفقه-الأدب-الشعر	ج7ص159

- علماء بلاد المغرب المرتحلين الى بلاد المشرق من خلال كتاب "المنهل الصافي" لابن تغري بردي

¹-لم يتسنى لنا معرفة تاريخ وفاته في كل المصادر التي عدنا اليها

²-يمثل هذا التاريخ، تاريخ الولادة وبيس تاريخ الوفاة

³-لم يتسنى لنا تاريخ وفاته

ملحق رقم 5

المصدر	الوجهة	السنة		الاسم
		الوفاة	الرحلة	
محمد بن مخلوف الصدر السابق، ج1، ص325	الإسكندرية	1385هـ/م		أبو العباس أحمد بن علوان التونسي الشهير بالمصري
حاجي خليفة: شهاب الدين الحسن المرعشي النجفي، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، د ط، بيروت، ج2، ص106، 896	القاهرة	1225هـ/م		أبو العباس أحمد بن علي بن يوسف البوني
خالد بن عيسى البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: حسن بن محمد السائح، دار إحياء التراث الإسلامي، ط1، ج1، ص167	لم تحدد الوجهة	742هـ		أبو الحسن علي المستصر الصفدي

أبو يوسف يعقوب ابن الخليفة الدهماني		1270/هـ669	مصر والحجاز	الدباغ: المصدر السابق، ج3، ص213
مهدي عيسى ابن الصميلي		1347/هـ748م	لم تحدد الوجهة	الدباغ: المصدر السابق، ج4، ص156
أبو العباس أحمد بن عثمان الملباني		1246/هـ644م	لم تحدد وجهته	الغبريني: الدراية، المصدر السابق، ص188
أبو زكريا يحيى بن زكريا السطيفي		1278/هـ677م	مصر والحجاز	الغبريني: المصدر السابق، ص103
أبو إسحاق إبراهيم بن ميمون بن بهلول الزواوي		1287/هـ686م	لم تحدد وجهته	الغبريني: المصدر السابق، ص182، 205
أبو عبد الله ابن شعيب الهسكوري			أقام 23 سنة بالإسكندرية	التنبكتي: المصدر السابق، ص382
أحمد بن مخلوف الشابي	878هـ/ 1473م	1492/هـ998م	لم تحدد وجهته	محمد محفوظ: المرجع السابق، ج3، ص121
أبو العزائم ماضي بن السلطان		1318/هـ718م	الإسكندرية والحجاز	ابن الصباغ: المصدر السابق، ص28

ابن الصباغ: المصدر السابق، ص 31	مصر			أبو علي بن السماط
ابن الصباغ: المصدر السابق، ص 28	لم تحدد وجهته			أبو محمد عبد العزيز الزيتوني
الغبريني: المصدر السابق، ص 200	مصر والحجاز		665هـ	أبو علي عبد المحسن الوجعاني الصواف
السخاوي: الضوء اللامع: المصدر السابق، ج 5، ص 79/محمد بن مخلوف، المصدر السابق، ج 1، ص 373	مصر	1455/860هـ م		عبد المعطي بن خصيب أبو المواهب بن أبي الرخاء المحمدي

بعض الصوفية المرتحلين الى مصر

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر.

- 1- الأنصاري: أحمد بن محمد بن عمر الحمصي: حوادث الزمان ووفيات الشيخ والأقران، ج1، تح: عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، 2000م.
- 2- ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، تح: محمد مصطفى، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، (د، ت).
- 3- الباجي: المسعود أبي عبيد الله الشيخ محمد: الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، مطبعة بيكار، ط2، تونس، 1323هـ.
- 4- البخاري: أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (194هـ/256م): صحيح البخاري، دار ابن كثير، ط1، دمشق، بيروت، 1423هـ، 2002م.
- 5- البرزلي: أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي (841هـ/1483م): فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل بالقضايا والأحكام، تح: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 2002م.
- 6- بيبرس المنصوري (ت765هـ): التحفة المملوكية في الدولة التركية تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من 648هـ /711هـ، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1407هـ/1987م.
- 7- ابن تاج: محمد عبد الرؤوف بن العارفين بن علي المناوي (ت1031هـ): النقود والمكاييل والموازن، تح: رجاء محمود السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق، 1981.
- 8- ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت813هـ /874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، 7، دار الكتب المصرية، القاهرة.

- 9-(-): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح: محمد أمين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1999م.
- 10-(-): الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح: فهم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د، ت).
- 11-التبكتي: أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (963هـ-1036م)، تح: عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكتاب، ط2، طرابلس، 2000م.
- 12-الجهشياري: أبي عبد الله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط 1، القاهرة، 1357م.
- 13-حاجي خليفة: شهاب الدين النجفي المرعشي: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 14-إبن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأبناء العمر (773هـ/852هـ)، ج2، تح: حسين حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1415هـ/1994م.
- 15-(-): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د، ت).
- 16-إبن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (732هـ-808هـ/1332م-1406م): ديوان المبتدأ الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج6، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2000م.
- 17-(-): المقدمة، مراجعة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421هـ-2001م.
- 18-إبن الدباغ: أبو زيد عبد الرحمن الأنصاري الأسدي (ت505هـ/696م): معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج4، تح: محمد المجدوب، عبد العزيز المجدوب، المكتبة العتيقة، تونس، (د، ت).

قائمة المصادر والمراجع:

- 19- ابن دقماق: إبراهيم بن أيدير العلابي: الإنتصار لوسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، ج1، المكتب للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، (د، ت).
- 20- ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، ط1، تونس، 1286م.
- 21- الزركشي: عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ط1، تونس 1289.
- 22- الزياتي: أبو القاسم الزياتي: الترجمان الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلاي، دار نشر المعرفة، الرباط، 1412هـ / 1991م.
- 23- السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج6، 4، دار الجيل، بيروت، (د، ت).
- 24- (-): وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تح: بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د، ت).
- 25- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان، المطبعة الأمريكية، نيويورك، 1927م.
- 26- (-): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط1، 1387هـ، 1967م.
- 27- ابن الشماخ: أبو عبد الله محمد: الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الظاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، 1984م.
- 28- ابن الصباغ: درة الأسرار وتحفة الأبرار، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2001م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 29-الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1420هـ، 2000م.
- 30-الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تح: حسن حبشي، مطبعة دار الكتاب، 1970م.
- 31-إبن طباطبا: محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1997م.
- 32-الظاهر: غرس الدين خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان المسالك، مطبعة الجمهورية، باريس، 1894م.
- 33-إبن عبادالرندي: الرسائل الصغرى، نشرها الأب بولس اليسوعي كانون الثاني، 1959م.
- 34-إبن عقيل: محمد بن حسن موسى: المختار المصون من أعلام القرون مختارات تسعة عشر كتابا من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة، (د، ت).
- 35-إبن عماد: شهاب الدين أبي الفرج عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي الدمشقي (1032هـ/1089م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج9، تح: محمود الأرنؤوط عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، (د، ت)
- 36-العمري: (ت 700 هـ -749 هـ): التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 1408هـ-1998م.
- 37-العيني: بدر الدين محمود (ت855هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، تح: محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2009م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 38- الغبريني: أبو العباس: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط2، 1979م.
- 39- أبي الفداء: المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي (672هـ - 732هـ/1273م-1331م): المختصر في أخبار البشر، ج3، تح: محمد زينهم، محمد غرب وآخرون، دار المعارف، (د، ت).
- 40- ابن قنفذ: القسنطيني أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب (ت810هـ/1407م): الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تق: محمد الشاذلي النفير، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م.
- 41- ابن كثير: الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (401هـ - 774هـ): البداية والنهاية، ج 17، تح: عبد الله عبد المحسن التركي، دار الهجر، ط1.
- 42- مارمول كارخال: إفريقيا، ج2، تر: محمد حجي، أحمد التوفيق وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1408هـ-1988م.
- 43- مجهول: الإستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د، ت).
- 44- محي الدين بن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح: مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1971م.
- 45- مخلوف: محمد محمد بن عمر بن قاسم مخلوف (ت1360هـ) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت و1424هـ-2003م.
- 46- المراكشي: عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، (د، ت).

قائمة المصادر والمراجع:

- 47- ابن مريم: أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد: ذكر الأولياء العلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية والجزائر، 1908 م.
- 48- المقرئزي: (ت845هـ) تقي الدين أحمد بن علي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، 2، المعروف بالخطط المقرئزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م.
- 49-(-): المقفى الكبير، ج5، تح: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامى، ط1، بيروت، 1414هـ، 1991م.
- 50-(-): إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح: كرم حلمى فرحات، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1427هـ، 2007م.
- 51-(-): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418هـ، 1997م.
- 52-المكي: تقي الدين محمد أحمد الحسينى الفاسى (775هـ-832هـ): العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين، ج5، تح: فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1405هـ/1985م.
- 53- ابن ملقن (723هـ-804هـ): طبقات الأولياء، تح: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجى، ط2، القاهرة، 1415هـ-1994م.
- 54-الناصرى: أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصرى، محمد الناصرى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.
- 55-النبهانى: يوسف بن إسماعيل النبهانى (1265هـ/1350هـ): جامع كرامات الأولياء، ج2، تح: إبراهيم عطوة عوض، مركز أهل السنة بركات رضا، ط1، غجرات، الهند، 2001م.

- 56- النويري: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري (733ت): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج28، وتح: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1424هـ/2004م.
- 57- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (697هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج4، تح: حسنين محمد ربيع، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، (د، ت).
- 58- ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر (749هـ)، تاريخ ابن الوردي، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ/1996م.
- 59- وليم الصوري: الحروب الصليبية، ج3، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1992.
- 60- الونشريسي: أبي أحمد بن يحيى (914 هـ)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1401هـ-1981م.
- ب الرحالة والجغرافيين:**
- 1 - الإدريسي: الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبع بريل، ليدن، 1862
- 2 - ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، ط1، بيروت، 1407هـ-1987م.
- 3 - البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- 4 - التجاني: أبو عبد الله بن محمد بن أحمد، الرحلة، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م.
- 5 - ابن جبير: الرحلة، دار صادر، بيروت.

- 6 - الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، إحسان عباس، مكتبة لبنان ط2، بيروت، 1984.
- 7- ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996م.
- 8 -(-): المسالك والممالك، مطبع بريل ليدن، 1872
- 9- ابن خردزابه: المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1889م.
- 10- ابن خلدون(808): الرحلة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1425هـ-2004م.
- 11-(-): التعريف بابن خلدون و رحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، د.ط ، لبنان ، 1979م.
- 12- ابن رشيد السبتي: أبي عبد الله محمد بن عمر، الرحلة، دراسة وتحليل: أحمد حدادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1424هـ/2003م.
- 13 - ابن سعيد المغربي: الجغرافيا، إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1970
- 14 -العبدري: أبو عبد الله العبدري، الرحلة، تح: علي إبراهيم كروي، دار سعد الدين، ط2، دمشق، 1426هـ-2005م.
- 15 -العمرى: ابن فضل الله العمرى شهاب الدين احمد بن يحيى (849هـ)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سليمان الجبوري، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2010م، ج1، 3، 4.
- 16-القزويني: زكريا بن محمد بن محمود: أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د، ت،).
- 17 -القلصادي: أبي الحسين علي(ت891هـ)، الرحلة، تح: محمد ابو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.
- 18 -المقدسي: المعرف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدلولي، ط3، القاهرة، 1411هـ-1991م.

- 19 - ناصر خسرو علوي: سفرنامه، تر: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1993م.
- 20- حسن الوزان: إفريقيا، تر محمد حجي، محمد الأخضر، ط2، 1983م.
- 21- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، ج1، 3، 4، 5.
- 22- اليعقوبي: البلدان، مطبع بريل، ليدن، 1860م.
- ثانيا: المراجع:
- 1- إبتسام مرعي خلف الله: العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي 564-936هـ/1130-1529، دار المعارف، الإسكندرية، 1405هـ/1985.
- 2- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420هـ/200م.
- 3- إحسان إلهي ظهيري: دراسات في التصوف الإسلامي، دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع، ط1، 1426هـ/2005م.
- 4- أحمد عبد الرزاق أحمد: العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي (621-923هـ/641-1517م)، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة 1430هـ/2000م.
- 5- أحمد الطويلي: مراكز الثقافة والتعليم بمدينة تونس في العهد الحفصي، تونس، 2000
- 6-(-): في الحضارة العربية التونسية، منشورات دار المعارف للطباعة، تونس، (د.ت)
- 7-(-): الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي (600-950هـ/1204-1543م)، مركز النشر الجامعي، تونس، 2014
- 8- أحمد خالد جيدة: المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك، ط1، بيروت، 1422هـ/2001م
- 9- أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، (د.ت)
- 10- أحمد مختار العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1995

قائمة المصادر والمراجع:

- 11- أحمد معطي جلاي: عمارة المسجد وتطورها في العالم الإسلامي، دار الحكيم للطباعة، القاهرة، 1990
- 12- أحمد بكير محمود: المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب، دار قتيبة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1411هـ/1990م.
- 13- أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100م)، تر: محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د.ت).
- 14- إسكاة حسين: تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1-9هـ/7-15م)، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، 2004
- 15- أغناطيوس توليانوفتش كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج1، نقله الى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والنشر، 1957
- 16- أمين توفيق الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج2، الدار العربية للكتاب، 1997
- 17- الأمين محمد عوض الله: أسواق القاهرة منذ العصر الفاطمي حتى نهاية المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007
- 18- أنطوان خليل ضومط: الدولة المملوكية التاريخ السياسي والإقتصادي والعسكري، دار الحداثة، ط2، بيروت، 1982
- 19- أوليفيا ريمي كونستيل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب: فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، (د.ت).
- 20- أيمن فؤاد السيد: القاهرة خططها وتطورها العمراني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015
- 21- إيناس حسن البهيجي: دولة المماليك البداية والنهاية، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، 2015.
- 22- عبد الباسط فؤاد: ابن راشد القفصي وآثاره العلمية، الدار التونسية للكتاب، ط1، تونس، 2011
- 23- جاستون قيت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، تر: مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، بيروت، 1968

- 24- بن جدلة إبراهيم: المجتمع الحضري بإفريقية في العهد الحفصي، منشورات وحدة البحث، قصة، 2015.
- 25- جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر المملوكي، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، مصر، 1421هـ/2001م.
- 26-(-): تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت.).
- 27- جورج مارسيه: الفن الإسلامي، تر: عبلة عبد الرزاق، المركز القومي للترجمة، ط1، 2016
- 28-(-): بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، تر: محمد عبد الصمد هيكل، مطبعة الإنتصار، الإسكندرية، 1999
- 29- حسام الدين عباس الحروزي: الحركة الفكرية ومراكزها في نيابة دمشق في عصر المماليك البحرية (648هـ-1250م/784-1383م)، الهيئة العامة السورية للكتاب، 2010
- 30- حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، دار الكتب العربية الشرقية، ط3، تونس.
- 31- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1412هـ/1992م.
- 32- حسين القزويني: العملة الإسلامية، شركة الربيعان، ط1، الكويت، 1945
- 33- حسين علي قيس: العمارة الحفصية في المغرب الأدنى، دراسات في آثار الوطن العربي، الجامعة المستنصرية، بغداد (د.ت.).
- 34- حسين فهمي: أدب الرحلات، عالم المعرفة، عدد138، الكويت، 1978م.
- 35- حلمي محمد سالم: إقتصاد مصر الداخلي وأنظمتها في العصر المماليكي، دار الرشاد الإسكندرية، (د.ت.).
- 36- عبد الحليم عويسي: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، دار الزهراء للإعلام العربي، ط2، القاهرة، 1409هـ/1988م.

- 37- حياة ناصر الحجبي: أنماط من الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر، الكويت، 1995
- 38-(-): السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك فترة حكم السلاطين المماليك البحرية من سنة 661هـ/1262م إلى 784هـ/1282م، مجلس النشر العلمي، ط1، الكويت، 1997
- 39-ديماند: الفنون الإسلامية، تر: أحمد أحمد عيسى، دار المعارف، مصر، (د.ت).
- 40-رأفت محمد النبراوي: النقود الإسلامية في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، ط2، القاهرة، 1996
- 41-رشيدة بالسورور: مركز تجاري في مصر السفلى الإسكندرية خلال العهد المملوكي، مركز النشر الجامعي، الإسكندرية (د.ت).
- 42-روبار برنشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ج1-2، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988
- 43-زكي محمد حسن: في الفنون الإسلامية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، (د.ت).
- 44-سحر عبد العزيز سالم: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، ج1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997.
- 45-سعاد ماهر محمد: الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986
- 46-سعيد عبد الفتاح عاشور: بحوث ودراسات في العصور الوسطى، دار الأحد، بيروت، 1977
- 47-(-): عصر المماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1965
- 48-(-): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1996
- 49-شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، ط5، دمشق، 1425هـ/2005.
- 50-شوقي ضيف: من المشرق والمغرب بحوث في الأدب، دار نويار للطباعة، ط1، القاهرة، 1419هـ/1998م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 51- شوقي عبد القوي عثمان حبيب: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر سلاطين المماليك، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.
- 52- صلاح الدين المنجد: المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، دار الكتاب الجديد، ط1، بيروت، 1963
- 53- عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 2003
- 54- عبد العزيز الدولاتي: مدينة تونس تاريخها ومعالمها -أعلام ومعالم-الوكالة القومية للتراث، المعهد الوطني للتراث، مارس.1997
- 55-(-): مدينة تونس في العهد الحفصي، تح: محمد الشابي وعبد العزيز الدولاتي، دار سراسر للنشر، تونس، 1981
- 56- عبد العزيز سيد سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، أثرية في العصر الإسلامي)، مجلد 2، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ت).
- 57-(-)، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969
- 58- عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، ج2، موفم للنشر، الجزائر، 2007
- 59- عفت محمد الشرقاوي: الثقافة العربية بين الوحدة والتعدد في حوار المشرق والمغرب، دار العلوم، ط1، القاهرة، 2007م.
- 60- عفيف بهنسي: جمالية الفن العربي، عالم المعرفة، الكويت، 1979
- 61- علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، ط3، القاهرة، 1967
- 62- علي السيد علي محمود: الحياة الاقتصادية في جدة عصر سلاطين المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، 1991
- 63- عمر الجيدي: مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، دن، ط1، 1933

قائمة المصادر والمراجع:

- 64- فاروق عثمان إباضة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1119م.
- 65- فريد محمود شافعي: العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عمادة شؤون المكتبات، ط1، الرياض، 1401هـ/1982م.
- 66- قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة، 1999م.
- 67- (-)، علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك "التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، (د.ت).
- 68- فالتر هنتس: المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط2، الأردن، 2001
- 69- كريم عاتي الخزاعي: أسواق بلاد المغرب بين القرنين السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، الدار العربية للموسوعات، ط1، بيروت، 1432هـ/2011م.
- 70- كمال الدين سامح: العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت).
- 71- كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المغرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1996
- 72- عبد الله بن دجين السهلي: الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وآثارها، كنوز إشبلياً للنشر والتوزيع، ط1، السعودية، 1426هـ/2005م.
- 73- عبد المجيد بن حميدة: المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، ط1، تونس، 1406هـ/1986م.
- 74- محفوظ محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، ج4، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1405هـ/1985م.

قائمة المصادر والمراجع:

- 75- محمد بن طاهر بن عاشور: أليس الصبح بقريب "دراسة تاريخية وآراء إصلاحية"، دار السلام، ط1، القاهرة، 1427هـ/2006م.
- 76- محمد الطاهر المنصوري: تونس في العصر الوسيط "إفريقية من الإمارة الأغلبية إلى السلطة المستقلة"، صامد للنشر والتوزيع، ط1، تونس، 2015
- 77- محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1986م.
- 78-(-): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982
- 79- محمد حسن: المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج1-2، جامعة تونس الأولى، 1999.
- 80- محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، ط1، بيروت، 1418هـ./1997
- 81- محمد عزيز ابن عاشور: جامع الزيتونة "المعلم ورجاله"، دار سراسر للنشر، تونس، 1991
- 82- محمد العناقرة: المدارس في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2015
- 83- محمد لحو: القضاء بإفريقية في العهد الحفصي، المعهد العالي للعلوم الإنسانية، تونس، 2013
- 84- محمد المرزوقي: قابس جنة الدنيا، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت).
- 85- محمد الهادي شريف: تاريخ تونس، دار سراسر للنشر، ط3، تونس، 1993
- 86- محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، ط1، القاهرة، 1996
- 87- محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية 1095-1291م، دار المعرفة الجامعية، بيروت، 2000
- 88- محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ج1، تح: علي الزواري، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988

- 89- مختار العياشي: في تاريخ المدرسة التونسية، مركز النشر الجامعي، منوبة، 2012
- 90- مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية: تونس من العهد العربي الإسلامي الى حركات الإصلاح، ج2، تونس. 2007
- 91- ممدوح حسين: الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري سنة(668-792هـ/1270-1390م)، دار عمان، ط1، الأردن، 1419هـ/1998م.
- 92- المصطفى الوظيفي: المناظرة في أصول التشريع الإسلامي دراسة في التناظر ابن حزم والباجي، د.ط، 1419هـ/1998م.
- 93- منشورات اتحاد المؤرخين العرب: طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، القاهرة، 1421هـ/2000م.
- 94- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: العمارة، ج2، تونس، 1995م.
- 95- عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، ط2، القاهرة، 1997
- 96- بن ميلاد لطفي: إفريقية والمشرق المتوسط من أواسط القرن 5هـ/11م إلى مطلع القرن 10هـ/16م، دار المغاربية، تونس، 2011
- 97- نادية محمود مصطفى: العصر المملوكي في تصفية الوجود الصليبي إلى بداية الهجمة الأوروبية الثانية (642-923هـ/1258-1517م)، المعهد العالي للفكر الإسلامي، القاهرة، 1417هـ/1996م.
- 98- ناصيف ناصر: ابن خلدون في منظور الحداثة "ابن خلدون ومنابع الحداثة"، بيت الحكمة، تونس، 2008.
- 99- نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1393هـ/1973م.
- 100- نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك: مؤسسة فرانكلين للطباعة، بيروت، نيويورك، (د.ت).

قائمة المصادر والمراجع:

- 101-هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج3، تعريب: أحمد رضا، محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994
- 102-عبد الواحد ذنون طه: الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والشرق، دار المدار الإسلامي، ط1، بيروت، 2005
- 103-(-): أبحاث في تاريخ المغرب والأندلس وصور من التواصل الحضاري مع المشرق، دار الحامد، ط1، عمان، 1435هـ/2014م.
- 104-أبو الوفاء الغنيمي التفتزاني: مدخل الى علم التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط3، القاهرة، د.ت.

ثالثا: المراجع الاجنبية

- 1-hapoutot (Mounira remadi) : entre Ifriqiya et Egypte mamelouke ; des relations anciennes continues et consolidées ،Leiden ،Brill
- 2-rebort Brunschvicg : deux récits de voyage inedits en Afrique du nord au XV siècle « Abad albasit ،B ،halil etadorne ،Larose ،éditeurs ،paris ،1936.

رابعا: الرسائل العلمية

- 1-إلهام حسين دحدوح: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية حوالي 442هـ-625هـ/1051-1247م): رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة القاهرة، 2000
- 2-آمال رمضان عبد الحميد صديق: الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م): أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم الدراسات العليا التاريخية، جامعة أم القرى، 1421هـ-2001
- 3-آمال سالم عطية: السفارات في المغرب الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13-14م)، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، تخصص الغرب الإسلامي تاريخ وحضارة، جامعة مصطفى إسطنبولي، معسكر، 1436-1437هـ/2015-2016

قائمة المصادر والمراجع:

- 4-أماني بنت سعيد الحربي: مصر من خلال كتابات الرحالة المغاربة في القرنين السابع والثامن الهجريين (13-14م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1436هـ/2015م.
- 5-بغداد غربي: العلاقات التجارية للدولة الموحدية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أحمد بن بلة، وهران 1، 1435-1436هـ /2014-2015م
- 6-توفيق عيساوي: تطور الزخرفة النقائشية الإسلامية بإفريقية خلال العصر الوسيط، شهادة الماجستير في الدراسة المعمقة، إختصاص آثار وفنون إسلامية، كلية الفنون واللسانيات، منوبة، 2010-2011م.
- 7-جميلة مبطي المسعودي: المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص منذ قيامها سنة 621هـ وحتى سنة 893هـ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1421هـ/200م.
- 8-خالد محمد السالم العميرة: موانئ البحر الأحمر وأثرها في تجارة دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، أطروحة مقدمة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جامعة اليرموك، 2004
- 9-عبد الرحمن الأعرج: علاقات دول المغرب الإسلامي بدول المماليك سياسياً وثقافياً بين القرنين السابع والتاسع الهجريين 7-9هـ/13-15م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه العلوم، تخصص، تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة ابي بكر بلقايد، تلمسان، 2012-2013م/1433-1434هـ.
- 10-(-): العلاقات بين دولة بني زيان والمماليك، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة تلمسان 2008
- 11-شوكت محمد لطفي عبد الرحمن قاضي: العمارة الإسلامية في مصر (النظرية والتطبيق)، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه في العمارة (التصميم المعماري)، كلية الهندسة، جامعة أسيوط، 1998.

قائمة المصادر والمراجع:

- 12- عمارة فاطمة الزهراء: المدارس التعليمية بتلمسان خلال القرنين 8-9هـ/14-15م، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 1430-1431هـ/2009-2010م.
- 13- لبنى لوانسة: النقد التطبيقي في الرحلات المغربية في القرنين السابع والثامن الهجريين، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 1434-1435هـ/2013-2014م.
- 14- محمد بن ساعو: التجارة والتجار في المغرب الإسلامي القرن 7هـ-10هـ/13-15م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الحاج لخضر 1434-1435هـ/2013-2014م.
- 15- محمد الكحلوي: الفكر الصوفي بإفريقية في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه موحدة في اللغة والآداب العربية، كلية الآداب والفنون واللسانيات، منوبة 2005-2006م.
- 16- مريم محمد عبد الله جبوده: التجارة في بلاد إفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدوي والحفصي (355-980هـ/1160-1572م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، قسم التاريخ، جامعة الزقازيق، 2008
- 17- نيللي سلامة العامري: التصوف في إفريقية في العهد الحفصي من القرن السابع الهجري /الثالث عشر ميلادي الى نهاية القرن التاسع الهجري -الخامس عشر ميلادي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، تونس، 1996.

خامسا: الدوريات

- 1- أثير عبد الكريم صادق: التجارة في صفاقس خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، مجلة دراسات تاريخية، جامعة البصرة، العدد 6، 2014
- 2- إسراء مهدي: نشاط ومعوقات التجارة في عصر دولة المماليك (648-923هـ/1250-1517م)، مجلة دراسات للعلوم الإنسانية، جامعة واسط، عدد 12.

- 3-آمنة سليمان البدوي: الرحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من (ق 3 هـ -ق9هـ)، تقص وعرض، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 41، عدد، 2، عمان 2014.
- 4-بنعيسى بويوزان: فضل الحج على العلم في الغرب الإسلامي من خلال رحلات الحج من القرن الخامس الى القرن التاسع الهجريين، بحث مقدم الى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، 1426هـ.
- 5-جمال الدين دراويل: جريه " العمق التاريخي والثراء الحضاري "، مجلة الحياة الثقافية، العدد 240، تونس، 2013
- 6-حمزة حمادة: إسهامات المماليك في الحركة العلمية ودورهم الاجتماعي في المشرق العربي (648هـ/1249م-923هـ/1517م)، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة حمة لخضر الوادي، عدد16، جوان 2016.
- 7-صالح فياض أبو دياك: النظام المالي عند الحفصيين، مجلة دراسات تاريخية، العدد 21-22، جامعة دمشق، 1986
- 8-صفوان طه حسين: سياسة الملك الظاهر بيبرس (658هـ-676هـ/1259-1277م) تجاه أمير الحجاز، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل مجلد 9، عدد1، 2009
- 9-عبد العزيز بن راشد السنيدي: المجاورون في مكة وأثرهم في الحياة العلمية خلال الفترة من (570هـ-660هـ/1174-1261م)، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة، عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة القصيم، 1326هـ.
- 10-علي محمد سميو: التجارة والأسواق في إقليمي برقة وطرابلس الغرب من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين مع المقارنة بما جاء في المصادر التاريخية من القرن 5 إلى7هـ، مجلة كلية الآداب، العدد 1، جامعة مصراته.
- 11-لمى فائق أحمد: الإسلام في إفريقيا وأثره في تطور العلاقات التجارية مع مصر، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العدد 2، 2011

قائمة المصادر والمراجع:

- 12- محفوظ الغديقي: التجارة البحرية بين المغرب العربي المتوسطي من خلال كتب النوازل، قضايا تاريخية، العدد، 1، تونس، 1437هـ/2016م.
- 13- محمد قويسم: فقهاء مدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي 625-981هـ/1227-1573م، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، جامعة سكيكدة، 2015
- 14- مروان عاطف الظلاعين: السلع التجارية في الأسواق المصرية في دولة المماليك البحرية (648-784هـ/1250-1382م)، المجلة الأردنية التاريخية والآثار مجلد 6، العدد 2، الأردن. 2012.
- 15- بن ميلاد لطفي: المشاركة في إفريقية خلال القرن الأخير من العصر الوسيط، مجلة الكراسات التونسية، العدد 205، 206، جامعة تونس، 2008
- 16-(-): أثر العمل المشرقي في الثقافة بإفريقية من قدوم الهلاليين الى نهاية العصر الوسيط، مجلة المشكاة، جامعة الزيتونة، عدد7، 2009
- 17-(-): تجار الهند من البحر الأحمر الى المحيط الهندي والصين (نهاية القرن 5هـ/11م) الى نهاية القرن 9هـ/15م. [https:// journals openedition. Org /anis /3884](https://journals.openedition.org/anis/3884)
- 18-نعيمة بوكرديمي: البيوتات العلمية بمدينة قسنطينة خلال العهد الحفصي وإسهامها الثقافي، مجلة عصور الجديدة، عدد18، قسنطينة، 1436-1437هـ/2015-2016م.
- 19-نوري أحمد عبيريد: التواصل المعرفي بين علماء الغرب الإسلامي وشرقه في العصر المملوكي دوافعه ومظاهره، بحث مقدم لأعمال المؤتمر الدولي الثامن للغة العربية المنعقد بدبي، جامعة طرابلس 1434هـ/2013.

سادسا: القواميس

- 1-الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ)، القاموس المحيط، تح، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1426هـ/2005م.
- 2-ابن منظور: لسان العرب، ج32، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

سابعا: الموسوعات والدوائر

قائمة المصادر والمراجع:

- 1-العربي عبد الرزاق: قابس، دائرة المعارف التونسية، عدد خاص في تاريخ إفريقيا، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، 1994.
- 2-قصي الحسين: موسوعة الحضارة العربية "العصر المملوكي والعثماني"، دار مكتبة الهلال، ط1، بيروت، 2004.
- 3-مانع بن حماد الجهني: موسوعة المسيرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، مجلد 2، الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط4، (د.ب)، 1420هـ.

المحتويات

شكر وعرافان

إهداء

.....مقدمة

الفصل الأول: تاريخ العلاقات السياسية بين المماليك والحفصيين

.....المبحث الأول: جذور التواصل المملوكي الحفصي

.....المبحث الثاني: مسألة الخلافة الإسلامية وأثرها على مجرى العلاقات

.....المبحث الثالث: موقف المماليك من حركة أبي زكريا اللحياني

.....المبحث الرابع: أثر المراسلات والسفارات في دعم العلاقات المملوكية - الحفصية

الفصل الثاني: النشاط الاقتصادي ومظاهره

.....المبحث الأول: طرق التجارة ومحطاتها

.....المبحث الثاني: المنشآت والنظم التجارية

.....المبحث الثالث: وسائل التعامل التجاري

.....المبحث الرابع: المبادلات التجارية

الفصل الثالث: التأثير الثقافي المملوكي - الحفصي

.....المبحث الأول: الرحلة بين المغرب والمشرق

.....المبحث الثاني: انتشار المذاهب والفرق الدينية

.....المبحث الثالث: المجال العلمي

.....المبحث الرابع: التأثيرات العمرانية الفنية

.....خاتمة

.....الملاحق

.....قائمة المصادر والمراجع

.....فهرس المحتويات